من تراث العلامة النَّدوي

# دِرَاسَاتٌ قُرآنِيَّةٌ

لِلْعَلَّامَة الإِمَام السَّيِّد أَبِي الحَسَن علي الحسني النَّدويّ

إعداد

سيّد عبد الماجد الغوري

دار ابن كثير

دراسات قرآنية

حقوق الطبع والتصوير محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م

للطباعة والنشر والتوزيع

دمشق - حلبوني - جادة أبن سينا - بناء الجابي
ص.ب : ٣١١ - هاتف: ٢٢٢٥٨٧٧ - ٢٢٢٨٤٥٠ - فاكس: ٢٢٤٣٥٠٢

بيروت - برج أبي حيدر - خلف دبوس الأصلي - بناء الحديقة
ص.ب: ٦٣١٨ / ١١٣ - تلفاكس ١٨١٧٨٥٧ - ٣٢٠٤٤٥٩

من تراث العلامة النَّدوي

# دِرَاسَاتٌ قُرآنِيَّة


لِلْعَلاَّمَة الإمَام السَّيِّد أَبي الحَسَن عَلي الحسني النَّدويّ

١٣٣٣ - ١٤٢٠هـ

إعداد

سيّد عبد الماجد الغوري



دار ابن كثير

دمشق - بيروت

﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [ الإسراء : ٨٨ ] .

﴿ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴾

[ الطور : ٣٣ ـ ٣٤ ] .

قال ﷺ : « ما مِن الأنبياء نبي إلا أُعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر ، وإنما كان الّذي أوتيتُه وحياً أوحاه الله إلي ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة » .

( رواه البخاري ٤٩٨١ )

# مقدمة الكتاب

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ، صلّى الله عليه وآله وسلم .

وبعد : فإن القرآن الكريم كلام الله المعجز في أسلوبه ونظمه ، وفي علومه وحِكَمه وفي تأثير هدايته ، وفي كشفه الحجب عن الغيوب الماضية والمستقبلة ، وفي كل باب من هذه الأبواب للإعجاز فصول وفي كل فصل منها فروع وترجع إلى أصول ، وقد تحدَّى العربي الأمي ﷺ أساطينَ العرب الفصحاء بإعجازه ، وحكى لهم عن ربه القطع بعجزهم عن الإتيان بسورة مثله ، فعجزوا ، وذلك في عصر كانت القوى فيه قد تَوَافَرَتْ على الإجادة والتبريز في هذا المضمار ، وفي أُمَّة كانت مواهبها محشودة للتفوّق في هذه الناحية ! وإذا كان أهل الصناعة هؤلاء قد عجزوا عن معارضة القرآن فغيرهم أشدُّ عجزاً وأفحش عيّاً .

وهاقد انقضت على اللغة العربية أدوار مختلفة من عصر نزول القرآن إلى عصرنا هذا بين علو ونزول واتساع وانقباض ، وحركة وجمود ، وحضارة وبداوة . والقرآن في جميع هذه الأدوار واقف على علياء سمائه يشع نوراً وهدايةً ، ويفيض عذوبةً وجلالةً ، ويسيل رقةً وجزالةً ، ويرفُّ جدَّةً وطلاوةً ، ولا يزال غضاً طرياً يحمل راية الإعجاز ، ويتحدَّى أمم العالم في يقينٍ وثقةٍ قائلاً في صراحة الحق وقوته ، وسلطان الإعجاز وصولته : ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [ الإسراء : ٨٨ ] .

إن عودة المسلمين في عصرنا الحاضر إلى كتاب ربهم أصبحت حقيقةً واقعةً ، والإقبال على الدراسات القرآنية أصبحت ظاهرة لافتة للنظر ، والدراسات القرآنية تظلُّ إسهاماً جاداً في سبيل خدمة كتاب الله سبحانه وتعالىٰ وتبيان آياته للناس من قبل العلماء والمختصين . . . وعالمنا الإسلامي لم يزل

ولا يزال زاخراً بعديد من كبار العلماء الّذين اشتغلوا بتفسير القرآن الكريم وتبيان إعجازه في كل مجالات الإعجاز ، في اللغة ، في التشريع ، في البيان والوضوح ، وفي آيات إعجازه في الكون والخلق ، ومن هؤلاء العلماء المشتغلين بدراسات القرآن الكريم شيخنا ومربينا العلامة الإمام السيد أبو الحسن علي الحسني الندوي ـ رحمه الله ـ الّذي كان من أنبغ وأكبر تلاميذ مدرسة القرآن الإيمانية والعلمية ، والدعوية والإصلاحية ، درس في أيام طلبه للعلم أمّات كتب التفسير على كبار العلماء المختصين فيها ، واستفاد من كبار الأساتذة المشتغلين بالموضوع في عصره ، واطَّلع على أكثر ما نشر من بحوث وتعليقات ، وكتب عصرية ، في هذا الموضوع ، فعيِّن مدرساً في عنفوان شبابه للتفسير في دار العلوم لندوة العلماء في أوائل الثلاثينيات من الميلاد ، واستمرَّ على ذلك زهاء عشر سنين درَّس خلالها متن القرآن في فصول مختلفة ، فشعر العلامة في أول احتكاكه مع الطلبة بأنه لا بدَّ قبل تدريس متن القرآن الكريم وشرحه من إلقاء الأضواء الكاشفة حول خصائص القرآن ومزاياه وعلومه ونبوءاته ، ووجوه إعجازه ، ومجالاته الواسعة ، فأملى عليهم مقالات هامة في القرآن من جميع نواحيه تُهيِّئُ العقول والأذهان لدراسة القرآن العميقة والإيمان بإعجازه وخلوده ، ثم نُشرت معظم تلك المقالات في مجلة « الضياء » ومجلة « الندوة » العربية التي كانت تصدر يومئذ عن دار العلوم ندوة العلماء ، وفي مجلة « المسلمون » الغرّاء التي كانت تصدر في جنيف برئاسة الدكتور سعيد رمضان ، وفي مجلة « البعث الإسلامي » التي تصدر عن دار العلوم ندوة العلماء ( الهند ) ، وغير هذه المقالات كانت للعلامة محاضرات وأحاديث قيمة في هذا الموضوع ، لكنها كلها مشتتة مبعثرة في المجلات والجرائد والأشرطة ، معرّضة للضياع ، فرأيتُ خلال تأليفي الكتاب عن العلامة[1] أن هذه المقالات والأحاديث في حاجة إلى الجمع في كتاب مستقلٍّ حتى يستفيد منها كل من يهتم بهذا الموضوع ، ويسهل له الاطلاع عليها

(١) قد صدر الكتاب بعنوان « أبو الحسن علي الحسني الندوي الإمام المفكر الداعية الأديب » عن دار ابن كثير بدمشق ، عام ١٩٩٩م .

في كتاب ، فقمتُ ـ بفضل الله ـ بجمع وإعداد كل ما كتبه العلاَّمة الندوي ـ رحمه الله ـ حول إعجاز القرآن الكريم من مختلف الجرائد والمجلات ، وأسأل الله أن ينفع بهذا العمل المتواضع ويجعله جهداً مقبولاً في خدمة القرآن الكريم ، والله من وراء القصد .

**حيدر آباد ٢٧/ ٢/ ٢٠٠٠م**

**كتبه**

**المعتز بالله تعالىٰ**

**عبد الماجد الغوري**

# أولاً :

# ملامح من حياة
# العلاّمة أبي الحسن علي الحسني الندوي وشخصيته

## اسمه ونسبه وأسرته :

• علي أبو الحسن بن عبد الحي بن فخر الدين الحسني ، ينتهي نسبه إلى عبد الله الأشتر بن محمّد ذي النفس الزكية بن عبد الله المحض ، ابن الحسن ( المثنى ) بن الإمام الحسن السبط الأكبر بن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنهم ، أول من استَوْطَنَ الهند من هذه الأسرة في أوائل القرن السابع الهجري هو الأمير السيّد قطب الدين المدني ( ٦٧٧هـ ) .

• أبوه العلاّمة الطبيب السيّد عبد الحي الحسني الذي استحق بجدارة لقب « ابن خلكان الهند » لمؤلفه القيم « نزهة الخواطر » في ثماني مجلدات عن أعلام المسلمين في الهند وعمالقتهم ، طُبِعَ أخيراً باسم « الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام » في ثلاث مجلدات ضخمة في « دار ابن حزم » بيروت .

• أمّه ـ رحمها الله ـ كانت من السيّدات الفاضلات ، المربّيات النادرات ، والمؤلّفات المعدودات ، والحافظات للقرآن الكريم ، تقرض الشعر ، وقد نظمت مجموعة من الأبيات في مدح رسول الله ﷺ .

## ميلاده ونشأته :

• أبصرَ النور في ٦ محرم ١٣٣٣هـ الموافق عام ١٩١٤م بقرية « تكية كلان » الواقعة قرب مديرية رائي بريلي في الولاية الشمالية ( أترابرديش ) .

• بَدَأَ دراسته الابتدائية من القرآن الكريم في البيت ، ثم دَخَلَ في الكُتَّاب حيث تعلّم مبادىء اللغتين ( الأردوية والفارسية ) .

• توفي أبوه عام ١٣٤١هـ (١٩٢٣م) وكان عمره يتراوح آنذاك بين التاسعة والعاشرة ، فتولّى تربيته أمّه الفاضلة ، وأخوه الأكبر الدكتور عبد العلي الحسني الذي كان يدرس آنذاك في كلية الطبّ بعد تخرّجه من دار العلوم ديوبند الإسلامية ، ودار العلوم ندوة العلماء ، وإليه يرجع الفضل في توجيه وتربية العلامة الندوي .

• بدأ دراسة العربية على الشيخ خليل بن محمد الأنصاري اليماني في أواخر عام ١٩٢٤م ، وتخرّج عليه مستفيداً في الأدب العربي ، ثمّ توسَّعَ فيه وتخصَّصَ على الأستاذ الدكتور تقي الدين الهلالي المراكشي عند مقدمه إلى ندوة العلماء عام ١٩٣٠م .

• التحق بجامعة لكهنؤ فرع الأدب العربي عام ١٩٢٧م ، ولم يتجاوز عمره آنذاك الأربعة عشر عاماً ، وكان أصغر طلبة الجامعة سناً ، ونالَ منها شهادة فاضل أدب في اللغة العربية وآدابها ، قرأ خلال أيام دراسته في الجامعة كتباً تعتبر في القمة في اللغة العربية والأردوية ، ممّا أعانه على القيام بواجب الدعوة وشرح الفكرة الإسلامية الصحيحة ، وإقناع الطبقة المثقفة بالثقافة العصرية ، وتَعَلَّمَ الإنجليزية مما مكّنته من قراءة الكتب المؤلفة بها في التاريخ والأدب والفكر .

• التحق بدار العلوم ـ ندوة العلماء عام ١٩٢٩م وقرأ الحديث الشريف ( صحيحي البخاري ومسلم وسنن أبي داود وسنن الترمذي ) حرفاً حرفاً مع شيء من تفسير البيضاوي على العلاّمة المحدّث الشيخ حيدر حسن خان الطونكي ، ودرس التفسير لكامل القرآن الكريم على العلاّمة المفسر المشهور أحمد علي اللاّهوري في لاهور عام ١٣٥١هـ/ ١٩٣٢م ، وحَضَرَ دروس العلاّمة المجاهد حسين أحمد المدني في صحيح البخاري وسنن الترمذي خلال إقامته في دار العلوم ديوبند ، واستفاد منه في التفسير وعلوم القرآن أيضاً .

## جُهوده العلمية ونشاطاته الدعوية :

• انخرَطَ في سلك التدريس من عام ١٩٣٤م ، وعُيِّنَ أستاذاً في دار العلوم ندوة العلماء لمادتي التفسير والأدب ، وخلال تدريسه في دار العلوم ندوة العلماء استفادَ من الصحف والمجلّات العربية الصادرة في البلاد العربية ، ممّا عرفه على البلاد العربية وأحوالها ، وعلمائها وأدبائها ومفكريها عن كثب ، واستفاد أيضاً من كتب المعاصرين من الدعاة والمفكرين العرب وفضلاء الغرب والزعماء السياسيين .

• قام برحلة استطلاعية للمراكز الدينية في الهند عام ١٩٣٩م ، تَعَرَّفَ فيها على الشيخ المربّي العارف بالله عبد القادر الرأي فوري والداعية المصلح الكبير الشيخ محمد إلياس الكاندهلوي ، وكان هذا التعرّف نقطة تحوّل في حياته ، وبَقِيَ على الصلة حتى وافاهما الأجل المحتوم ، وتَلَقَّى التربية الروحية من الشيخ عبد القادر الرأي فوري واستفاد من صحبته ومجالسته ، وتَأَسَّى بالشيخ محمّد إلياس الكاندهلوي في القيام بواجب الدّعوة وإصلاح المجتمع ، وقَضَى زمناً طويلاً في رحلات وجولات دعوية متتابعة للتربية والإصلاح والتوجيه الديني في الهند وخارجها .

• أسَّسَ مركزاً للتعليمات الإسلامية لتنظيم حلقات درس القرآن الكريم والسنة النبوية عام ١٩٤٣م ، وأسَّسَ حركة رسالة الإنسانية بين المسلمين والهندوس عام ١٩٥١م ، والمجمع الإسلامي العلمي بدار العلوم ـ ندوة العلماء في لكهنؤ عام ١٩٥٩م .

• عُيِّنَ أميناً عاماً لدار العلوم ندوة العلماء عام ١٩٦١م ، ( ولا يزال يترأس أمانتها إلى يوم وفاته ) .

• شارك في تأسيس هيئة التعليم الديني للولاية الشمالية ( أترابرديش ) عام ١٩٦٠م ، وفي تأسيس المجلس الاستشاري الإسلامي لعموم الهند عام ١٩٦٤م ، وفي تأسيس هيئة الأحوال الشخصية الإسلامية لعموم الهند عام ١٩٧٢م .

**أهمّ مؤلفاته :**

• نشِرَ له أوّل مقال بالعربية في مجلّة « المنار » للعلاّمة السيّد رشيد رضا المصري عام ١٩٣١م حول شخصية الإمام السيّد أحمد بن عرفان الشهيد ، وكان عمره ـ آنذاك ـ الأربعة عشر عاماً .

• ظهَرَ له أوّل كتاب بالأردوية عام ١٩٣٧م يحمل اسمه « سيرة أحمد شهيد » ونَالَ قبولاً عاماً في الأوساط الدينية والعلمية في الهند وباكستان .

• بدأ سلسلة تأليف الكتب المدرسية بالعربية ، وظَهَرَ أوّل كتاب فيها بعنوان « مختارات من أدب العرب » عام ١٩٤٠م ، و « قصص النبيين » للأطفال و « القراءة الراشدة » عام ١٩٤٤م . وقُرِّرَت جميع هذه الكتب في مقرّرات جامعات البلدان العربية والهندية .

• ألّفَ كتابه المشهور « ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين » عام ١٩٤٤م .

• دعِيَ أستاذاً في كلية الشريعة جامعة دمشق عام ١٩٥٦م ، وألقىٰ محاضرات بعنوان « التجديد والمجدّدون في تاريخ الفكر الإسلامي » نُشِرتْ بعد ذلك في شكل كتاب مستقل ينضوي تحت أربع مجلدات باسم « رجال الفكر والدعوة في الإسلام » .

• ألّفَ كتابه حول القاديانية بعنوان « القادياني والقاديانية » عام ١٩٥٨م ، وكتابه « الصراع بين الفكرة الإسلامية والغربية في الأقطار الإسلامية » عام ١٩٦٥م وكتابه « الأركان الأربعة » عام ١٩٦٧م ، و « السيرة النبوية » عام ١٩٧٦م ، و « العقيدة والعبادة والسلوك » عام ١٩٨٠م و « المرتضىٰ » في سيرة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عام ١٩٨٨م .

• شارك في تحرير مجلة « الضياء » العربية الصادرة من دار العلوم ـ ندوة العلماء عام ١٩٣٢م ومجلّة « الندوة » الأردوية الصادرة منها أيضاً عام ١٩٤٠م ، وأَصْدَرَ مجلّة باسم « تعميرحيات » في الأردوية عام ١٩٤٨م ، وكَتَبَ مقالات في الأدب والدعوة والفكر في أمّات المجلاّت العربية الصادرة

من مصر ودمشق كـ : « الرّسالة » للأستاذ أحمد حسن الزيات و « الفتح » للأستاذ محب الدين الخطيب و « حضارة الإسلام » للدكتور مصطفىٰ السباعي و « المسلمون » للدكتور سعيد رمضان المصري .

• أشْرَفَ على إصدار جريدة « نداي ملّت » الأردوية عام ١٩٦٢م ، وكذلك أشرف على مجلّة « البعث الإسلامي » العربية الصادرة منذ عام ١٩٥٥م ، وجريدة « الرائد » العربية الصادرة عام ١٩٥٩م ومجلة « تعميرحيات » الأردوية الصادرة منذ عام ١٩٦٣م ، وكلها تصدر من دار العلوم ـ ندوة العلماء في لكهنؤ ، ( الهند ) .

## رَحلاته :

• سافَرَ إلى الشرق والغرب مرات داعيةً إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، عاملاً على إعلاء كلمة الإسلام بالكلمة المسموعة والمقروءة وبالعمل الإيجابي البنّاء في كل مجال ، جوّاباً للآفاق في سبيل الله ، محاضراً ، ومحدثاً ، ومحاوراً ، واعظاً وهادياً ، ومشاركاً بالرأي والفكر في المجالس العلمية ، والمجامع الجامعية والمؤسسات الإسلامية ، والمؤتمرات والندوات فيها[1] .

## تقديم وتكريم :

• انتخبه مجمع اللغة العربية بدمشق والقاهرة والأردن عضواً مراسلاً لما اتصف به من العلم الجمّ ، والبحث الدقيق في ميادين الثقافة العربية والإسلامية ، ولمساعيه المكثفة المشكورة في سبيلها .

• اختير عضواً في المجلس الاستشاري الأعلى للجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة منذ تأسيسها عام ١٩٦٢م .

---

(١) انظر للاطلاع على رحلاته كتاب « رحلات العلاّمة أبي الحسن علي الحسني الندوي : محاضراته ـ مشاهداته ـ لقاءاته ـ انطباعاته » . جمع وترتيب وتعليق للمؤلف ، صدر من دار ابن كثير دمشق ـ بيروت عام ٢٠٠٠م .

• اختير عضواً في رابطة الجامعات الإسلامية منذ تأسيسها عام ١٩٧١م .

• اختير لاستلام جائزة الملك فيصل العالمية عام ١٩٨٠م ، لمؤلَّفه القيم « ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين » .

• منح شهادة الدكتوراه الفخرية في الآداب من جامعة كشمير عام ١٩٨١م .

• اختير رئيساً لمركز أكسفورد للدراسات الإسلامية بلندن عام ١٩٨٣م .

• اختير عضواً في المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية وللبحث والتأليف والتحقيق في عمّان ( الأردن ) .

• اختير رئيساً عاماً لرابطة الأدب الإسلامي العالمية ( الرياض ) عام ١٩٨٤م .

• أقيمت ندوة أدبية كبيرة حول حياته وجهوده الحثيثة ومساعيه المشكورة ، ومفاخره العظيمة في مجال الدعوة والأدب عام ١٩٩٩م في إستانبول « تركيا » .

• اختير لاستلام جائزة الشخصية الإسلامية لعام ١٤١٩هـ لخدماته الجليلة ومآثره العظيمة في مجال الدعوة الإسلامية ، وقَدَّمَ إليه الجائزةَ ولي العهد لحكومة الإمارات العربية المتحدة سمو الشيخ محمد بن راشد المكتوم .

**رئاسته وعضويته للجامعات والمجامع :**

• تولّى العلامة الرئاسة والعضوية لعدة جامعات إسلامية ومجامع عربية ومنظمات دعوية ومراكز دينية في العالم الإسلامي وخارجه ، ومنها على سبيل المثال :

الأمين العام لدار العلوم ـ ندوة العلماء ( الّتي أخذت صفة العالمية منذ ترأس أمانتها ، وتَفَوَّقَتْ على معظم جامعات العالم الّتي تَهْتَم بشؤون الدراسات الإسلامية والعربية لأنَّها تجمع بين القديم الصالح والجديد النافع ) .

رئيس رابطة الأدب الإسلامي العالمية ( الرياض ) .

رئيس المجمع الإسلامي العلمي في لكهنؤ ( الهند ) .

رئيس مركز أكسفورد للدراسات الإسلامية ( إنجلترا ) .

رئيس هيئة الأحوال الشخصية الإسلامية لعموم الهند .

رئيس هيئة التعليم الديني للولاية الشمالية ( أترابرديش ) .

عضو المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة .

عضو المجلس التأسيسي الأعلى العالمي للدعوة الإسلامية بالقاهرة .

عضو مجمع اللغة العربية بدمشق .

عضو مجمع اللغة العربية بالقاهرة .

عضو مجمع اللغة العربية الأردني .

عضو المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية ( مؤسسة آل البيْت ) بالأردن .

عضو رابطة الجامعات الإسلامية بالرباط .

عضو المجلس الاستشاري الأعلى للجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة .

عضو المجلس الاستشاري الأعلى للجامعة الإسلامية العالمية بإسلام آباد ( باكستان ) .

عضو المجلس الاستشاري بدار العلوم ديوبند الإسلامية ( الهند ) .

• وعدا ذلك تولّى العلامة الرئاسةَ والعضويةَ لكثير من الجامعات الإسلامية ، والمراكز الدينية والمنظمات الدعوية ولجان التعليم والتربية في العالم الإسلامي وخارجه .

**وفاته :**

كان ـ العلامة الندوي ـ في حالة صحية جيدة قبل يومين من وفاته ، قضى عشرين يوماً من رمضان المبارك في مقره دار العلوم ـ ندوة العلماء برفقة من

أصحابه وزُوَّاره الذين يصومون معه في كل عام ، ولكنه في العشرين من الشهر غادر لكهنؤ إلى مسقط رأسه « تكية كلان » ( الواقعة في مديرية « راي بريلي » ) ، لكي يقضي هناك العشرة الأخيرة مع أفراد عائلته ، ولما كان يوم الجمعة ( وهي جمعة الوداع في العالم الإسلامي كله ) تهيأ لصلاة الجمعة ، واستحم ، وغيَّر الملابس ، وتطيب ( وكله كان في غاية الاهتمام ) فبدأ يتلو سورة الكهف قبل أن يقصد إلى المسجد إذ فاجأته نوبة قلبية ، توقف معها القلب ، وطارت الروح إلى بارئها ، وانضمَّ ـ رحمه الله ـ إلى صفوف أولئك الرجال من المؤمنين الذين أشاد الله بذكرهم في تنزيله ، فقال : ﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴾ [ الأحزاب : ٢٣ ] .

رحمه الله رحمة واسعة ، وغفر له مغفرة شاملة[١] .

* * *

(١) انظر كتاب المؤلِّف « أبو الحسن علي الحسني الندوي الإمام المفكر الداعية الأديب » ، للاطلاع على حياة سماحة الشيخ السيد أبي الحسن علي الحسني الندوي ، وجهوده الحثيثة في خدمة الدعوة الإسلامية ومآثره القيمة في مجال الأدب وموقفه من القضايا الإسلامية والعربية وتعريف لأهم مؤلّفاته ، صَدَرَ عن « دار ابن كثير دمشق ـ بيروت عام ١٩٩٩م » .

# الفصل الأول
# مقالات وبحوث
# حول القرآن الكريم

# الإعجاز القرآني(١)

لقد ادعى القرآن الكريم أنه معجزة وتحدى كل البشر الذين تتلجلج نفوسهم في الإيمان به ، والاعتراف بأنه كتاب الله ، اقرأ هذه الآيات التالية :

﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [ البقرة : ٢٣ ] .

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [ يونس : ٣٨ ] .

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [ هود : ١٣ ـ ١٤ ] .

﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [ الإسراء : ٨٨ ] .

﴿ قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [ القصص : ٤٩ ـ ٥٠ ] .

## مجالات الإعجاز القرآني :

لقد تحدى القرآن الكريم في هذه الآيات التي سقناها جموع المشركين والمرتابين المترددين في أمره ، بأن يأتوا بمثله ، ولا يمكن أن يكون أي كلام

---

(١) نُشر هذا المقال في مجلة « البعث الإسلامي » في عددها الرابع ، المجلد الثاني والأربعون ، عام ١٩٩٧م .

مماثلاً للقرآن الكريم إلا إذا كان مثله في جميع مجالات إعجازه وجميع مميزاته وخصائصه .

ومعلوم أن القرآن ليس معجزاً في ألفاظه وتراكيبه ، وفصاحته اللغوية وبلاغته المعنوية فحسب ، بل إنه معجز في ألفاظه ومفرداته ومركباته ، معجز في معانيه ، ومحتوياته ، معجز في علومه ومعارفه ، معجز في غيبياته وحقائقه الأبدية ، معجز في تعليماته الدينية والخلقية والاجتماعية والمدنية ، معجز في تأثيره وإثارته ، ومعجز في نبوءاته وأخباره ، فإذا ظهرالعجز عن الإتيان بمثله في ألفاظه وتراكيبه فحسب فكيف يا ترى بمماثلته في جميع وجوه إعجازه ؟

وتطلعنا الآية رقم/ ١٤ من سورة هود أن الخصيصة المميزة للقرآن وسر إعجازه المكنون يرجع إلى أنه ﴿ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ ﴾ [ هود : ١٤ ] فهو مظهر من مظاهر علم الله ، وعكس من عكوسه ، فكيف يجاريه الإنسان بعلمه الناقص الظني ، القاصر المحدود الموهوب له كرضخة من رضخات الفيض الإلهي من لدن حكيم عليم ، فإذا كان هو لا يماثل ربه في أسمائه وصفاته ، فكيف يماثله في علمه ، وهو من أخص خصائصه وصفاته : ﴿ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [ هود : ١٤ ] .

﴿ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ ﴾ هي تلك النقطة المركزية التي تدل على أن الله ـ عز وجل ـ متوحد في صفة علمه كما هو متوحد في جميع صفات الألوهية ، لا ند له ولا نظير ، ولا شبيه ولا مثيل ، فكيف إذاً وأنى يؤتى بمثل الكتاب ؟!

﴿ وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [ الأعراف : ٥٢ ].

ومعلوم أن « علم الله » لا ينحصر في الألفاظ والتراكيب الظاهرة ، بل إنه ليس أمس بمعانيه وحقائقه ومحتوياته، وقد وصف القرآن الكريم نفسه بـ «قرآناً عربياً » و « لسان عربي مبين » و « كتاب مبين » وأمثاله من الأوصاف في متفرق آياته ، مما تشير إلى فصاحته اللغوية ، وروعته البيانية ونصاعته الأدبية .

﴿ الٓرٓ ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝١ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [ يوسف : ١ ـ ٢ ] .

﴿ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴾ [ النحل : ١٠٣ ].

وطالبهم القرآن الكريم في الآية رقم/ ٤٩ من سورة القصص بأن يأتوا بكتاب أفضل من هذا الكتاب هداية وإصلاحاً وعلاجاً للقلوب : ﴿ قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [ القصص : ٤٩ ] .

فالإعجاز القرآني إذاً ليس منحصراً في فصاحته اللغوية ، وبلاغته المعنوية وألفاظه المختارة وتراكيبه المنتقاة فحسب ، إنما هو جانب من جوانب إعجازه الكثيرة .

وإن علماءنا البلاغيين المتقدمين كلما تأملوا في إعجاز القرآن أو ألّفوا فيه ، غلب عليهم ـ لميول العصر ولتذوق العرب البياني وأهمية اللسان ودوره ـ هذا الجانب الخاص من إعجاز القرآن ، ولا غرو فقد أثبتوا فيه من دقة النظر وحسن الملاحظات ، وجمال الذوق ما ينتفع به دائماً ، وأودعوا فيه عصارة ذكائهم وخلاصة فكرهم وتأملاتهم وقدموا لنا ثروة ضخمة في هذا الموضوع ، ليس من السهل الزيادة فيها ، وينبغي في هذا الموضوع أن يرجع إلى مؤلفاتهم ويستفاد منها[١] .

## أكبر مجالات الإعجاز القرآني وأولها ، الإسلام :

لقد قدم القرآن الكريم أمام العالم صحيفة هداية أخيرة خالدة للدين

---

(١) يُرجَع لذلك عند الحاجة إلى التفصيل إلى كتاب : « إعجاز القرآن » للعلامة أبي بكر الباقلاني ، و « إعجاز القرآن » لابن العربي ، وللاختصار كتاب : « النكت في إعجاز القرآن » للرماني ، وكتب البلاغة والبيان الرائدة ، ومن الكتب القديمة فيها كتابا « دلائل الإعجاز » و « أسرار البلاغة » للإمام عبد القادر الجرجاني ، ومن كتب المتأخرين : « كتاب الطراز » للأمير يحيى اليماني ، ويراجع من كتب التفسير : « تفسير الكشاف » للعلامة جار الله الزمخشري ، ومن كتب النحو والمعاني والبيان كتاب : « الفوائد المشوقة للقرآن » للحافظ ابن القيم ، وكتاب : « النبأ العظيم » للعلامة محمد عبد الله دراز ، وهو من العلماء المعاصرين ولكن كتابه يستحق الدراسة والاستفادة .

والعقائد لم تسبق بصحيفة أكثر منها إحكاماً وإتقاناً وتفصيلاً على وجه الأرض ، وقد كانت الديانات السابقة ـ لرسالاتها المحدودة بعصورها القاصرة على شعوبها ـ وصحفها التي حملتها لم تبلغ نضجها وكمالها بالنسبة إلى هذه الصحيفة الأخيرة .

ولما أنها صحيفة ربانية سماوية وقد نزلت إلى الأرض ، فلم يبق سواها كتاب هداية وصحيفة إرشاد في الوجود ، ولا يمكن أن يتصور الإنسان صحيفة هدى ونور أكثر من هذه الصحيفة ربطاً للمخلوقين بالخالق ، وأعظم تزكية للنفوس ، وصقلاً للقلوب ، وأرفع بالناس عن تخفض الضلالات والانحرافات التي وقعت فيها الشعوب ، ومنيت بها الأمم .

كما أنها وهبت للحياة الإنسانية دستوراً مدنيّاً وخلقياً يضمن أفضل النتائج الخلقية والاجتماعية ، وقد حققها فعلاً ومارسها ممارسة تطبيقية ، كما أنها تحل بطريقته المعجزة ولمحاته المنيرة ، وإشاراته اللطيفة جميع قضايا الاجتماع وعقده ومشاكله التي تعرضت لها الإنسانية أو يمكن أن تتعرض لها في المستقبل إلى أن تقوم الساعة .

إنها تعطي تلك الكليات والتصورات الأساسية التي يمكن أن يقوم عليها أي مجتمع أفضل في أي دور من أدوار التاريخ ، وتنظم الحياة الإنسانية في كل بقعة من بقاع الأرض من جديد .

إنها صحيفة إلهية ، ولذلك فهي بريئة من الغلطات الإنسانية والسقطات البشرية ، وقصور التقنين البشري ، واختلاف القياسات البشرية ، إنها الصحيفة الأخيرة ، ولذلك فهي غنية عن كل زيادة وإلحاق وتكميل ، إنها صحيفة عالمية شاملة ، ولذلك فهي فوق الحدود والحواجز العرفية ، إنها الصحيفة الدائمة ولذلك فهي محفوظة من كل نسخ وتغيير وتبديل ، إنها الصحيفة الكاملة ولذلك فهي في غير حاجة إلى ملحق وتتمة أو استدراك : ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ [ المائدة : ٣ ] .

إن هذا القرآن إذا تم تنفيذه وتطبيقه عملياً لا يتعرض المجتمع لتلك المباحث المعقدة والمسائل الطريفة التي شغلت عقول المفكرين ورجال الاجتماع البارعين آلافاً من السنين ، والتي لم تعرض حلولها الأخيرة الحاسمة بعد .

وكم من قضايا ومشاكل اقتصادية وسياسية لا يعرفها الإسلام ولا تنشأ في مجتمعه إطلاقاً ، وكم من حلول علمية وفكرية وصل إليها العقل البشري بعد تجارب آلاف من السنين ، كشف عنها النبي الأمي بكتاب ربه قبل أربعة عشر قرناً من الزمان ، إن هذا الدستور وهذه الصحيفة المرشدة الهادية ، وهو الإسلام ، ليس إلَّا صنع العليم الحكيم ، ونموذجاً كريماً عالياً من نماذج حكمته وعلمه وتقديره : ﴿ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ [ النمل : ٨٨ ] .

ولما كانت قواعد الإسلام وأصوله وكلياته مقتبسة من القرآن الكريم ، صادرة منه ، والقرآن هو الذي تقدم بها أمام الناس وعرضها عليهم ، فهي من إعجازه بل من أكبر معجزاته : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [ الجمعة : ٢ ] .

إن بيان هذا الإعجاز القرآني ، والكشف عن وجوهه ومناحيه يقتضي بيان الإسلام بجميع شعبه وأركانه الذي لا تسعه مكتبة ضخمة ، وسوف يرد شيء منها في مواضعه ، فتركيبه المعجز في باب العقائد والتصورات ، وتكميلها المعجز ، وشموله المعجز في الأخلاق والاجتماع ، وإحاطته المعجزة ، كل ذلك يدعو إلى التأمل الدقيق ، ولا يسع أي إنسان من البشر أن يحصي هذه الأسرار والحقائق ، ويستوعب جوانب الحسن والجمال والإتقان والإحكام : ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَـٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَـٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [ لقمان : ٢٧ ] .

﴿ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَـٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَـٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴾ [ الكهف : ١٠٩ ] .

## المعجزة الثانية للقرآن علومه ومعارفه :

إن المعجزة الثانية للقرآن الحكيم هي تلك العلوم والمعارف الواسعة

الشاملة والحقائق والأسرار الدقيقة اللطيفة التي تنبث في هذا الكتاب . والتي تستحق كل واحدة منها أن تعد معجزة برأسها ، وكلما تطور علم الإنسان ، وبلغ مراحل النضج والاكتمال ، وانكشفت عنه حجب الجهل والغموض ، تجلى له جمال القرآن ، وروعته ، وإحاطته .

ولكن الذكاء البشري محدود النطاق ، ضيق الأفق ، لا يسع ضخامة محتويات القرآن ورحابة آفاقه المترامية ، ويكفيه أن يدرك منه قدر ما يملأ به وعاءه : ﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ﴾ [ الرعد : ١٧ ] .

وإن هذه الوحدات المعجزة تحمل في طياتها جوانب عديدة من الإعجاز ، جانب الحتمية والقطعية والأبدية في الحقائق القرآنية ، وهذه الحتمية والأبدية ، من خصائص العلم الإلهي ، وليس الشك والتطور والاضطراب إلا من لوازم العلم البشري وخصائصه ، ولما أن القرآن الكريم محفوظ من لدن حكيم عليم ، لذلك لا يتطرق إلى أبديته وحتميته شيء .

## خلط العلم البشري بالعلم الإلهي في الصحف الدينية القديمة :

إن ضعف الديانات والكتب المقدسة فيها عندما تتعرض لسطو البشر وعبثهم وتحريفهم ، فإنها تدخل فيها أشياء ما أنزل الله بها من سلطان ـ ما دام الله لم يتكفل بصحتها وحفظها ـ وتغزوها نظريات إنسانية ومعارف بشرية ، وما دام العلم البشري غير معصوم وغير حاسم رغم قصوره ونقصه فإن هذه الصحف ـ نتيجة تدخل هذا العلم البشري الناقص المحدود ـ تفقد قوة استنادها وقطعيتها وأبدية حقائقها وكلياتها .

والقرآن المحكم قطعي من ألفه إلى يائه ، لم تدخله آراء البشر ولا نظرياتهم ، ولم تكد تمسه تحقيقاتهم وتجاربهم ، ومهما ازدهرت العلوم والمعارف وبلغت من الرقي ما بلغت ، ومهما تطورت النظريات البشرية ،

ومهما يثبت العلم أن الأرض هي محور الكون أو الشمس ؟ وأنها مسطحة أو كروية ، وأن الكواكب معمورة أو لا ، وأن العوالم متعددة أو أنه ليس هناك إلا عالم واحد ، مهما يكن من ذلك أو غير ذلك فإن الحقائق القرآنية لا تتأثر ولا تنفعل ، إنها ليست النظام « البطليموسي » الذي يتقوض من أساسه بالنظام « الكوبرنيكي » .

هذا هو القرآن ، أما صحف العهد القديم والعهد الجديد « التوراة والإنجيل » فإنها لم تأمن غوائل التحريف وسطو الآراء البشرية ، إنها قد غزتها النظريات والآراء التي راجت ونالت القبول في الجمهور في عصور الظلام في أوروبا ـ وكلها عصور ظلام ـ إنها تصرح بأن عمر هذه الكرة الأرضية ستة آلاف سنة ، وأن الأرض مسطحة مستوية ، وأن الشمس والقمر والنجوم تدور حول الأرض ، وأن الأرض محور الكون وأن غيرها من الأجرام الفلكية والكواكب السيارة كلها تابعة لها ، تخضع لسلطانها ، وأن العمران على الصفحة الثانية من الأرض مستحيل ، وذلك كما يقول « أغسطين » : « لأنه لم يذكر أحد من أولاد آدم ـ عليه السلام ـ من هذا النوع الذي يعيش في الجهة الثانية من الأرض ، كما أن الدليل الأكبر على امتناع أن تكون الأرض كروية الشكل هو أن الناس كيف يرون ربهم يوم الحشر ـ لو كان الأمر كذلك ـ ينزل عليهم من السماء ؟! » .

إن هذا التاريخ والعلم « الملهم » يمكن أن يكون في عصر المؤلفين والشارحين للكتب المقدسة هذه ، علماً مطابقاً لتحقيقاتهم وكشوفهم المقررة المعروفة ولكنها لم تكن لازمة الثبوت والصحة ، لقد كانت هي مرحلة من مراحل العلم البشري ، والإنسان لم يزل ولا يزال يقطع أشواطه في العلم ولا تنقطع عصا التسيار ولا يلقى بها .

إنه كلما يتقدم يخلف وراءه تلك المرحلة التي يراها هي المنزل حتى جاء حين من الدهر أصبح فيه العلم لا يمشي مع الدين ، فكان صدام بين العلم والدين ، وقد كان هذا الصدام بينهما مرحلة أولى حاسمة في سقوط الدين وهزيمته في أوربة .

إن الإسلام في تاريخه الطويل لم يمر ـ ولا تحلة للقسم ـ بهذا الصدام النكد للحظة واحدة ، ولن يمر .

يمكن أن تتصادم المعلومات البشرية والمعارف البشرية ، وقد تصادمت ، وسيكون منها حق ومنها باطل ، ويمكن أن تكون كلها باطلة لا أساس لها من الواقعية والصحة ، ولكن من المستحيل واقعاً وأساساً أن تتصادم الحقائق والتصريحات القرآنية ، والعلوم والمعارف التي احتوى عليها هذا الكتاب ، إن كل علم يصادم القرآن ليس علماً ، إنما هو خرافة ، ووهم وحلم .

## العلم الجديد والكشوف الجديدة تصدق القرآن :

إن البحث في القرآن الكريم عن حقائق العلم الحديث أو كشوفه الحديثة والتطبيق بين بعض إشاراته الإجمالية وبين الكشوف الجديدة والتحقيقات الجاهزة ـ الذي قام به على النطاق الواسع في هذا القرآن العلامة الطنطاوي الجوهري المصري في تفسيره « جواهر القرآن » ويسعى له باحثون في تحقيقاتهم العلمية ـ جهد شائك ، ودقيق خطير ، لأنه من الممكن جداً ـ وقد أيدت التجارب ذلك مرات وكرات في تاريخ العلم والبحث ـ أن تتغير نتائج هذه البحوث والمعارف التي يراها الناس اليوم من أجلى البديهيات وأظهر الحقائق رأساً على عقب ، أو تصبح موضع شك وتردد ، وتفقد بداهتهم وقطعيتها .

ثم إن الجهد العلمي ـ الذي لا ينكر إخلاص القائمين عليه ، وجديته وإفادته في بعض الأحيان ـ يبعد بالقرآن الكريم عن موضوعه الرئيسي وغايته الأساسية ، وتشم منه رائحة الخضوع للعلم الجديد والابتهار بالكشوف العلمية الحديثة .

وقد أخطأ بعض المفسرين المتقدمين هذا الخطأ نفسه فيما يتعلق بالفلسفة القديمة والروايات التاريخية المشهورة ، ولكن لما أن نصيب ذلك من تفاسير القرآن الكريم وثروتها الضخمة كان ضئيلاً قليلاً ، ولم يجد قبولاً ولا رواجاً في أوساط المسلمين العلمية ، لذلك لم يتعرض القرآن لمثل تلك المحنة التي

تعرضت لها كتب العهد القديم بالزيادات والشروح والإلحاقات الفلكية والجغرافية والطبيعية والتي أسميت في العالم المسيحي في القرون الوسطى بالجغرافية المسيحية المقدسة christian topography .

ولكن الدارس المنصف من ذوي الفطرة السليمة ـ الذي لا يجمد جمود الجاهلين ولا يخضع لكشوف العلوم خضوع المستسلمين المنبهرين ـ يدهش عندما يطلع على هذه الحقيقة العجيبة حقاً ، وهي أن هذا الكتاب رغم كونه قد نزل على رسول أمي قبل أربعة عشر قرناً من الزمن في البيئة العربية المحدودة المنعزلة عن دنيا العلم والمدنية ، احتوى على عدد من الحقائق التي تتعلق بالتاريخ والجغرافية والطبيعة والفلك والأجرام السماوية وعلم الحياة ، والطب ، وخلق الإنسان وتكوينه وتركيب أعضائه وغيرها من كثير المعارف والعلوم التي انكشفت عنها في القرون الأخيرة من معلومات وحقائق ، وتغيرت أوضاع العلم البشري تغيراً جذرياً ، وليس فيه ما أثبت علم الحديث ، وكشوفه ، خلافه ومنافاته للواقع ، بل قد وردت فيه حقائق ولفتات لم يكشف عنها العلم إلَّا قريباً ولم يبلغ إليها إلَّا بالأمس .

إن تفصيل هذا الإجمال لا يقتضي كتاباً واحداً بل سلسلة كتب ومؤلفات ، فنكتفي هنا بشهادة واحدة لباحث فرنسي فاضل ، فقد صدر قريباً للأستاذ الفرنسي الباحث موريس بوكائيل ( Maurice Bucaille ) في كتابه : ( The Bible ) ( The Quran And Science ) وترجمته العربية باسم « دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة ، يقول فيه المؤلف الفاضل :

« ولقد أثارت هذه الجوانب العلمية التي يختص بها القرآن دهشتي العميقة في البداية ، فلم أعتقد قط بإمكان اكتشاف عدد كبير ـ إلى هذا الحد ـ من الدعاوى الخاصة بموضوعات شديدة التنوع ، ومطابقة تماماً للمعارف العلمية الحديثة ، وذلك في نص كتب منذ أكثر من ثلاثة عشر قرناً »[١] .

---

(١) دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة ـ لموريس بوكائيل [ طبع دار المعارف ـ القاهرة ] : ص/ ١٤٤ .

ولقد وصل المؤلف بعد مباحث قيمة تستحق الدراسة حول خلق السموات والأرض ، وإيجاد هذا الكون ، والأجرام الفلكية ، وطبيعة الأجرام السماوية وتطور العالم السماوي وغزو الفضاء ودورة الماء والبحر وتضاريس الأرض والجو الأرضي وعالم النباتات والحيوانات ، ونشأة الحياة والتناسل الإنساني ، وتربية الجنين ، والحوادث التاريخية الكبيرة : « كطوفان نوح ، وتحديد زمن إقامة بني إسرائيل في مصر ، وخروج سيدنا موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ من مصر ، وتحديد فرعون موسى ، وكيفية هلاكه وغير ذلك »[١] وبعد عقد موازنات بين القرآن الكريم وصحف العهد القديم في ضوء الكشوف الجديدة في عالم الطبيعة والفلك وعلم الحياة ، والطب والتاريخ وصل إلى هذه النقطة الحاسمة :

« إن مقارنة عدد من روايات التوراة مع روايات نفس الموضوعات في القرآن تبرز الفروق الأساسية ين دعاوي التوراة غير المقبولة علمياً وبين مقولات القرآن التي تتواثق تماماً مع المعطيات الحديثة »[٢] .

ويختم المؤلف كتابه العلمي الجيد بهذه السطور التالية :

« ولا يستطيع الإنسان تصور أن كثيراً من المقولات ذات السمة العلمية كانت من تأليف بشر ، وهذا بسبب حالة المعارف في عصر محمد ﷺ لذا فمن المشروع تماماً أن ينظر إلى القرآن على أنه تعبير الوحي من الله ، وأن تعطى له مكانة خاصة جداً حيث إن صحته أمر لا يمكن الشك فيه وحيث إن احتواءه على المعطيات العلمية المدروسة في عصرنا تبدو كأنها تتحدى أي تفسير وضعي ، عقيمة حقاً المحاولات التي تسعى لإيجاد تفسير للقرآن بالاعتماد فقط على الاعتبارات المادية »[٣] .

---

(١) انظر لهذه المباحث العلمية بتفصيل الكتاب المذكور من ص/ ١٥٧ إلى ص/ ٢٧١ .
(٢) دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة : ص/ ٢٨٦ .
(٣) دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة : ص/ ٢٨٦ .

وهكذا فإنه لا تأثير على القرآن الكريم للميول والنزعات البشرية المؤقتة من اقتصادية واجتماعية وسياسية ، وإن هدايته وإنارته للطريق في هذه الأمور العلمية أيضاً أبدية حتمية قاطعة .

* * *

# شروط الاستفادة من القرآن(١)

القرآن يوجه خطابه إلى النوع البشري كافة ، ولكن صلاحيات الناس مختلفة في الاستفادة منها ، شأن الأرض التي تختلف في الاستقاء من ماء المطر باختلاف قطاعاتها ومراحل صلاحيتها وحاجتها إلى الري ، وشأن المعدة التي تتفاوت في الانتفاع بغذاء طيب ، والقرآن وإن كان خطابه إلى كل الناس سواء ، غير أنهم متباينون في الوعي والاتعاظ ، والفهم ، وقد أشار الله سبحانه إلى اختلاف تأثيره ونتائجه ، وذكر تأثيرين متضادين في سياق واحد ، يقول :

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ [ الإسراء : ٨٢ ] ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴾ [ فصلت : ٤٤ ] ﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴾ [ التوبة : ١٢٤ ـ ١٢٥ ] ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْىِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [ البقرة : ٢٦ ] .

وهناك آيات أخرى تتناول بيان اختلاف تأثير القرآن على المؤمنين والكفار ، فقال عن المؤمنين :

﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [ البقرة : ٢ ـ ٣ ] ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا

---

(١) نُشر هذا المقال في مجلة « البعث الإسلامي » في عددها الثامن ، المجلد الخامس عشر عام ١٩٧١م .

تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [ الأنفال : ٢ ] ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴾ [ الزمر : ٢٣ ] .

أما عن الكافرين فقال :

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۗ ﴾ [ الحج : ٧٢ ] ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ [ الزمر : ٤٥ ] ﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ ۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴾ [ التوبة : ١٢٧ ] .

ولكن القرآن لم يكتف بذلك بل إنه حيث يذكر انتفاع المؤمنين واستفادتهم من القرآن ، وحرمان الكفار ، وعدم اتعاظهم به ، يشير إلى بعض الصفات والأخلاق والمعتقدات والأعمال لكل من المؤمنين والمنكرين التي تدل على مدى تأثيرها في النتائج المختلفة ، وفي ضوء هذه الصفات نستطيع أن نستخرج من القرآن نفسه شروط الاستفادة وموانع الاستفادة منه ، ونتعرف بالأخلاق والطبائع التي تنسجم مع الطبيعة القرآنية وتعين على الاستفادة منه ، ونعرف الطبيعة والسيرة التي تضادّ روح القرآن وتربيته وتحول دون الانتفاع به ، وتمنع ظهور نتائجه الثورية والإصلاحية المرجوة ، ونذكر هذه الصفات بعناوين مختلفة :

الصفات التي تعين على فهم القرآن والاستفادة منه :

١ ـ إن أول شرط أساسي للانتفاع بالقرآن أن تنشأ في قارئه رغبة مخلصة لفهمه وطلب صادق التفكير في معانيه ومدلولاته ، فمن لم يكن كذلك لا يؤثر فيه القرآن ولا يطبع فيه أي طابع من خير أو نصح ، ومن سنة الله أنه لا يعطي إلا إذا طلب منه ، فإن للطلب عنده قيمة كبيرة ، وإن العبد إذا عاش في خوف من حاله وغير مطمئن بها ، حريصاً على إصلاح نفسه وباحثاً عن طريق السعادة والطمأنينة يعتبر ذلك أول خطوة نحو السعادة ، فلا بد من الإنابة إلى الله أولاً ،

كما يقول الله تعالى: ﴿ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ ﴾ [ الرعد : ٢٧ ] وتغير الحال ثانياً ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [ الرعد : ١١ ] والاستغناء عن الله آية الحرمان والشقاء ﴿ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴾ [ لقمان : ١٢ ] ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ [ فاطر : ١٥ ] .

ويتحدث القرآن عن الذين لا يطلبون الدين ولا يستجيبون لندائه : ﴿ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ . . . أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ [ يونس : ٤٢ ـ ٤٣ ] ﴿ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [ الروم : ٥٢ ـ ٥٣ ] .

٢ ـ الاستماع والاتباع : بما أن القرآن صحيفة هداية وتربية ، يلزم كل من يريد الاستفادة منها أن يستمع إليه فيتبعه ، إذ لا اتباع من غير الاستماع ، يقول : ﴿ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [ الزمر : ١٧ ـ ١٨ ] ولكن مجرد الاستماع لا يكفي ما لم يتبعه العمل بما يطلب العلم ، فإن العلم من غير عمل متعة فكرية ، ولذلك أردف ذكر الاتباع بعد الاستماع .

٣ ـ الخوف : يقوم القرآن على أساس تصور الله وخوفه ، فالقلب الذي يخلو من خوف الله ، ولا يشعر بأي ميل نحوه إنما يعتبر فارغاً عن مادة الدين ومحروماً من لذة الإيمان ، والذي ينقص من حواسه شيء لا يستطيع أن يدرك الأمر على حقيقته ، وكذلك القرآن لا يفيد في قلب جاف فارغ عن ذكر الله ، ولكنه يؤثر في القلب الحي الذي تعيش فيه جمرة الإيمان ، أما من خمدت مجامر قلوبهم فلا نصح ينفعهم ، ولا تأثير يبعثهم على الاستفادة من القرآن ، يقول الله تعالى ﴿ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾ [ ق : ٤٥ ] ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ ۖ ﴾ [ يس : ١١ ] ﴿ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴾ [ الأعلى : ١٠ ] ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ﴾ [ الزمر : ٢٢ ] .

٤ ـ الإيمان بالغيب : هناك جزء كبير من الدين يفوق حواس الإنسان الخمس ويتجاوز حدود عقله ومنطقه ، وهو تلك الحقائق الغيبية التي

لا يدركها الإنسان بحواسه الظاهرة، إذ أنها ليست مما يعرف بالبصر، واللمس، والشم، والذوق، ولا ينفع فيها العقل، لأن العقل من وظيفته أن يدرك علم الأشياء عن طريق المحسوسات والمعلومات والتجارب، أما الأمور التي لا تتصل بالتجربة والحس، ولا تستند إلى القياس والظن فلا ينفع فيها العقل والمنطق، إن صفات الله، والوحي، والملائكة، والآخرة، والجنة، والنار، كل ذلك مما لا يعارضه العقل ولكن لا يدركه بالحواس، وذلك ما يسمى بالغيب الذي يحوج إلى الإيمان بالأنبياء والثقة بكلامهم.

والذين يتقيدون بالماديات والمحسوسات في جميع عقائدهم، وينكرون مالا تسيغه عقولهم وقياسهم، إنما هم جاهلون بحقيقة الدين، ويعسر عليهم أن يعبروا الحدود المادية ويدخلوا إلى رحاب الدين، إنهم لا يستطيعون أن ينتفعوا بالقرآن، لأنهم يواجهون العراقيل والعقبات في كل خطوة يخطونها نحو القرآن، ولكن الذين لا يدورون حول الحواس فقط، ويتوسعون في نطاق الممكنات، ويطلعون على حقيقة الدين، ويعتبرون الوحي مصدر العلم الصحيح؛ ويثقون بتعاليم الأنبياء وأخبارهم لا يواجهون أي صعوبة في إدراك الحقائق الغيبية، لأن الدين عندهم حقيقة مفهومة والقرآن هداية ماثلة، ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ ﴾ [ البقرة : ٢ ـ ٣ ] ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [ البقرة : ٢٦ ].

ومثل الذين يعيشون في المادية الخالصة ثم يحاولون التوصل إلى الحقائق الغيبية من غير إيمان بالغيب كمثل رجل يحاول الصعود إلى الأعلى من غير درج ولا سلم، أو كمن يريد الطيران في الجو بدون جناح، فلا يلبث إلا ويقع على الأرض، ويكون كما قال القرآن: ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [ الأنعام : ١٢٥ ].

٥ ـ التدبر: يشترط التدبر في معاني القرآن للاستفادة منه، فقد حث عليه القرآن في آيات متعددة، وأثنى على المؤمنين الذين يتدبرون القرآن،

ولا يخرُّون عليه صماً وعمياناً ، يقول : ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴾ [ الفرقان : ٧٣ ] ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ [ محمد : ٢٤ ] ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا ﴾ [ النساء : ٨٢ ] .

٩ ـ المجاهدة : ومما يساعد في فهم القرآن كثيراً المجاهدة ، إذ أن القرآن ليس من صنع البشر الذي يفهمه الإنسان ويحيط بعلمه وبغاية مؤلفه بمجرد الذكاء وغزارة العلم ، بل لكي يطلع على ما أودع الله فيه من معاني يحتاج إلى رضاه وعونه ، وكلما يتحمل الإنسان في دراسته وفهم محتوياته مشقة ويقوم بالمجاهدة والرياضة فيزكي أخلاقه ويصفي نفسه تقبل عليه رحمة الله وتشرح صدره وترزقه فهماً يخوض به إلى معانيه ، وكل شخص يتجرد عن كثافة المادية يتلاءم مع القرآن ، وتنكشف له صورته الجميلة وغضارته الأصيلة .

وحينما يتحمل الإنسان مشاق في سبيل تحقيق غاية ويقدم لها تضحيات ينصبغ بصبغتها تماماً ، ويجد فيها حلاوة ولذة لا تعادلهما لذة أخرى .

* * *

# موانع الاستفادة من القرآن[١]

لقد قرن القرآن ذكر موانع الاستفادة من هدايته بذكر الحرمان ، هذه الموانع تقف عقبة كؤوداً في سبيل الانتفاع بموعظته ودعوته ومعتقداته الروحية التي تمهد الطريق إلى ثورة على الأوضاع الفاسدة وإصلاحها ، فإن وجدت هذه الأسباب التي نعبر عنها بـ « الموانع » في المسلمين أيضاً تحول دون استفادتهم من القرآن ، ونتحدث فيما يأتي عن هذه الموانع :

**أولاً : الكبر** ـ إن السبب الكبير الذي طالما يؤدي الإنسان إلى الحرمان من قبول تعاليم الأنبياء وسعادة اتِّبَاعهم هو الكبر ، والعزة الكاذبة ، ودافع الحمية الجاهلي ، وقد ينشأ هذا الإنكار والصلف بقبول الحق مباشرة . لأنه يطلب من صاحبه التنازل عن السلطة والجاه اللذين كان يتمتع بهما ، كما أنه يطلب منه الإعراض عن العادات الجاهلية والتقاليد البالية ، وصرف النظر عن الأرباح والمنافع . ويفرض عليه حياة القانون والشريعة بينما كان يعيش في حرية وانطلاق . فإن التحول عن هذه الأحوال المألوفة يشق على كثير من الناس حتى يضطرهم التكبر إلى إنكار القرآن . وذلك ما تشير إليه الآيات التالية : ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴾ [ الأعراف : ١٤٦ ] ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۝٧ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [ الجاثية : ٧ ـ ٨ ] ﴿ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ۝٢٣ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ۝٢٤ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴾ [ المدثر : ٢٣ ـ ٢٥ ] .

---

(١) نشر هذا المقال في مجلة « البعث الإسلامي » في عددها التاسع ، المجلد الخامس عشر ، عام ١٩٧١م .

وقد يستكبر هؤلاء على الرسول وينكرون رسالته وتعاليمه نظراً إلى ظاهر حاله من الفقر وضيق اليد، ويرون اتباعه ذلة ومهانة لأنفسهم وذلك ما قاله فرعون ﴿ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴾ [ الزخرف : ٥٢ ـ ٥٣ ] وجاء في نفس السورة في آية أخرى ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ [ الزخرف : ٣١ ] وقد تحول بشرية الرسول دون الإيمان به، كما جاء في سورة التغابن ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوا وَّاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ [ التغابن : ٦ ] ﴿ وَقَالُوا مَالِ هَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا ﴾ [ الفرقان : ٧ ].

وقد يستدلون على إنكارهم الرسول ورفضهم اتباعه بما يرونه من فقر الذين اتبعوه وازدراء حرفهم التي يمارسونها كما يستندون إلى رذالة نسبهم ويعتبرون ذلك مانعاً عن الدخول في جماعته، كما حدث لنوح عليه السلام مع قومه ﴿ قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ ﴾ [ الشعراء : ١١١ ] ﴿ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴾ [ هود : ٢٧ ] وقد يمتنعون عن الإيمان بالرسل لما يزعمون أنهم هم الذين يستحقون كل خير، فليس من الخير في شيء ما لا يأتيهم قبل الناس أجمعين يفعلون ذلك اغتراراً بما نالوا من العزة والمكانة وما ساعدهم الحظ في الدنيا، يتحدث القرآن عن هذه النفسية في سورة الأحقاف ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴾ [ الأحقاف : ١١ ].

هذه هي العوامل التي دفعت بالمترفهين في القرية وأصحاب الثراء والرخاء فيها إلى أن يسبقوا الناس جميعاً في تكذيب الرسل ومعارضة دعوتهم ورسالتهم التي جاؤوا بها يتحدث عنهم القرآن فيقول ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴾ [ سبأ : ٣٤ ] ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا ﴾ [ الأنعام : ١٢٣ ].

وعلى كل فإن التكبر مهما كان دافعه وتعددت مظاهره إنما يحول دون

الانتفاع التام بالقرآن الكريم بشدة ، ولكي نستفيد من القرآن ونقبل تعاليمه ، وننفذها في النفس والمجتمع ، ونحكمها في أمور الحياة ، ونخضع أمام الهداية التي يدعو إليها الأنبياء عليهم السلام نحتاج إلى قسط كبير من التواضع والخشوع والإخلاص والإيثار ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [ النساء : ٦٥ ] .

**ثانياً : المجادلة** ، إن بذل الجهود في التغلب على القرآن بالمجادلة والمناظرة من غير دليل ، وكذلك الاعتماد على الظن والتخمين في شرحه وتفسيره يرادف الحرمان من هدايته ، وينبىء بالكبر الذي ينطوي عليه الصدر ، كما يقول القرآن ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [ غافر : ٥٦ ] ﴿ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾ [ غافر : ٣٥ ] ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ﴾ [ الأنعام : ١١٢ ] .

**ثالثاً : إنكار الآخرة وعبادة المادة** ، وهذا الإنكار أكبر حائل دون الاستفادة من القرآن والاتعاظ به ، من بين المعتقدات الكافرة الأخرى ، فإن الآخرة أهم أساس يبنى عليه الترغيب والترهيب والوعظ والإصلاح في القرآن الذي ينذر من عذاب الآخرة ويبشر بثوابها ، ويفصل لنا جميع المعلومات عن سفر الآخرة ويخبر بمراحلها التي يمر بها كل إنسان ثم يقدم تعليمات لازمة عنها ، فالذين يرجون الآخرة لا يستغنون عن القرآن بحال ما ، يقول الله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ [ الأنعام : ٩٢ ] .

أما الذين ينكرون الآخرة عقيدة وعملاً والذين ينكرونها عملاً لا عقيدة ولكنهم مقبلون على الدنيا والمادة فينظرون إلى جميع أمور الحياة بالنظرة المادية فحسب ، فإن القرآن لا يؤثر فيهم بتاتاً أو يؤثر تأثيراً ضئيلاً ، ولنقرأ ما يقول عنهم القرآن :

﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾

وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِمْ نُفُورًا ﴾ [ الإسراء : ٤٥ ـ ٤٦ ] ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [ النحل : ١٠٤ ] ﴿ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴾ [ النحل : ٢٢ ] ﴿ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴾ [النجم: ٢٩ ـ ٣٠].

وباستيلاء المادية يتبلد حسهم ويغبى عقلهم إلى أنهم لا يستطيعون أن يدركوا غير المادة ، ويفكروا في غيرها ، فلا يلبثون إلَّا وينكرون كل شيء سوى المادة التي يرونها ويحسون بها ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَـٰتِنَا غَـٰفِلُونَ ﴾ [ يونس : ٧ ] ﴿ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴾ [ النمل : ٦٦ ] .

وهناك أمر لا يختص بالكافرين وحدهم بل يعم جميع الشاكِّين والمنكرين ، وهو اتخاذ الآيات المتشابهات دليلاً على أغراضهم وتضليل الناس بالتحريف والتأويل الخاطىء . ولا يبعثهم على ذلك إلَّا زيغ قلوبهم وفساد نياتهم ، يقول الله تعالى ﴿ مِنْهُ ءَايَـٰتٌ مُّحْكَمَـٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَـٰبِهَـٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَـٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ ﴾ [ آل عمران : ٧ ] .

* * *

# القرآن يتحدث عن نفسه[١]

إن ما تحدَّث به القرآن عن نفسه وما وصف به ذاته ليضيء لنا شتى جنبات القرآن ، ومختلف مزاياه واعتباراته ، وتتجلى به جوانب كثيرة من جلال القرآن وعظمته وإعجازه ، كانت تخفى عن الأعين وتبقى وراء الستر فتتبدى للأنظار أجلى ما تكون .

إن جمع هذه الآيات المنثورة في المواضع المتفرقة من القرآن الكريم والتأمل وإنعام النظر فيها ، يفتح لنا باباً جديداً إلى معرفة القرآن وفهمه وإدراك محتواه ، فلنذكر ـ فيما يلي ـ آيات متعددة بهذا الصدد مع تعليقات موجزة ولمحات عابرة .

## ١ ـ القرآن قطعي غير مشكوك فيه إطلاقاً :

إن أكبر خصائص القرآن ومزاياه التي هي من معجزاته وآياته التي تفوق طوق البشر هو أنه علم قطعي يقيني جازم :

﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ﴾ [ البقرة : ٢ ] . ﴿ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [ يونس : ٣٧ ] . ﴿ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [ فصلت : ٤١ ـ ٤٢ ] .

إن هذه الخصيصة التي يتفرد بها القرآن . لا يشاركه فيها ـ بطبيعة الحال ـ أي كلام بشري ولا يساميه أبداً أي كتاب صادر من إنسان، إنه لم يكن ولن يكون، ذلك لأن مصدر هذا القرآن هو علم الله الذي يعلم الغيب والشهود ، ووسيلة صدوره ونزوله هو الوحي الإلهي الذي لا يعترضه شيء من عوارض البشر .

---

(١) نشر هذا المقال في مجلة « البعث الإسلامي » في عددها السابع ، المجلد التاسع والثلاثون ، عام ١٩٩٤م .

إن هذا المصدر بريء من كل نقص واختلال ، أو شك والتباس ، أو ظن وتخمين ، أو تدرُّج وتطوُّر ، أو تعارض واختلاف ، وكل ما فيه قطعي يقيني ، مرئي منظور ، ملتئم جازم حاسم ، فليس في علم الله تدريج ولا تطور .

إن صفة علمه كصفاته الأخرى كلها أزلية أبدية :

﴿ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [ الحديد : ٣ ] .

إن علمه شامل محيط واسع :

﴿ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴾ [ طه : ٩٨ ] .

﴿ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًا ﴾ [ الجن : ٢٨ ] .

لا يعتريه الخطأ ولا يعترضه النسيان :

﴿ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴾ [ طه : ٥٢ ] إنه يعلم الغيوب والخفايا ولا يند عن علمه ذرة من ذرات الكون ﴿ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ [ سبأ : ٣ ] .

وكتاب الله ـ عز وجل ـ صادر عن علمه ، فهو آخذ من خصائص علمه ومزاياه وظل من ظلاله الفيحاء :

﴿ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [ هود : ١٤ ] ﴿ وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [ الأعراف : ٥٢ ] .

ولأجل أنه صادر من علم الله لا يوجد فيه تناقض ولا اختلاف ولا تصادم ، فإنها من صفات الجهل ، أو طروء الزيادة في العلم والنقصان أو التدريج والتطور أو الظن والقياس ، أو الغفلة والنسيان أو الكذب والاختلاف ، وهو بريء من كل ذلك ، منزه عن كل شائبة منه ، فلا جرم أن يكون كلامه الصادر منه بريئاً من كل تعارض ، محفوظاً عن كل اختلاف :

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ [ النساء : ٨٢ ] .

وقد يكون المصدر الأساسي للعلم نقياً غير مشوب ، ومصوناً غير مدخول ، ولكن وسيلة وصوله وبلوغه إلى إنسان ما من الناس لا تعرى من الشك ولا تورث الطمأنينة واليقين .

قد يكون أن يصدر شيء من منبعه الصافي ، ولكنه في الطريق يتلقى الكدر ، والغش ، ولكن القرآن صرح نفسه بأن وسيلة بلوغه ونزوله ليست إلَّا الوحي ـ الذي لا يدخله ضعف البشر ونسيانه وخلطه ـ فهو مصون مأمون ، لا يمكن أن يدخل فيه دخيل ، أو يطرأ عليه طارىء .

﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾[1] [ الشعراء : ١٩٢ ـ ١٩٥ ] ، ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾ [ النجم : ٣ ـ ٤ ] ، ﴿ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ [ النحل : ١٠٢ ] ، ﴿ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴾ [ التكوير : ١٩ ـ ٢١ ] .

أما علم البشر فإن مصدره ليس على طريق القطع واليقين مأموناً صوناً بريئاً ، فإن أساسه ينبني أكثر الأحيان على القياس والظن والتخمين ، كما أن وسائل علمه محدودة قاصرة ، وضعيفة كليلة ، تعجز عن أن تبلغ وسائل الأنبياء ومداركهم .

إن من أفضل وسائل الإنسان للعلم هي حواسه الخمس ، وما يختزنه الإنسان من معلومات عن طريق هذه الحواس يظنها بديهية ، ويعتمد في الأمور العقلية أيضاً على معلومات حواسه هذه ، ثم إنه يكون من هذه المعلومات المكتسبة بهذه الحواس مقدمات يرتب عليها نتائج لم تكن واصلة له من قبل بمجرد هذه الحواس الظاهرة ، ولكن الواقع أن هذه الحواس ليست مصيبة دائماً ، بل قد تخطىء وقد تصيب[2] ، كما أن العقل يتفاوت تفاوتاً عظيماً بين

---

(١) تنص هذه الألفاظ « بلسان عربي مبين » على أن هذا الوحي نازل بألفاظه وعباراته . إذ أنه لا يتصور اللسان بدون مفردات ومركبات ، فهو نازل بكلمات الله وعباراته .

(٢) انظر لمعرفة حدود الحواس الخمس وقوتها وصلاحيتها وآراء الفلاسفة الغربيين فيها =

إنسان وإنسان ، وبين مدارج الرقي والنضوج[١] ، ومهابط الصبا والطفولة .

ثم إن علم الإنسان ـ رغم كل ذلك ـ يبقى في دائرته المحدودة ونطاقه الضيق كذلك ناقصاً قاصراً ، لا يشمل حتى المحسوسات في وقت واحد ، وكم من عقد وغوامض وأسرار في هذا العالم المادي المنظور ، لم يحلها العقل الإنساني بعد ، وما خاض فيه العقل منها ولج بها ، فحدِّثْ عن اضطرابه واختلاف أهله فيه ولا حرج .

زد إلى ذلك أن معلومات العقل البشري تتدرج وتتطور ، وتتطلع نحو المزيد ولا قرار له على شيء ، ولم يقرر لرقيه وتطوره حد ، فإذا تعينت الحدود دلت على قصوره ونقصانه ، وإذا لم تتعين وبقيت عائمة دلت على تردده والتباسه وأنه لم يكمل بعد ، وكلا الأمرين لا يخلو من تشكيك فيه واتهام له بالنقص والقصور .

هذا والعالم المبحوث فيه عالم الماديات والحسيات التي يملك البشر بعض وسائله وطرق تحصيلها ، إن وراء هذا العالم المرئي المحسوس عوالم أوسع وأضخم من هذا العالم المادي بكثير ، وإنها لخارجة عن حدود إدراك البشر .

ثم إن الإنسان ـ رغم ما يدعيه من علم ـ يجهل حقيقة نفسه وكنْه ذاته ، يجهل مبدأه ومصيره ويجهل منشأ هذا العالم المادي ومنتهاه وليس كل ذلك ـ وهو أقرب ما يمكن إليه وأمس ما يكون به ـ إلا لغزاً من الألغاز لا تهتدى إليه العقول المجردة ، والحق أن العقل لا يعرف كيف يحل عقدة « العقل » .

ثم إن المعرفة التفصيلية لرضا الله تعالى وسخطه ، والعلم اليقيني بمحبوباته ومكروهاته ، والاطلاع على أوامره ونواهيه ، لا يتأتّى كل ذلك من

---

= كتاب « بين الدين والمدنية » للعلاَّمة الندوي .

(١) اقرأ لمعرفة حدود العقل ونطاق عمله كتاب « بين الدين والمدنية » و« رجال الفكر والدعوة في الإسلام » للعلامة الندوي ، الجزء الثالث الخاص بالإمام السرهندي ، الباب الخامس .

دون أن يطلع هو ـ بمحض القياس والتخمين أو الظن والتقدير ، أو استقامة الفطرة ، وسلامة القلب .

ومعلوم أن الإنسان لا يطلع دائماً على رغبة إنسان آخر ورضاه وأموره وأحكامه بمحض قياسه أو تقديره أو فراسته أو قوة ذكائه وإصابة قيمه ، فكيف بالاطلاع على رضا الله وسخطه ، وليس عند الإنسان شيء من مبادىء علمه .

كذلك فإن الإنسان سيتعرض لآلاف من الأخطاء والسقطات في التقنين وفي التكوين لأي نظام سياسي وخلقي ، وسوف تتعارض أنظمته وتتصادم قوانينه لفقده المصدر الحاسم الواحد ، ومن ثم تتصادم الشعوب والأمم وتتخاصم في الدستور والقوانين ، وتتصادم المصالح والرغبات ، والآراء والنزعات .

ويمر الدستور الإنساني والنظام البشري ـ لعدم قطعيته وحتميته وأبديته ـ بآلاف من التجارب ومراحل البلاء والامتحان ، وتستمر سلسلة الأخذ والرد ، والموازنة والترجيح وتقوم آلاف من الحركات الثورية ، للإصلاح وقلب النظام إثر النظام ، ويحرم الإنسان ـ في خضم هذه المشاكل وفي هذه السلسلة من الويلات ـ الطمأنينة والسكينة والأمن والرخاء .

وليس مصدر هذه الويلات والشرور إلَّا علم الإنسان الناقص الفج ، واعتماده عليه وثقته الزائدة به بغياً وعدواناً :

﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [ الإسراء : ٨٥ ] ، ﴿ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ [ يونس : ٣٦ ] ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴾ [ النجم : ٢٨ ] .

## ٢ ـ القرآن محكم ومفصل :

إن القرآن الحكيم واضح كل الوضوح ، محكم كل الإحكام ، مبين كل البيان ، في أصول الدين وكلياته وأسسه ومبادئه وفي جميع الأمور التي تمس إليها حاجة الإنسان في فلاح دنياه وسعادته فيها وفي نجاته وسعادته في الآخرة ، لا يحتمل القرآن في ذلك إبهاماً ولا غموضاً ، ولم يدع فيه تفصيلاً

ولا تفسيراً إلا أودعه فيه[١] .

﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ﴾ [ الأنعام : ١١٤ ] ، ﴿ وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [ الأعراف : ٥٢ ] ، ﴿ وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [ يونس : ٢٧ ] ، ﴿ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [ يوسف : ١١١ ] .

ولكن الإسلام لا يعطي ذلك التصور الضيق للدين الذي تعطيه أكثر الديانات الأخرى ، ويعتقد به أكثر أصحابها ، إنه هنا يضع القاعدة الكلّية للإنسان أنه عبد الله ، وأنه لا يخرج من هذه العبودية الأبدية في أي مجال من مجالات حياته ، وأن جميع أعماله ومهماته حتى القيادة والسلطان ـ الذي يبدو في ظاهر الأمر منافياً للعبودية والاستسلام ـ ليس إلّا مظهراً من مظاهر عبوديته المطلقة .

ولأجل هذا التصور المحيط الكلي الشامل لا تنشأ في الإسلام قضية الفصل بين الدين والسياسة ، لقد أوتى هذا « العبد » من مولاه المطلق دستوراً شاملاً ، وقواعد كلية محكمة في صورة « قرآن مبين » تسير حياة العبودية الإنسانية في هداه ونوره على بصيرة وسعادة ، وفلاح ، ولا حاجة معه إلى ملحق سياسي يضاف إليه .

### ٣ ـ القرآن فرقان :

القرآن فارق بين الحق والباطل والخير والشر والنور والظلام ، وهي سمته

---

(١) ينبغي أن يكون على بال القارىء أن القرآن كتاب هداية ونور ، وليس كتاب صناعات وفنون ، قد يأتي فيه إشارات إلى بعض الحقائق الكونية وكشوف لبعض الحقائق العلمية ، ولكنه يأتي عرضاً وضمناً لا أصلاً وأساساً ، وأما قوله ﴿ رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ [ الأنعام : ٥٩ ] وأمثاله من الآيات الكريمة التي تتضمن الإحاطة والشمول لكل شيء ، فالمراد به اللوح المحفوظ ، وعلم الله الأزلي الأبدي ، أما القرآن فإنه لم يتضمن ـ عدا الأصول والكليات ـ كثيراً من جزئيات الأحكام ، إذ أسند بيانها وتفسيرها إلى رسول الله ـ ﷺ ـ ، ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ [ النحل : ٤٤ ] .

المميزة التي أصبحت علامة عليه ، بل علماً يطلق عليه ويعرف به .

﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾ [ الفرقان : ١ ] .

إن الفارق الأصيل والحاجز السميك الذي أقامه القرآن الكريم ، إلى أن تقوم الساعة، بين الهداية والضلالة ، والإيمان والكفر ، والإسلام والجاهلية، ورضا الله وغضبه ، وبين الظن واليقين ، والحلال والحرام ، فارق مميز يعجز عن نظيره تاريخ الصحف السماوية والتعاليم الدينية عبر العصور والأجيال ، فالفارق الذي أقامه بين التوحيد والشرك ـ على سبيل المثال ـ وما استبعد فيه من أدنى الاحتمالات وأضعف الشبهات ، وأخفى المزالق ، إنه فارق يدل على إعجازه وأنه من الله :

﴿ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ﴾ [ البقرة : ٢٥٦ ] ، ﴿ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ﴾ [ الأنفال : ٣٧ ] ، ﴿ لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ۗ ﴾ [ الأنفال : ٤٢ ] .

## ٤ ـ القرآن مصدر للكتب الإلهية السابقة ، ومهيمن عليها :

ينبغي عند هذه النقطة أن تلاحظ ثلاثة أمور :

١ ـ أن أصول الدين وكلياته الأساسية قدر مشترك بين جميع الكتب السماوية والديانات السماوية ، وقد صرح بذلك القرآن الكريم في عدة مواضع .

٢ ـ أن الصحف السماوية السابقة على القرآن المهيمن ، كانت مؤقتة بزمن محدود ، وبقيت إلى زمن محدود ، فلم تكن فيها صحيفة دائمة البقاء ، ولا مستمرة الحفظ والصيانة .

٣ ـ أن القرآن الكريم كتاب الله الأخير ، وهو الصحيفة الأبدية الشاملة لأصول الدين كلها ، ولن تزال مصونة محفوظة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [ الحجر : ٩ ] .

وبعد تسليمنا بهذه الملاحظة الأساسية يتيسر لنا فهم الدعوى وإدراكها على حقيقتها : أنه مصدق لهذه الكتب ، وأنه ميزان لمعرفة صحة تعاليمها الأساسية وثبوتها ، ومحك لاختبار مدى أصالتها وسلامتها ، فما وافق منها هذا الكتاب المصدق المهيمن فهو الصحيح المحفوظ ، وما خالفه منها أصولاً وكليات فهو المحرَّف المنحول .

والآيات التي صرح فيها بأن القرآن الكريم مصدق للصحف السماوية السابقة كثيرة ، وقد ذكرت في الآية التالية صفتاه المميزتان : ( المصدق والمهيمن ) :

﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾ [ المائدة : ٤٨ ] .

## ٥ ـ القرآن يهدي إلى سبل السلام ويخرج الناس من الظلمات إلى النور :

﴿ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [ المائدة : ١٥ ـ ١٦ ] .

﴿ الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿١﴾ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۗ ﴾ [ إبراهيم : ١ ـ ٢ ] .

﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [ الحديد : ٩ ] .

﴿ ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [ البقرة : ٢٥٧ ] .

إن القرآن الكريم يفتح للحياة الإنسانية بجميع شعبها وميادينها ، تلك السبل المستقيمة المستوية الواضحة ، التي تخلو من كل المطبات والنتوءات

والمزالق والأخطار ، ولا تعبر عن هذه السبل أفضل وأجمع من سبل السلام . إنها من تلك الكلمات المصطفاة التي لا تفسر بغيرها من الكلمات والألفاظ .

إن هذه السبل كلها مؤدية إلى ذلك « الصراط » الذي يدعو إليه الرسول ، وليست هي تلك السبل التي تفرق وتبدد ، ويدعو إليها الشيطان .

﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ﴾ [ الأنعام : ١٥٣ ] .

وهنا لا بد من لفتة ووقفة قصيرة عند التعبير القرآني المحكم البليغ الذي يذكر « النور » دائماً مفرداً واحداً ، ويذكر الظلمة « الظلمات » جمعاً وتكثيراً ، لأنه متى فقد الإنسان نور الوحي ـ الذي لا يتعدد أصله ـ تعددت عليه الظلمات وتنوعت وتداعت من كل صوب وحدب حتى لا يحصي لها عدداً ، ويواجه على كل شعب من شعاب الحياة ، وكل درب من دروبها ، ظلاماً فوق ظلام .

ولو وضعنا « نور الدين القيم » في جانب ونحيناه عن حياتنا ، فهل يبقى في هذه الدنيا الواسعة إلا ظلمات متراكمة ، وحجب من الظلام كثيفة ؟ وهل يبقى غير التيه والضلال في طريق الوصول إلى الله ؟ . وغير الطقوس والتقاليد في الديانات ؟ وغير الحمق والجهل والخرافة في الاعتقادات ؟ . وغير الأوهام والأحلام في التصورات ؟ وغير القياس والرأي والظن والتخمين في العلوم والصناعات ؟ وغير الجور والعسف في الاجتماع والمعاملات ؟ وغير التجارب والاختبارات في القانون والسياسات .؟ وغير البغي والسطو والطغيان في الدول والحكومات ، هل يبقى غير ذلك ؟ كلا ، إنها :

﴿ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا ﴾ [ النور : ٤٠ ] .

إنه ليس في ظلمات هذه الحياة الكثيفة الحالكة منارة نور ، إلا « نور الله » الذي أضاء به السموات والأرض .

﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ [ النور : ٣٥ ] .

لقد كان تعبير القرآن لأجل ذلك عن النور بالفرد[١] ، وعن الظلمات بالجمع ، فمن لم يحظ بهذا النور فلا نور له :

﴿ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴾ [ النور : ٤٠ ] .

إن الذين يخرجون في ضوء مشاعل الأنبياء ومنارات المرسلين من ظلمات هذه الدنيا ومتاهات الضلالة والعمى إلى نور النهار ووضح الهدى ، يحيون حياة جديدة وما حياة الأعمى إلا شقاء وضلال ، إنهم يعودون أصحاب بصر ، ويحسون بأنفسهم وقد تفتحت لهم العيون ، وحدت الأبصار ، فتتجلى لهم طرق هذه الحياة ودروبها كما تستنير بهم الآخرة ، ويرون سبل السلام ، والصراط المستقيم في وضوح وجلاء ، يمشون في رحلة الحياة الطويلة المعقدة بخطاهم الثابتة في نور الله ، ولا يقعون في أي مزلق أو مزلّة ما داموا متشبثين بنور الله وهداه .

ولا أجمل ولا أروع في تصوير الفرق الهائل بين الحالتين : حالة العمى وحالة البصيرة من تعبير القرآن الكريم .

﴿ أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ﴾ [ الأنعام : ١٢٢ ] .

وقد وعد الله ـ سبحانه ـ بهذا النور على اتباع القرآن ، وعلى تقوى الله والإيمان برسوله .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ﴾ [ الحديد : ٢٨ ] .

وإن كلمة « تمشون به » وكلمة « يمشي به في الناس » لتشيران إشارة

---

(١) والنور ليست من الكلمات التي لا تجمع ، فهو يجمع على أنوار ، كما توجد هناك ألفاظ أخرى بمعناه ، ولا يصح القول بأن جمعه غير بليغ ، فماذا يبقى بعد استعمال القرآن إياه من شك في بلاغته ؟ ولكن القرآن يهدف بإفراد النور وجمع الظلمات إلى حقيقة أخرى مهمة ، ويلفت إليها الانتباه ، لعلهم يتفكرون .

واضحة إلى أن هذا النور ليس خاصاً بالآخرة ، بل إنما هو نور البصيرة ، والفرقان المبين اللذين يمشي بهما الناس في حياتهم الدنيوية وجميع شؤونهم فيها ، إنهم يقومون بجميع أعمالهم وشؤونهم في ضوء الوحي الإلهي والهداية النبوية ، والفرقان المنزل عليهم من عند الله ، وأن سيرتهم في الحياة تتميز تميزاً واضحاً عن سير جميع الشعوب الكافرة ومناهجهم في الحياة ، وليست لهم هذه الميزة النيرة إلَّا لقيام منهجهم مبدئياً على الوحي والرسالة لا على الآراء والظنون ، وقد أشير إلى هذه الصلاحية المميزة الحاسمة في آية أخرى .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا ﴾ [ الأنفال : ٢٩ ] .

لأجل ذلك وصف الله سبحانه وتعالى هذا القرآن بـ « النور » و « البصائر » و « الهدى » و « البينة » و « الموعظة » و « الشفاء » و « الذكر المبارك » . . إلخ .

والقرآن الكريم هو تلك المرآة الوضيئة ، التي يرى فيها الناس ذوو العقائد المختلفة والتصورات المتنوعة وأصحاب الأخلاق والأعمال المتباينة ، وجوههم وملامحهم ، وسماتهم ، فإنهم ذكروا فيها إما تصريحاً أو إيماءً ، أو تلويحاً بقصص الماضين وسيرهم الغابرة ، أو مباشرة وقصداً لأعيانهم .

﴿ لَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ كِتَٰبٗا فِيهِ ذِكۡرُكُمۡۖ ﴾[1] ، ﴿ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾ [ الأنبياء: ١٠ ].

لقد ذكر الإمام أبو عبد الله محمد بن نصر المروزي البغدادي (٢٠٢ - ٢٩٤هـ) - وهو المحدث الجليل المعروف ، ومن تلامذة الإمام أحمد بن حنبل الشيباني (م٢٤١هـ) - في كتابه : « قيام الليل »[2] ، قصة مثيرة مؤثرة تدل على

---

(١) فسرت كلمة « الذكر » هنا بمعنيين : بمعنى « الشرف » كما روي عن ابن عباس - رضي الله عنه - ، وبمعنى القصة وبيان الحال كما روي عن مجاهد - رضي الله عنه - .

(٢) طبع هذا الكتاب باسم « قيام الليل وقيام رمضان وكتاب الوتر » بمصر وبملتان ، وهو في الأصل مجموعة لثلاث من رسائله ، وقد لخصها العلامة أحمد بن علي (م٨٤٥هـ) .

فهم السلف للقرآن الكريم وتدبرهم فيه ، وتعين على تفسير هذه الآية وإدراك بعض معانيها .

عن الأحنف بن قيس أنه كان جالساً يوماً فعرضت له هذه الآية :

﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [ الأنبياء : ١٠ ] ، فانتبه فقال : عليَّ بالمصحف لألتمس ذكري اليوم حتى أعلم مع من أنا ومن أشبه ، فنشر المصحف فمر بقوم :

﴿ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴾ [ الذاريات : ١٧ ـ ١٩ ] .

ومر بقوم :

﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [ السجدة : ١٦ ] .

ومر بقوم :

﴿ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴾ [ الفرقان : ٦٤ ] .

ومر بقوم :

﴿ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [ آل عمران : ١٣٤ ] .

ومر بقوم :

﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ [ الحشر : ٩ ] .

ومر بقوم :

﴿ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [ الشورى : ٣٧ ـ ٣٨ ] .

قال : فوقف ، ثم قال : اللهم إني لست أعرف نفسي هاهنا ، ثم أخذ في السبيل الآخر ، فمر بقوم :

﴿ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴾ [ الصافات : ٣٥ ـ ٣٦ ] .

ومر بقوم :

﴿ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ [ الزمر : ٤٥ ] .

ومر بقوم يقال لهم :

﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴾ [ المدثر : ٤٢ ـ ٤٧ ] .

قال : فوقف ، ثم قال : اللهم أبرأ إليك من هؤلاء ، قال : فما زال يقلب الورق ويلتمس حتى وقع على هذه الآية :

﴿ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [ التوبة : ١٠٢ ] .

فقال : اللهم هؤلاء .

٤ ـ القرآن يتناول ذكر تلك الأمم والشعوب : ويختارها للعرض والقصص التي لا تنقطع أوضاعها وأعمالها ، ولا تنتهي صورها وأخلاقها ، بل تتكرر على مدار التاريخ ، كما أنه ، ما تعرض لتلك الجرائم والذنوب التي لا تكون إلا نادرة ، شاذة ، يخترعها الإنسان في فترة من الفترات بذكائه وحنكته الإجرامية ، إنه تعرض لجرائم تتكرر في الشعوب والأفراد ، وذنوب تشيع بين الناس .

في ضوء ما أسلفنا من الحقائق الواضحة وغيرها مما لم نتعرض له ، يتجلى القرآن الكريم كتاباً حياً غضاً دائم النضارة والبقاء ، لا تبلى جدته ، ولا يؤثر عليه الماضي والحال ، والقديم والجديد ، إنه فوق التطورات وفوق الأحداث ، وإنه ليخاطب كل فترة من فترات التاريخ ، وكل مدنية من مدنيات الأرض ، وإن دعوته حية طرية ، ورسالته غضة نضرة ، إنه صورة البشر

الناطقة ، ومرآة الفطرة الإنسانية الوضيئة الصافية ، ولقد قال عنه منزله بحق :

﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [ الزمر : ٢٧ ] .

﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا ﴾ [ النور : ٣٤ ] ، ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [ يوسف : ١١١ ] .

* * *

# القرآن الحميد والصحف السماوية القديمة في ميزان العلم والتاريخ[١]

لقد كانت الصحف السماوية السابقة على القرآن الكريم هدفاً دائماً للتحريف ، والتعديل والتغيير ، وعرضة للضياع والتفرق والاندثار ، وذلك لأن الله تعالى لم يتكفل بوعده لها بالحفظ والبقاء ، بل وكّل أمرها إلى علمائها وحملتها وناقليها كما أن حاجة البشرية إليها سواء من آمن بها ومن كفر ، كانت محدودة مؤقتة ، يقول الرب ـ تبارك سبحانه وتعالى ـ :

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۖ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ﴾ [ المائدة : ٤٤ ] .

وهذه حقيقة تاريخية علمية يعترف بها أتباع هذه الصحف وحملتها الذين أنزلت إليهم ، أن صحف العهد العتيق تعرضت ـ دائماً ـ للسطو والإحراق والإغارة ، وقد اتفق المؤرخون اليهود أنه وقع ذلك في التاريخ ثلاث مرات ، المرة الأولى : عندما حمل « بختنصر » ( ٥٦٤ق.م ) ( Nebuchadnezzar ) ملك بابل على اليهود عام ٥٨٦ق.م ، وأحرق بيت المقدس ، الذي كان سيدنا سليمان ـ عليه السلام ـ أودع فيه ألواح التوراة وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون ، وأسر ممن بقي من اليهود وحملهم مقيدين إلى بابل ، حيث مكثوا خمسين سنة ، وأملى النبي عزرا ( عزير ) الصحف الخمسة الأولى من التوراة من حفظه مرة ثانية ، وألف الوقائع والحوادث بالترتيب التاريخي ، ثم أضاف

---

(١) نشر هذا المقال في مجلة « البعث الإسلامي » في عددها الثالث ، المجلد الأربعون عام ١٩٩٥م .

إليها « نحميا » سلسلة أخرى من الكتب ، وألحق بها « زبور » النبي داود ـ عليه الصلاة والسلام ـ .

والمرة الثانية : عندما أغار « أنطيو خوس » الرابع ( Antiochus ) الذي كان يلقب بـ« أبيقانس » وكان ملك أنطاكية اليونانية على بيت المقدس عام ١٦٨م وأحرق الصحف المقدسة ، وفرض الحظر على تلاوة التوراة وعلى الشعائر والتقاليد اليهودية ثم بدأ « يهودا مقابى » بجمع هذه الصحف وترتيبها ، وأضاف إليها سلسلة من كتب العهد العتيق .

والمرة الثالثة : حمل « تيطوس » ( Titus ) (٤٠ ـ ٨١م) الملك الروماني على بيت المقدس في ٧/ من سبتمبر عام ٧٠م وأحرقه مع هيكل سليمان ، وحولها أنقاضاً ورماداً ، وأخذ الصحف المقدسة ـ تذكاراً لانتصاره ـ إلى العاصمة الرومية ونفى اليهود ، وأقام حول البلد مستعمرات أسكن فيها ناساً آخرين[١] .

إن موقف اليهود والمسيحيين من صحف الأنبياء والكتب السماوية ومعاييرهم لصحتها وصيانتها ومطابقتها لأصولها ، تختلف تمام الاختلاف عن موقف المسلمين من القرآن الكريم ومعاييرهم لصحته وثبوته ، إن المسلمين يعتقدون أن كل لفظة بل حرف في القرآن الكريم منزلة من عند الله ـ تعالى ـ محفوظة مصونة من يوم نزولها إلى يومنا هذا ، أما اليهود فإنهم لا يرون النقص والزيادة في صحفهم والتعديل والإلحاق فيها ينافي كونها كتباً سماوية ، وإنهم لا يتحرجون إطلاقاً من وصف هذه الصحف بأنها من تأليف الأنبياء ، ويمكن أن يقدر موقف اليهود من كتبهم المقدسة وعقيدتهم ووجهة نظرهم فيها من المقتطفات الآتية ، جاء في دائرة المعارف اليهودية التي قام بتأليفها كبار الفضلاء والمختصين اليهوديين :

« رغم إصرار الروايات اليهودية على أن صحف العهد العتيق هي من

---

(١) انظر مصادر تاريخ الصحف المقدسة ، ودائرة المعارف اليهودية ، وتوجد إشارات إلى هذه الحوادث في صحيفة نحميا ومقابين أيضاً .

مؤلفات تلك الشخصيات التي ذكرت فيها ، وليس ذلك مما يخالف الواقع بتاتاً ، ولكنهم لا يرون بأساً في الاعتراف بأنه وقع في بعض هذه الصحف تعديلات وإلحاقات »[١] .

« إن الصحف الخمسة الأخيرة من التوراة ( عدا الآيات العثمانية التي فيها ذكر موت موسى ـ عليه السلام ـ ) ـ هي حسب الروايات اليهودية القديمة ، من تأليفات موسى ـ عليه السلام ـ ولكن الربيين لم يزالوا يعنون بالتناقضات والاختلافات الموجودة في هذه الصحف ، ويقومون ـ ببراعتهم ـ بإصلاحاتها وتعديلاتها »[٢] .

« يقول سبينوزا ( Spinoza ) : إن الصحف الأولى من العهد العتيق ليست من تأليف موسى ـ عليه السلام ـ بل هي من تأليف عزرا ( عزير ) ـ عليه السلام ـ »[٣] .

إن أحدث التحقيقات العلمية قد أثبتت على سبيل القطع واليقين أن الكتب الخمسة الأولى من العهد العتيق مؤلفة مما لا يقل عن ٨٢ مصدراً من المصادر »[٤] .

أما الأناجيل الأربعة ( التي تسمى العهد الجديد ) فشأنها أكثر تناقضاً واختلافاً من صحف العهد العتيق ، ويحيط تدوينها ومؤلفيها كثير من الغموض والتعقيد والعقبات والشكوك ، ويوجد بينها وبين المسيح ـ عليه السلام ـ خليج واسع كبير ، ولا يمكن ردمه أو عبوره لأي مؤرخ أو محقق ناقد ، فقد

---

(١) دائرة المعارف اليهودية ( Valentine's one Volume jewish Encyclopaedia ) p.93 . ص/ ٩٣ .

(٢) دائرة المعارف اليهودية : ج/ ٩ ، ص/ ٥٨٩ ، وأيضاً : ص/ ٥٩٠ .

(٣) المصدر السابق : ص/ ٥٩٠ .

(٤) مقتبس من التفسير الماجدي ( تفسير القرآن ) ويرجع للاطلاع على تحديد زمن المؤلفين الأناجيل الأربعة ، واختلافات المصادر والمراجع ( التي الفت منها هذه الصحف ) إلى الكتاب المهم ( History of Religions ) ( تاريخ الديانات ) للبروفيسور جيمس ( E.O.James ) أستاذ تاريخ الديانات الأسبق في جامعة لندن .

كانت الأناجيل في المجامع الكنيسية ومختلف الفترات الزمنية عرضة للتغيير والتحوير والإصلاح والتعديل بصفة مستمرة ، وعلاوة على ذلك فإنها أشبه بكتب السير والتاريخ ، والقصص والروايات ، منها بالكتب السماوية ، والوحي الإلهي والإلهام الرباني .

إن هذه الأناجيل ليست بمستوى مجموعات الأحاديث بالدرجة الثانية أو الثالثة ، فضلاً عن أن تكون على مستوى الكتب الستة ، لأنها مجموعات متصلة السند إلى رسول الله ـ ﷺ ـ أولها أسانيد يعتمد عليها ويرجع إليها ، والحديث الصحيح عند المسلمين ما اتصل سنده بنقل العدل الضابط عن العدل الضابط إلى منتهاه من غير أن يكون فيه شذوذ أو علة[1] ، وعلى العكس من ذلك تخلو جميع الأناجيل من جميع أنواع السند ، فليست هناك أسانيد متصلة إلى مؤلفيها ، ولا من مؤلفيها إلى سيدنا المسيح ـ عليه السلام ـ .

هذا وإن هذه الصحف التي بأيدينا ليست هي في تلك اللغات التي نزلت بها ، والتي كان ينطق به المسيح ـ عليه السلام ـ وقومه ، بل لم تزل تنقل من لغة إلى لغة ، ووصلت عن طريق مختلف المترجمين والناقلين ، فهي ـ في الواقع ـ مثل كتب السيرة والتاريخ بل مثل كتب القصص والمواعظ ، ليس إلا .

وإذا لم نعدها ـ احتراماً لها وتقديراً لأصولها ـ من كتب الروايات الضعيفة والواهية ، فلا أقل من أن نعتبرها كمجموعات الحديث بالدرجة الرابعة ، التي لم يلتزم صحتها ولم تراع فيها قواعد الرواية والتحديث ، ولأجل كل هذه الحقائق الراهنة نرى الموازنة بين القرآن الكريم وبين هذه الصحف القديمة خطأ صريحاً ، مبنياً على الغفلة وقلة العلم ، فإن الموازنة لا تكون إلا بين شيئين متقاربين متماثلين .

ولقد أحسن المهتدي الفرنسي إلى الإسلام موسيوايتين دينيه ( Monsieur

---

(١) انظر تعريف الحديث الصحيح في كتب أصول الحديث كمقدمة ابن الصلاح و« تدريب الراوي » و« فتح المغيث » .

Eaton Dien ) إذ قال وهو يعرف بهذه الأناجيل ويحدد مكانتها العلمية والتاريخية :

« إن الإنجيل الذي أنزله الله ـ تعالى ـ على عيسى ـ عليه السلام ـ بلسانه ولسان قومه ، لا نشك في أنه قد ضاع ، وأنه لم يبق له عين ولا أثر ، وهو إما تعرض لعوادي الزمن ، أو أتلفته الأيدي ، ولذلك اقتنى المسيحيون مكانه أربع مؤلفات يشك في صحتها ومكانتها التاريخية ، لأنها توجد في اللغة اليونانية التي لا توافق طبيعتها لغة عيسى ـ عليه السلام ـ الأصلية السامية ، ولذلك فإن صلة هذه الأناجيل اليونانية بمنزلها واتصالها به أضعف من صلة توراة اليهود ، وقرآن العرب »[١] .

وتشير الشواهد الداخلية في العهد العتيق على أخطائه التاريخية الصريحة والتناقضات الواضحة والمستحيلات العقلية ، فقد نسب فيه ـ على سبيل المثال ـ إلى الله ـ تعالى ـ ما لا يليق أبداً بجلاله وعظمته ، ولا يناسب صفاته التي اتفقت عليها جميع الديانات السماوية ، ويقر بها العقل السليم ، وجاءت فيه اتهامات للأنبياء لا يتهم بها الإنسان العادي ويسمو عليها ، هذا وغير ذلك من الشواهد الداخلية التي توجد في التوراة والأناجيل التي تسمى مجموعتهما ( بايبل Bible ) أو الكتاب المقدس[٢] ، تدل على الزيادات والإلحاقات والتعديلات .

هذا شأن تلك الصحف التي يقدسها أتباعها منذ آلاف السنين ، والتي

---

(١) أضواء على المسيحية : ص/٥٢ ـ ٥٣ ، وعبارته يبدو فيها مساواته بين التوراة والقرآن ، في الثقة ، فلعلها صدرت منه قبل إسلامه أو أنه أراد به غير معناه الظاهر ، كما أن قوله : « قرآن العرب » تعبير غير سليم .

(٢) يرجع إلى كتاب « إظهار الحق » الكتاب الفريد في موضوعه للعلامة الشيخ رحمة الله الكيرانوي ( م١٣٠٨هـ ) دفين مكة المكرمة ، فقد ذكر المؤلف ١٢٢ اختلافاً وتحريفاً لفظياً في هذه الصحف ، وأخذ عليها ١٠٨ من الأخطاء التي لا يمكن تأويلها وقد طبع الكتاب على نفقة الشؤون الدينية في قطر سنة ١٤٠٠هـ (١٩٨٠م) بعناية الشيخ عبد الله بن إبراهيم الأنصاري ـ رحمه الله ـ .

يعتقد فيها ويحمل لواءها شعبان اثنان من شعوب العالم المتمدنة « الراقية » ( الشعب اليهودي والشعب المسيحي ) واعترف بها الإسلام أيضاً إلى حد أنه خاطب حملتها بـ« أهل الكتاب » ولقبهم به .

أما « ويدا » الهند ، و « أوستا » إيران فإن زمنهما أعرق في القدم ، وإن المعلومات التاريخية عنهما أقل ، والتوصل إلى معانيهما الحقيقية ومقاصدهما الأساسية أعسر وأصعب مع عوادي الزمن والحوادث التاريخية بحيث يشك في صحتهما شكاً قوياً ، ويتعسر الوصول إلى تحديد زمنهما ، وإبداء أي رأي علمي حولهما .

يقول بارته ( A.Barth ) عضو الجمعية الملكية الآسيوية لباريس ( The Society Asistis of Paris ) في كتابه « The Religions of India » ( الديانات الهندية )[1] :

« لو نحينا بعض الإلحاقات التي لا يصعب فصلها وتنحيتها على محك النقد فإن هذه الصحيفة تبقى أصيلة وأنها لا تدعي عن نفسها إلَّا ما هي فعلاً ، فلا تدعي أنها من الله ، ولا تخفي عمرها الحقيقي بطريقة صناعية ، وقد زيدت فيهما زيادات وتحريفات كثيرة ، ولكنها كلها كانت بحسن الطوية ، وبالرغم من ذلك يصعب علينا تحديد عمر هذه الصحف ، وأن برهمنا ( Brahmana ) الصحف التي حررت في الأخير ، ليست هي بأقدم من بداية عهدنا أكثر من خمسمئة عام ، أما المواد المذكورة في « ويدا » فهي أقدم منها ، أقدم إلى حد أنه لا يمكن أن يقال فيها شيء وإن إبداء شيء من الرأي في أقدم كتاباتها أمر مستحيل » .

حتى الأساتذة الهندوس والمختصين المحققين في تاريخ الديانات الهندية ، ماذا يرون عن هذه الصحف وما هو موقفهم ، وإلى أين توصلوا بعد البحث والتفكير الحر ، يمكن أن يقدر ذلك من هذين الاقتباسين التاليين :

---

(١) طبعة دلهي عام ١٩٦٩م : ص/ ٥٠٤ .

يقول الفاضل المعروف سريش جندرا جكروتي ( Suresh Chandra Chakroty ) المحاضر في جامعة كلكتا ، في كتابه ( Philosophy of The Upanishads ) ( فلسفة أوبنيشدا ) :

« ولقد قدمت في هذا الصدد وجهتان للأنظار ، يمثل إحداهما « بال جنجادهر تلك » ويمثل الثانية مكس مولر ( Maxmullar ) يرى « تلك » أن تاريخ ابتهالات « ويدا » يرجع إلى ٤٥٠٠ قبل المسيح ، على حين أن مكس مولر لا يراها أقدم من ٢٢٠٠ قبل المسيح ، رغم كونه متفقاً معه على أن « رك ويد » أقدم وثيقة للتفكير والتخيل الآري ، ويمكن ـ من تحديد عمر « رك ويد » ـ أن يقال إنه بالرغم من جمع ابتهالات « رك ويد » في مجموعة واحدة ، لم تحرر هي في زمان واحد ، ولذلك لا يمكن تقدير عمره بتحديد تاريخها وتحريرها ، ولا بد من التسليم بأن جميع ابتهالات « رك ويد » من أولها إلى آخرها ، ألفت على مدى قرون عديدة »[١] .

ويقول الدكتور « رادها كرشنن » الهندي المعروف ( ورئيس الجمهورية سابقاً ) وهو يلقي الضوء على التصور الأساسي في « ويدا » في كتابه « Philosophy Indian » ( الفلسفة الهندية ) ، المجلد الثاني :

« إن التصور الفكري الإجمالي الذي تعرضه كتب « ويد » ليس محدوداً ولا واضحاً ولذلك يمكن لمختلف المدارس الفكرية أن تستخدمه بمختلف أساليبها ومناهجها ، وعلاوة على ذلك فإن سعة هذه الكتب وضخامتها تحتمل احتمالاً كاملاً لأن يأخذ منها المؤلفون الأدلة والشواهد بحرية تامة حسب معتقداتهم وآرائهم »[٢] .

أما « أوستا » صحيفة إيران القديم الدينية التي يعتقد الفرس ( Persians ) أنها صحيفة سماوية ، فإننا نقدم هنا عنها شهادة لعالم غربي كانت موضوع دراسته الخاص :

---

(١) ( فلسفة أوبنيشدا ) طبع كلكتا لعام ١٩٣٥م : ص/ ٢٤ ـ ٢٦ .
(٢) طبع لندن عام ١٩٢٧م : ص/ ٢١ ـ ٢٢ .

يقول روبرت ح . بفايفر ( RoberT H.Pfeiffer ) رئيس قسم اللغات السامية بجامعة هارفرد ( Department of Semitic Languages ) في دائرة المعارف للديانات ( An Encyclopaedea of religions ) :

« لقد كانت « أوستا » ـ حسب ما تقوله الروايات مجموعة جميع العلوم ، وقد أتلف أكثر أجزائه الإسكندر المقدوني ، ثم ألف من الأجزء الباقية كتاب يشتمل على ٢١ جزءاً أو « نسك » ( Nask ) ـ كما يسمون ـ في القرن الثالث المسيحي ، ولكن لم يبق من هذه الأجزاء جزء كامل إلا الجزء الذي يسمى « ويندیداد » ( Vendidad ) وحمل منه شيء يتعلق بالعبادات إلى الهند بعد القرن التاسع المسيحي ، وهو الذي يوجد بها في خمسة أجزاء ، تسمى « ياسنا » ( Yasna ) و « جاتا » ( Gatha ) و « يسبرد » ( Vespered ) و « ويندید » ( Vendid ) و « خوردا ويستا » ( Khordaavasta ) » .

ولكن القرآن الحميد الذي هو كتاب الله الأخير ، ومصدق لكتب الله السابقة ، ومهيمن عليها وهو المسؤول عن هداية البشر وربط المخلوقين بالخالق ودعوتهم إلى الله من زمن البعثة المحمدية ـ صلى الله على صاحبها وسلم ـ إلى يوم القيامة ، فإنه يختلف عن جميع الكتب السماوية كل الاختلاف ، فشأنه ليس كشأنها ، وقد وعد الله ـ تعالى ـ بنفسه بحفظه وصيانته من كل تحريف وتغيير ، ونقص وزيادة ، يقول الله تبارك وتعالى :

﴿ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [ فصلت : ٤١ ـ ٤٢ ] .

وقد حفظ كذلك من المحو والتشويه ، وأن يستهدف للغو والباطل ، أو أن ينسى من الذاكرة ، ويمحى من الصدور ؛ أو يتعرض للتلف والضياع في حادثة من الحوادث كما وقع مع التوراة مراراً ، كل ذلك مع القرآن ممنوع :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [ الحجر : ٩ ] .

إن هذا الوعد الجازم للحفظ يشمل حفظ القرآن في المصاحف والصدور ، وبقاءه غضاً طرياً ، ونشره ، ورواجه ، وتلاوته وفهمه ، وأنه

محفوظ من أن يهجر ، أو يعطل ، أو لا يعمل به ، أو لا يفهم أو يصبح في يوم من الأيام نسياً منسيّاً ، فكلمة « الحفظ » العربية البليغة تحمل آفاقاً واسعة ، ومعاني عميقة تامة .

ولما قضى الله ـ عز وجل ـ بأن يبقى هذا الكتاب على أصالته وبجميع لوازمه ـ حسب ما أنزل على الرسول الكريم ـ ﷺ ـ وجه لتحقيق هذا الغرض الجليل النفوس البشرية ، والأسباب الطبيعية والخارجية والحوادث التاريخية ، فكلما كان رسول الله ـ ﷺ ـ يتلو آية كريمة ، وترن في أسماع المسلمين ، إذا بهم يتقبلونها تقبلاً ، ويضمونها إلى صدورهم ، وينقشونها في قلوبهم ، ويتهافتون على حفظها واستظهارها تهافت الفراش على النور .

وقد كان من أسباب هذا التنافس والمسارعة إلى حفظه حبهم للقرآن ، وشغفهم به ، كما كان لإعجاز القرآن وبلاغته وحلاوة جرسه ، وجمال نبراته وتناسب ألفاظه ، زد إلى ذلك الأحاديث الواردة في فضل حملته وحفَّاظه[١] ، تأثير أيّما تأثير ، ثم ارتباط المسلمين بالقرآن عن طريق صلواتهم وجميع عباداتهم ، وعن طريق تشريعهم وأحكام دينهم ، ومدنيتهم واجتماعهم ، وعلومهم وآدابهم ، في كل هذه الجوانب كان القرآن الكريم ولا يزال مصدرهم الأول ، ومرجعهم الذي إليه يرجعون .

لقد أنشأ كل ذلك في المسلمين صلة روحية قلبية بالقرآن الكريم بلغت حد تعشقه والهيام به ، وكثر فيهم من بداية العهد الإسلامي حفاظ القرآن كثرة مدهشة ، حتى استشهد في حادثة بئر معونة عام ٣هـ سبعون من المسلمين الذين كانوا يُدْعَون « القراء » أي الحفاظ العلماء[٢] ، ولم يزل عدد الحفاظ يزداد بزيادة نسبة المسلمين ، والرغبة في حفظ القرآن في ازدياد ونمو بالغين

---

(١) انظر في فضائل القرآن أبواب فضائله في كتب الحديث ، واقرأ رسالة « فضائل القرآن » للإمام عماد الدين الحافظ ابن كثير ( ٧٧٤هـ ) في آخر تفسيره المشهور .

(٢) البداية والنهاية : ج/ ٤ ، ص/ ٧١ ، وحديث بئر معونة مشهور ، وقد أخرجه البخاري ومسلم وأصحاب السنن الأخرى .

حتى أصبح حفظ القرآن الكريم منتشراً في كل مدينة وكل قرية صغيرة وكبيرة ، وفي كل مجتمع مسلم إلى حد مدهش .

ولم يزل المسلمون ينقلون القرآن الكريم من صدور إلى صدور شفاهاً وكتابة ، وبلغوا في حفظه من الإتقان والمهارة وفي قراءته وتصحيح مخارجه ، وأحكام قواعده من الدقائق الفنية والكمال العلمي ، وفي التنافس فيه وكثرة تلاوته والتعبد به من الشوق والهيام ما يحير الألباب ، ولا يصدقه عامة غير المسلمين إن ذكر لهم ، نعم أولئك الناس من غير المسلمين الذين يعيشون في بيئة إسلامية ولهم صلات مع المسلمين ، فإنهم يمكن أن يقدروا ذلك بعض الشيء ، وقد كان عدد هؤلاء الحفاظ في كل عصر أكثر من أن يحصى ، وإنهم الآن ليتجاوزون مئات الألوف في شبه القارة الهندية فحسب .

لقد صرف الله ـ عز وجل ـ خلفاء الرسول الكريم ـ ﷺ ـ والمسؤولين عن شؤون المسلمين إلى هذا الأمر بطريقة إلهامية ، فلما استشهد حفاظ القرآن الكريم في معركة اليمامة[١] بكثرة مقلقة ، خافوا أنه إذا استمر القتل بمثل هؤلاء ، فإنه يخشى على بقاء القرآن ـ لو كان معتمداً على الحفظ في الصدور ـ ويتعرض لخطر الضياع .

وقد هجس هذا الهاجس أولاً في خاطر عمر الفاروق ـ رضي الله عنه ـ الذي كان دائماً أسبق إلى تقدير مصالح المسلمين وضروراتهم ، والذي كان صوت ضميره يوافق ـ أكثر الأحيان ـ نداء الحق ومقاصد الشرع المنير ـ فتقدم إلى أبي بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ باقتراح جمع القرآن الكريم ، وكتابته في صحيفة واحدة ، وكان قبل ذلك مكتوباً مفرقاً في الأدم والعسب[٢] ، واللخاف[٣] ، ومحفوظاً في صدور الناس ، فشرح الله ـ عز وجل ـ صدر أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ لذلك ..

---

(١) كانت حرب اليمامة في أيام أبي بكر ـ رضي الله تعالى عنه ـ سنة ١٣ من الهجرة ، وقتل فيها مسيلمة الكذاب .

(٢) العسب جمع عسيب ، وهو جريد النخل الذي ليس عليه ورق .

(٣) اللخاف جمع لخفة ، وهي صحائف من الحجر الأبيض .

وولي كاتب الوحي الأمين زيد بن ثابت ـ رضي الله عنه ـ هذا العمل ، فقام به زيد باهتمام بالغ وعناية منقطعة النظير ، وجمع القرآن من صدور الحفاظ وصحف كتاب الوحي ، ومن الأدم والعسب واللخاف المحفوظ في بيوت الناس ، وهكذا ظهرت هذه الصحيفة القرآنية المجموعة في مكان واحد التي يعول عليها الناس ، ويرجعون إليها .

ولما جاء عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ وانبث القراء والحفاظ بسبب كثرة الفتوح في مختلف الأقطار والأمصار ، وانهال الناس عليهم يتعلمون منهم ويقبلون على قراءاتهم ، وكانت هذه القراءات تحتمل سبعة أحرف أنزل الله بها القرآن للتيسير على الأمة العربية المترامية الأطراف في أول عهدها بهذا الكتاب ، وظهرت للناس عدة وجوه في هذه القراءات ، وسبب دخول الأعاجم بكثرة في الإسلام اختلافاً في اللهجة والأداء ، وعدم فهم لحكمة التيسير في وجوه القراءات المتعددة ، وخاف الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ أن يؤدي هذا الاختلاف الذي سيشتد ويحتدم ـ وقد احتدم في بعض الأماكن فعلاً ـ أمر عثمان ـ باستشارة من الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ واتفاق عنهم ـ بأن يقرأ هذا القرآن على لغة قريش في وجوه القراءات ، وبعث بهذه النسخ إلى كل مدينة إسلامية ، واستبقى نسخة منها في المدينة المنورة تسمى « المصحف الإمام » .

وهذه هي النسخة التي أجمعت عليها الأمة ، وقبلتها ، وتداولتها عبر القرون والأجيال ، وعمرت بها القلوب ورطبت بها الألسن ، فحفظوا القرآن الكريم ، وتعبدوا الله ـ تعالى ـ ، ولا يزال الاعتماد إلى يومنا هذا من أقصى العالم إلى أقصاه على هذا المصحف العثماني الإمام ، ولم يختلف فيه من ٢٥هـ الذي كان فيه هذا الاتفاق على هذا المصحف المختار أي اثنين في أي مجتمع إسلامي ، ولم يعثر على كشف جديد لنسخة أخرى في أي مكتبة من مكتبات العالم ولا في أي متحف من متاحف الآثار القديمة[1] .

---

(١) يقول المستر اوي منغانا ( أستاذ جامعة مانشيستر سابقاً ) : توجد في المكتبات =

لم يزل المسلمون بعد الانتهاء من عملية جمع القرآن وتدوينه في المصحف مجمعين إلى يومنا هذا على الأخذ به ، ولقد حفظ القرآن الكريم بعد كل ذلك ولا سيما الآن من أن تمتد إليه يد التحريف ، أو يغير فيه حسب الأهواء والرغبات لكثرة حفاظه وحملته ، وسعة انتشاره وكثرة طباعته ، وقد جاء في دائرة المعارف البريطانية الاعتراف التالي :

« إن القرآن هو أكثر الكتب على وجه الأرض تلاوة وقراءة »[1] .

ويوافق المستشرقون والباحثون الغربيون ـ الذين لا يرون القرآن كتاباً إلهياً ، نزل بطريق الوحي على محمد ﷺ ـ على الرأي السابق ، ونسوق ـ فيما يلي ـ بعض أقوال الباحثين المسيحيين في هذا الصدد :

يقول سروليم ميور ـ الذي يعرف بالتحامل على الإسلام ورسول الإسلام محمد ـ ﷺ ـ والذي اضطر كتابه : ( Life of Mohammad ) سر سيد أحمد خان مؤسس جامعة عليكراه الإسلامية ـ الذي كان حامل لواء التعليم الحديث للمسلمين ـ إلى أن يرد عليه بكتابه : « الخطبات الأحمدية » ـ يقول هذا الباحث :

« لقد نشأت بعد مضي ربع قرن من الزمن على وفاة محمد ـ ﷺ ـ مناقشات حادة وتحزبات شديدة أدت إلى مقتل عثمان ـ رضي الله عنه ـ ولا تزال هذه الخلافات موجودة الآن ، إلا أن القرآن المشترك بينهم هو قرآن واحد ، وإن تلاوة هذه الفرق والطوائف ـ التي ظهرت بسبب التحزبات ـ لهذا القرآن الواحد بصفة متواترة مستمرة في كل عصر حجة قاطعة على أن الصحيفة التي بأيدينا هي نفس تلك الصحيفة التي أعدت بأمر الخليفة السيىء

---

= الأوروبية نسخ خطية كثيرة للقرآن الكريم ، وأقدمها نسخة من القرن الثاني الهجري ، ولكنها كلها لا تحمل أي اختلاف لفظي ، اللهم إلا اختلافاً في اللفظ ، وهو بسبب الخلل في الخط العربي القديم ، وأبدى مثل هذا الرأي الأستاذ نولديك ( Noeldeke ) في دائرة معارف الديانات والأخلاق : ج/ ١ ، ص/ ٥٤٨ ـ ٥٤٩ .

(١) انظر دائرة المعارف البريطانية ، تحت عنوان « محمد » ـ ﷺ ـ .

الحظ[١] ، ولعله لا يوجد في العالم كله كتاب مثله بقي مدى القرون الاثني عشر على أصالته بدون تحريف وتغيير ، وإن الخلافات في قراءات القرآن هي أيضاً قليلة جداً إلى حد مدهش ، وهي كذلك بسبب الإعراب والشكل الذي كان بعد زمن طويل »[٢] .

ويقول وهيري ( Wherry ) في تفسيره للقرآن :

« إن القرآن هو من بين جميع الصحف القديمة أكثرها أصالة وعدم اختلاط بغيره ( Purest ) »[٣] .

ويقول مترجم القرآن المعروف إلى الإنجليزية « بالمر » :

« إن الصحيفة التي رتبها عثمان ـ رضي الله عنه ـ لم تزل من عهده إلى يومنا هذا متفقاً عليها ومعترفاً بها »[٤] .

ويقول لين بول ( Lane Poole ) :

« إن أكبر محاسن القرآن أصالة غير مشكوك فيها ، كل حرف نقرؤه منه اليوم يمكننا أن نثق بأنه هكذا من قرابة ثلاثة عشر قرناً من الزمن غير مغير ولا محرف »[٥] .

لهذه الحقيقة القاطعة لم تكن للإسلام من حاجة إلى نبوءة جديدة تقضي على الشكوك والشبه ، وتميز الحق من الباطل ، وتفضح كذب الكاذبين ، ولم يكن ثمة من داع إلى كتاب آخر يحل محل الكتب المنسوخة التي كانت عرضة

---

(١) يريد به سيدنا عثمان ـ رضي الله عنه ـ وقتله ، ولكنه لا يعرف أن عثمان لم يكن سيىء الحظ ، بل كان سعيداً بالشهادة ، إنما كان سيىء الحظ أولئك الثائرون والمنتهكون لحرمته الذين لم يراعوا إلّا ولا ذمّة .

(٢) « حياة محمد » ( Life of Mohammad ) لسر وليم مور ( Sir William Muir ) .

(٣) ( Commentary of The Quran.vol.1.p.349. ) تفسير القرآن ج/ ١ ، ص/ ٣٤٩ .

(٤) ( The Quran Introduction.p.79 ) تعريف بالقرآن لـ« وهيري » : ص/ ٧٩ .

(٥) هذه المقتطفات والشواهد كلها مقتبسة من « تفسير القرآن » الإنجليزي ، للعلامة عبد الماجد الدريابادي .

للتحريفات والإلحاقات والتعديلات[١] .

﴿ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [ فصلت : ٤١ ـ ٤٢ ] .

* * *

(١) مقتبس من « النبوَّة والأنبياء » للعلاَّمة الندوي ص/ ٢٢٧ ـ ٢٣٤ .

# تنبيه القرآن الكريم
# على تحريفات الصحف السابقة
# والفروق الدقيقة بين عقائد الديانات السابقة
# والفرق الدينية[١]

إن من الإعجاز القرآني المدهش أنه تناول بيان الخلافات العقائدية والتصورية بين شتى الفرق والطوائف من اليهود والمسيحيين ، في صحة دقيقة وإتقان وضبط عجيبين ، وراعى الفروق والأشياء الدقيقة في عرض آرائهم وخلافاتهم الدينية ، وإن ما ذكر القرآن الكريم من فروق بين عقائدهم ووجوه خلافاتهم وافتراقاتهم تصدقه ـ حرفاً بحرف ـ الدراسة الواسعة العميقة لثروتهم الدينية .

وكلما يتسع العلم بدياناتهم وتتيسر وسائل وإمكانيات دراسة كتبهم ـ التي تنتشر الآن وتصدر بكثرة ـ دراسة عميقة يظهر للناس صدق بيانات القرآن ـ وهو الكتاب المحكم ـ ودقتها وتنكشف حقائق ومعلومات خطيرة ، ويتجلى لكل ذي عينين أن القرآن الكريم لم يستخدم كلمة واحدة في حقهم إلا وهي من الضرورة بمكان ، ولولاها لخفيت علينا معان ، وأن تنويعه للتعبير والبيان عندما يذكرهم ليس إلا لغرض مقصود كبير .

كذلك ما جاء في القرآن الكريم من تأكيد على شيء أو تنفيذ لشيء حول الأشخاص أو الحوادث والوقائع فليس ذلك إلا لمواقف اليهود والمسيحيين منهم : إيجابية مغالية أو سلبية منافية ، ودحضاً لاتهاماتهم وحطاً على

---

(١) نشر هذا المقال في مجلة « البعث الإسلامي » في عددها الثامن ، المجلد الواحد والأربعون ، عام ١٩٩٦م .

رواياتهم ورداً على زيغهم وانحرافهم، ونكتفي هنا بعرض ثلاثة أمثلة من ذلك :

١ ـ لقد نفى القرآن الكريم تهمة الكفر عن النبي سليمان ـ عليه السلام ـ وبرأ ساحته عنه قائلاً : ﴿ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ [ البقرة : ١٠٢ ] .

وبديهي أن يتعجب كل إنسان عنده شيء من سلامة الفكر ، وليست عنده خلفيات سابقة في هذا الموضوع ، وأن يقول : ما الداعي إلى تبرئة ساحة النبي سليمان من الكفر وهو نبي معصوم جليل ؟ والنبوة لا تقتضي الإيمان فحسب بل النبي الحق يكون إمام المؤمنين وقائدهم ، ومرجعهم وقدوتهم ، إنه مشعل نور ومنارة هدى ومصدر بر وإيمان .

ولكن تتضح أهمية هذا التصريح القرآني ببراءة « سليمان » وعصمته وضرورته وقيمة هذا الرد والتفنيد ودوره عندما ندرس تصريحات العهد القديم عن النبي سليمان ـ والتي أسلفنا بعض نماذجها ـ وندرس تلك الروايات التي راجت واشتهرت في اليهود عن شرك سليمان ووثنيته وتعليمه السحر وغير ذلك ، ومعاذ الله ، وعندما نرجع إلى الكتابات اليهودية ، ودائرة المعارف اليهودية ( Jewish Encyclopaedia ) وغيرها من المراجع التي تبين نظرية اليهود عن النبي سليمان وما لها من خلفيات تاريخية .

لقد كانت دنيا اليهودية والمسيحية ـ التي لا تعترف بالقرآن مصدراً للعقائد والتعليمات الدينية بل تؤمن بالصحف المقدسة ـ متشبثة بهذه القصص والحكايات ، ولكنها اضطرت ـ أخيراً ـ إلى الاعتراف بتلك الحقيقة الواضحة التي كان أعلنها النبي الأمي ـ عليه أفضل الصلاة والتسليم ـ في وادي مكة بعيداً عن مركز العلم والمدنية ، قبل أربعة عشر قرناً من الزمن ، فقد جاء التصريح في مقال دائرة المعارف البريطانية ـ التي تعتبر خلاصة الجهد والتحقيق البريطاني ـ عن النبي سليمان ـ عليه السلام ـ : « لقد كان سليمان موحداً »[١] .

---

(١) دائرة المعارف البريطانية : ج/ ٢ ، ص/ ٩٥٢ ، الطبعة الرابعة .

وجاء التصريح في « دائرة المعارف للعهد القديم والجديد » ( Encyclopaedia Biblical ) التي هي نتيجة جهود الفضلاء المسيحيين المختصين في علوم العهد القديم وبحوثهم التاريخية ، أن الفقرات التي جاءت في العهد القديم تصف سليمان ـ عليه السلام ـ بالكفر والشرك ( والعياذ بالله ) كلها ملحقة مدسوسة ، وجاء فيها تفنيد تلك الأسطورة المروية في العهد القديم التي تقول بأن سليمان كان يعبد الأصنام بتأثير زوجاته[١] ، ﴿ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ .

٢ ـ ذكر في القرآن الكريم أن الله ـ سبحانه وتقدس ـ لم يمسه شيء من الملل والإعياء والتعب بعد أن خلق السموات وما بينهما من عوالم وأكوان : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴾ [ ق : ٣٨ ] .

ويعجب كل من رزق سلامة الفطرة ويعرف صفات الله وأنه القوي العزيز القادر القاهر وأنه « لا يؤوده حفظهما » وأنه « لا تأخذه سنة ولا نوم » من هذا النفي ، ويقول في نفسه ما الذي دعا إلى تصريحه بأنه لم يتعب ولم يمسه شيء من لغوب ؟ ولكن ما يقع بصر الدارس للعهد القديم على هذا النص المذكور فيه : « خلق الله السموات والأرض في ستة أيام ، فاستراح في اليوم السابع »[٢] .

وجاء في طبعة الملك جيمس الإنجليزية الموثقة للعهد القديم هذا النص التالي[٣] :

---

(١) استفاد العلاَّمة الندوي في ذلك من التفسير الماجدي ( تفسير القرآن ) للعلاَّمة الأستاذ عبد الماجد الدريابادي المرحوم ، انظر : تفسيراته : ﴿ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ من سورة البقرة فيه .

(٢) سفر التكوين : ٢ ـ ٣ .

(٣) يبدو أنه تفطن العلماء المسيحيون والمترجمون للتوراة أخيرا لخطئهم وخطورة ما ينسبونه إلى الله من ضعف فغيروا في التعبير عند إعادة نظرهم في التراجم حسب ما هي عادتهم المعروفة في التاريخ من تغيير وتعديل في نصوص التوراة . فجاء في =

. And He Rested On Seventh Day From All His Work Which He Had Made.

عندما يقع بصر الدارس على هذا التصريح في العهد القديم والذي لا يزال ينقله الأحبار والرهبان عند ذلك تتضح له أهمية قوله ـ تعالى ـ : ﴿ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴾ وضرورته ومعنويته ومغزاه ، وينكشف ما يقصد بهذا الرد والنفي المبين من فضح للجهل والجرأة على الله ، وتفنيد لسوء فهم أو افتراء وكذب على الله تعالى ، الأمر الذي تناقله المتزعمون والمدَّعون للتحقيق والبحث آلافاً من السنين ، ولعلهم تذكاراً لذلك اليوم الذي استراح الله فيه ـ بزعمهم الباطل ـ يحتفلون بيوم السبت ويمسكون فيه عن العمل .

٣ ـ لقد تناول القرآن الكريم بيان معتقدات المسيحيين حول المسيح ـ عليه السلام ـ بثلاثة أساليب :

١ ـ ﴿ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ﴾ [ المائدة : ١٧ ] .

٢ ـ ﴿ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ﴾ [ التوبة : ٣٠ ] .

﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا سُبْحَٰنَهُۥ ﴾ [ البقرة : ١١٦ ] ، ﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴾ [ مريم : ٨٨ ـ ٨٩ ] .

﴿ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴾ [ مريم : ٩٢ ] .

﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ ﴾ [ الإسراء : ١١١ ] .

﴿ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴾ [ الكهف : ٤ ] .

هل ترى هذه الفروق بين التعابير القرآنية ، تنويعاً للأسلوب ، ومادة للبلاغة وتصريفاً للقول ، وأنها كلها متحدة المعنى مترادفة في المقصود ؟ كلا ! إنها كما يتضح من دراسة تاريخ الفرق المسيحية وتفاصيل عقائدها ـ التي

---

= طبعة British And Foreignbible Society للعهد القديم لعام ١٩٥٨م هذه العبارة التالية : فرغ من أعماله التي كان يقوم بها في اليوم السابع ، انظر : ( سفر التكوين : ٢٠٢ ) .

أصبحت الآن في النور ـ فروق دقيقة مقصودة قصداً لأهميتها وإفادتها لحقائق مرعية .

ويخضع الدارس للإعجاز القرآني العلمي الدقيق عندما يطلع على أنه كان هناك فرقة مسيحية تدعى ( Adoptionist ) ( أي القائلة بالتبني ) التي لم تكن تعتقد أن المسيح هو ابن الله صلباً وأنه ولده ( والعياذ بالله ) بل كانت تعتقد بأن الله تعالى تبناه ، لقد كشف النبي الأمي العربي بعيداً في الحجاز قبل أربعة عشر قرناً من الزمن ، الحجاب عن هذه الحقيقة ، وراعى هذا الفرق في بيان عقائد فرق المسيحيين التي لم يكن يعرفه المثقفون المسيحيون بهذه الدقة المضبوطة .

﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ ﴾ [ البقرة : ١١٦ ] .

يقول الأستاذ عبد الماجد الدريابادي : « كانت هناك طائفة كبيرة من المسيحيين تدعى ( Adoptionist ) ( الاتحادية أو القائلة بالتبني ) وينبغي أن يكون التعبير عن عقيدتهم الأساسية بعقيدة التبني أو « الاتحادية » وخلاصة عقيدتهم هذه ، هي : « أن الأقنوم الأول أي الله ـ جل جلاله ـ تبناه واتخذه ولداً وأشركه في ألوهيته ، فهو شريكه في ألوهيته وملكه وجميع صفاته .

ونجد بعض الشواهد على أسباب وعوامل هذه العقيدة في التاريخ عام ١٨٥م ، ثم حكم البابا في رومه في القرن الثامن على هذه العقيدة ، بالإلحاد والزندقة ، فالإشارة في الآية الكريمة واضحة إلى هذا الفرع من طوائف المسيحيين »[١] .

إن هذه الأمور الدقيقة الملحوظة ، وهذا الإعجاز في الإحاطة بفروق عقائدهم وخلافاتهم ليس في وسع أي إنسان من البشر ، لا يعرف عن معتقدات اليهود والمسيحيين وخلافاتهم الداخلية الدقيقة ، إنه كلام علام الغيوب الذي لا يطلع على غيبه أحداً إلّا من ارتضى من رسول ، وهو فوق الريبة والشك

---

(١) التفسير الماجدي ( تفسير القرآن ج١ ، ص٢٠٤ ) .

والظنون ، بريء من نقص البشر وقصوره وضعفه .

﴿ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [ فصلت : ٤١ ـ ٤٢ ] .

* * *

# بين نظرتين

## النظرة القرآنية والنبوية إلى الأمة الإسلامية ونظرة المسلمين أنفسهم إلى أنفسهم ..![1]

أيها السادة !

إن موضوع حديثي اليوم « النظرة القرآنية والنبوية إلى الأمة الإسلامية ، ونظرة المسلمين أنفسهم إلى أنفسهم » .

وقد يبدو هذا الموضوع غريباً لكثير من إخواننا ، وكأني أقرأ في خطوط جباههم العريضة المشرقة ، تساؤلًا طبيعياً ، أي طرافة في هذا الموضوع ؟ كلنا يعرف النظرة القرآنية إلى هذه الأمة الإسلامية ، بل النظرات القرآنية التي جاءت في القرآن الكريم ، ومن الذي لا يحفظ قوله تعالى :

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾ [ آل عمران : ١١٠ ] .

ومن الذي لم يسمع ، ولم يوفق لتلاوة قوله تعالى :

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [ البقرة : ١٤٣ ] .

ومن الذي لا يعرف قوله تعالى :

﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ

---

(١) نُشر هذا المقال في مجلة « البعث الإسلامي » في عددها العاشر ، المجلد السادس والعشرون ، عام ١٩٨٢م .

أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ ﴾ [ الحج : ٧٨ ] .

وكأني أسمع ما يجول في خواطر كثير من المستمعين ، يقولون : إنه موضوع على الهامش ، أو هو من قبيل تحصيل الحاصل .

ولكن إخواني ! القرآن كما تعلمون لا تنقضي عجائبه ، ولا تبلى جدته ، والله إن في القرآن آية ، كلما مررت بها وقفت أمامها خاشعاً متهيباً ، مستعجباً مشدوهاً ، أي حجم تعطي هذه الآية هذه الأمة الإسلامية ، وفي أي محيط ، وفي أي واقع تاريخي ، ولكني لا أريد أن أبادر بتلاوة هذه الآية ـ وكلكم تعرفونها وتحفظونها ـ بل أريد أن أثير فيكم التساؤلات الكثيرة ، وأثير فيكم الرغبة والتعطش إلى سماع هذه الآية .

قبل أن أتلو هذه الآية الكريمة وهي في ذاكرتكم وفي معلوماتكم ، أريد أن أستعرض الواقع الغريب ، الواقع المثير المرير ، الذي نزلت فيه هذه الآية .

تصوروا يا إخواني ! ـ وما أحلى الحديث عن المدينة في المدينة ـ تصوروا عن حفنة من البشر ( وأنا أتعمد هذه الكلمة ) نظراً إلى البحر الهائج المائج من النفوس البشرية ، والمجموعات الكبيرة ، التي كانت تموج في ذلك العصر ، حفنة من البشر تؤمن بالحقائق التي جاء بها القرآن الكريم ، وجاءت الرسالة المحمدية ، فتضيق عليها الأرض بما رحبت وتضيق عليها نفسها ، ولا أصدقَ ولا أدق تصويراً من الله سبحانه وتعالى يقول عن مثل هذا الوضع الغريب : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ﴾ [ التوبة : ١١٨ ] هذه صورة المؤمنين المعدودين الذين آمنوا بالله وبرسوله بمكة ، ومكة على رحابتها وسعتها ، وترحيبها بكل طارق ، وبكل نزيل ، بحكم البيت العتيق ، وبحكم ﴿ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ ﴾ والذي يقول الله تعالى فيه لنبيه وخليله إبراهيم : ﴿ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ ﴾ [ الحج : ٢٧ ـ ٢٨ ] .

مكة ضاقت على هذه الحفنة البشرية المؤمنة حتى اضطرت هذه المجموعة

العربية القرشية ، المؤمنة المسلمة التي التفت حول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، ووضعت يدها في يده ، اضطرت إلى أن تغادر وطنها وتأوي إلى هذه المدينة الطيبة الكريمة المؤوية ، دخلت في هذه المدينة ، وهي غريبة فيها ، رغم وحدات كثيرة من الوحدات الإنسانية ، الثقافية والحضارية ، والقبلية واللغوية ، فأمر الله سبحانه وتعالى بالتآخي بين هؤلاء المؤمنين الغرباء الطرداء ، المساكين البؤساء ، الذين جاؤوا من مكة ، وبين من آمن من أهل المدينة الكرماء ، وهم قلة كذلك ، أمر بالتآخي بينهم وقال : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾ [ الأنفال : ٧٢ ] هذه خلية بشرية من نوع فريد ، تقوم على أساس الوحدة العقائدية ، وعلى أساس الحب في الله ، هذه خلية إنسانية صغيرة في الكم Quantity ولكنها كبيرة في الكيف Quality .

ما نسبة هذه البذرة الصغيرة التي ربما لم تكن ترى إلا بالمجهر Microscope ما نسبة هذا العدد القليل الضئيل إلى هذا العدد الوفير الكثير الذي كان يزخر حوله ، كانوا بين فكّي الأسد ، الإمبراطوريتين العظيمتين اللتين توزعتا العالم المتمدن المعمور ، ففي الشمال وفي الغرب الإمبراطورية البيزنطية ، وفي الشرق الإمبراطورية الفارسية الإيرانية ، ولا أصدق من قول الله تعالى وأدق تصويراً منه في وضع هذه المجموعة البشرية الصغيرة :

﴿ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ﴾ [ الأنفال : ٢٦ ] كانوا كقطعة لحم على يد طفل صغير ذهب إلى السوق فحملها على كفه فجاءت حدأة فخطفت هذه القطعة ، ولا أصدق من قول سيدنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن المسلمين بعدما مضى على تاريخ الإسلام عقود من السنين « لقد كنا كالغنم في ليلة شاتية مطيرة » إن الله سبحانه وتعالى يقول لهؤلاء المهاجرين والأنصار : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾ [ الأنفال : ٧٢ ] ثم يقول مقابل ذلك : ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾ [ الأنفال : ٧٣ ] .

كيف يصدق الإنسان الخاضع لنتائج رياضية ولواقع الحياة ، أن يقول الله تبارك وتعالى ـ وهو الحكيم العليم ـ لهذه المجموعة الصغيرة التي قد لا ترى إلا « بالمجهر » : ﴿ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾ [ الأنفال : ٧٣ ] أيها المسلمون ! إذا قصرتم في هذا التآخي ، إذا قصرتم في تكوين المجتمع الإسلامي ، والحياة الإسلامية الصحيحة ، وفي تعميق جذور الإيمان في قلوبكم ونفوسكم ، وإذا قصرتم في أداء الواجب الإنساني الذي يرتبط به مصير الإنسانية ارتباط الحياة بالشمس ، ارتباط الحياة بالهواء والماء ، ﴿ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾ [ الأنفال : ٧٣ ] كانت هنالك إمبراطوريات عظيمة ، ومجتمعات بشرية راقية ، هنالك ثروة من العلوم والفنون ، هنالك أدب وشعر ، هنالك قانون وسياسة ، هنالك جميع وسائل الرقي والتقدم ، ولكن الله سبحانه وتعالى يقول لهذه المجموعة الصغيرة في هذه البيئة الضيقة ، المتأخرة المخنوقة ، التي لم يكن لها شأن في العالم ، ولم تكن الأمم تحسب لها حساباً ، وقد صرح بذلك ملوك فارس ، وأباطرة الروم لرسل المسلمين وقوادهم ، فقالوا : والله ما كنا نكترث بكم ولا نرفع بكم رأساً ، فما تريدون منا ؟ إن كنتم تريدون الكسوة نكسوكم ، وإن كنتم تريدون التموين نمونكم ، ولكن الله سبحانه وتعالى يقول لهؤلاء العرب من فوق سبع سموات : ﴿ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾ [ الأنفال : ٧٣ ] .

هذا هو الحجم الكبير الذي تعطي هذه الآية لهذه الأمة ، بل لنواة هذه الأمة ، إنها كانت صغيرة في القامة كبيرة في القيمة ، لأن الجمرة لا ينظر إلى حجمها ، وإلى عرضها وطولها ، إنما ينظر إلى القوة الكامنة والطبيعة المودعة فيها ، والرسالة المنوطة بها ، فجمرة واحدة تستطيع أن تحرق مدينة بأسرها ، وكذلك البذرة لا تقوم بحجمها ، إن مجموعة صغيرة من البذور تستطيع ـ إذا أرادت مشيئة الله ـ أن تنبت مزرعة تعيش عليها مدينة كبيرة ، والنور كذلك لا ينظر إلى وزنه إنما ينظر إلى رسالته التي نيطت به ، وأسندت إليه ، تتناولون « المفتاح الكهربائي » فينطلق التيار الكهربائي ، فينير هذه القاعة الكبيرة ، بل

الجامعة كلها ، كذلك الشحنة الإيمانية التي أودعت في هؤلاء المسلمين كانت كفيلة بإنارة العالم كله .

وهي نفس النظرة التي نظر بها الرسول صلى الله عليه وآله وسلم إلى هذه الأمة ، إن بدراً ليست منا ببعيدة ، قاد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم الكتيبة المسلمة المؤمنة ، التي كانت نقطة مغمورة في هذا البحر من الكفر ، والطغيان من القوة المادية ، وكثرة السلاح ، إلى ساحة بدر ، استعرضوا الواقع الاستراتيجي ، ثلاثمئة وثلاثة عشر ( ٣١٣ ) إنساناً ، هل يرتبط بهم مصير الإنسانية وسعادتها ، وهل يرتبط بهم مستقبل هذا الدين الذي جاء به الرسول الخاتم صلى الله عليه وآله وسلم ، بل مستقبل أديان الأنبياء عليهم السلام كلهم ، ومستقبل الرسالات السماوية من عهد سيدنا آدم عليه السلام إلى عهد سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، من يصدق ذلك ؟ ولكن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم يعرف قيمة هذه الكتيبة المؤمنة ، التي قادها إلى بدر ، وقد حشد كل طاقته وكل ذخيرته إلى هذه الساحة التي كانت تقرر مصير الإنسانية ، ثم قام يدعو ربه ، ويبتهل إليه ، ويخر ساجداً ويقول : « اللهم إن تهلك هذه العصابة لن تعبد » كلمة ما وجدت نظيرها ـ في الثقة والاعتماد ـ في تاريخ الديانات السماوية ، وفي تاريخ القيادات البشرية ، وفي تاريخ التحركات العسكرية التي غيرت مجرى التاريخ ، قالها الرسول عليه الصلاة والسلام ، وهو أعرف البشر بالله تعالى وصفاته ، وأخشاهم لله ، كما قال : « أنا أخشاكم لله » ، والله ما يستطيع غير الرسول أن يقولها ، ولا يزال العالم الإسلامي مرتبطاً مديناً لهذا النصر المبين ، الذي تحقق في ساحة بدر ، ولا يزال يعيش في ظلال هذا الانتصار ، يأكل من رفده ، وينعم في كنفه ، وفي ظله قامت الحكومات وانتشرت الحضارات ، وانفجرت العلوم ، وتكونت المكتبات .

إخواني ! فهذه هي النظرة التي كان ينظر بها أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، والمؤمنون الأولون إلى هذه الأمة ، وقد قرأت قصة في التاريخ ، لا أزال أتذوقها ، ليس الطعام فقط ، ولا الشعر فقط ، ولا الأدب

فقط ، هو الذي يتذوق ، إن القصص الصحيحة ، والوقائع الغريبة التي وقعت تتذوق أكثر مما يتذوق الطعام الشهي ، والله لا أزال أمضغ هذه القصة ، وأقلبها في فم ذوقي وعلمي ، وقف سيدنا سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قائد المسلمين على ضفة دجلة ، وهم متجهون إلى المدائن عاصمة المملكة الإيرانية ، وكان الفرس ـ خشية من هؤلاء الموحدين الشجعان الأبطال الذين لا يخافون غير الله ـ قد كسروا الجسور والقناطر ، وأبعدوا السفن احتياطاً ، لأنهم كانوا يعرفون أن العرب ، ليست في جزيرتهم الأنهار ، وليست عندهم تجارب السباحة وعبور الأنهار ، فإذا جاؤوا إلى هذا الشاطىء ، فإنهم لا بد أن يتوقفوا هناك ويفكروا في التراجع والانسحاب ، فلما وصل سيدنا سعد بن أبي وقاص إلى هذا الشاطىء ، وكان قائداً محنكاً ، حكيماً مؤمناً ، يجمع بين التجارب العسكرية ، والحنكة القيادية ، والحكمة الإيمانية ، نظر إلى سلمان مستوضحاً مستشيراً .

هنالك قال سيدنا سلمان رضي الله عنه تلك الكلمة التي سجلها التاريخ العربي الأمين ، قال : « إن الإسلام لجديد ذلِّلت لهم والله البحور كما ذلِّل لهم البر »[1] يعني أن هذا الدين إلى الآن ، لم يقم بدوره كاملاً ، ولا تزال عليه مسؤولية السلالة البشرية ، ومسؤولية المصير الإنساني فأنا لا أصدق أن المسلمين الذين نيطت بهم الرسالة ـ وهذه الرسالة إلى الآن لم تستنفد طاقتها ، ولم تؤد دورها بعد ـ يغرقون لأنهم لا يملكون سفناً ، إن هذا الدين لجديد ، وإن هذه الأمة لفتية دافقة بالحياة ، وإن الله سيستخدم هذه النواة الصالحة السليمة لبناء الإنسانية بناءً جديداً ، فغير معقول أن يغرق جيش الإنقاذ ـ لعدم وجود السفن والجسور ـ هذا ما يتنافى مع حكمة الله تعالى ، يترك النهر يفعل فعله ، ولا يتركنا نعمل عملنا ؟ ألسنا أحق بالانتصار ، والتغلب ، وأحق بالنجاح من هذا النهر ؟ ما قيمة دجلة ؟ نهر يروي به الناس ظمأهم ، ويسقون به زروعهم ، ولكن الرسالة التي نحملها هي أكثر قيمة ،

---

(١) البداية والنهاية ج٧ ص٦٥ .

وأنفع للبشرية من الماء الذي يشربون ، ومن الهواء الذي به يتنفسون ، لا تخف أيها القائد المؤمن ، صاحب رسول الله ، ومر جيشك يخض فإنه سيعبره[١] إن لم يكن في الجيش بغي أو ذنوب تغلب الحسنات » .

وهذه النقطة تسترعي انتباه القادة والزعماء الذين لا يعرفون إلا سياسة الحرب ، وهذا الذي قاله سيدنا عمر بن عبد العزيز ، فقد قال في رسالة وجهها إلى قائد جيشه :

« واؤمره أن لا يكون من شيء من عدوه ، أشد احتراساً منه لنفسه ومن معه من معاصي الله ، فإن الذنوب أخوف عندي على الناس من مكيدة عدوهم ( إلى أن قال ) ولا تكونوا لعداوة أحد من الناس أحذر منكم لذنوبكم »[٢] .

ولكن ما هي النظرة التي ينظر بها المسلمون أنفسهم إلى أنفسهم ، اسمحوا لي أن أذكر لكم تجربتي الخاصة ، لما وفقني الله سبحانه وتعالى لتأليف كتاب « ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين » الذي نوه به المعرف الكريم ، استغرب الناس الاسم ومجت آذانهم وعقولهم كيف يخسر العالم بانحطاط المسلمين ، هل المسلمون في مكانة يخسر العالم بانحطاطهم شيئاً ويربح برقيهم شيئاً ، والله إنهم أحط مكاناً ، وأقل شأناً من هذا ، حتى اقترح لي بعض الكتاب ، لو أن المؤلف ـ جزاه الله خيراً ـ غير هذا الاسم لكان أحسن له ، هنالك عرفت النظرة الخسيسة التي ينظر بها المسلمون أنفسهم إلى أنفسهم ، ومدى مركب النقص الذي ابتلوا به حتى المؤرخون المسلمون ، حتى الكتاب الإسلاميون ، إنهم اعتادوا أن ينظروا إلى المسلمين من زاوية التاريخ ، من زاوية الأحداث ، من زاوية الشعوب والأمم ، من زاوية التقلبات ، ما كانوا ينظرون إلى العالم والتاريخ من زاوية المسلمين ، ما كانوا

---

(١) وقد خاض المسلمون فعلاً نهر دجلة بخيلهم وأرجلهم فساروا فيها كأنما يسيرون على وجه الأرض ، وجعلوا يتحدثون على وجه الماء كما يتحدثون على وجه الأرض ولم يعدم المسلمين شيء من أمتعتهم غير قدح خشب لرجل فرده الموج إليه ( البداية والنهاية ج٧ ص٦٤ ـ ٦٥ ) .

(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم .

يعتقدون أبداً ، أن المسلمين عامل من عوامل التاريخ ، هم يستطيعون أن يتأثروا ، ولكن لا يستطيعون أن يؤثروا ، وإذا استخدمنا لغة الألعاب الرياضية ـ ولو مؤقتاً ـ قلنا إن المسلمين ليسوا صولجان اللاعب ، إنما « هم الكرة المستهدفة » وعندنا مثل في بلادنا يتذوقه إخواننا الباكستانيون ، والهنود ، إذا أردنا أن نصور إنساناً ضعيفاً ، أو مجتمعاً ، أو شعباً ضعيفاً ، نقول إنه كبطيخة سواء وقعت عليها السكين ، أو وقعت هي على السكين ، على كل حال فالخطر على البطيخة ، هي تتمزق ، وهي تتفتت وتتناثر .

وهذه هي نظرة المسلمين مع الأسف لا تزال سائدة على كثير من الأوساط العربية والإسلامية ، ننظر إلى المسلمين كأنهم ما خلقوا إلَّا ليخضعوا للحوادث ، ويتأثروا مما يحدث حولهم ، أما أنهم يستطيعون أن يؤثروا على المسيرة الإنسانية ، وعلى الاتجاه العالمي ، وعلى القيم والمثل فلا ، المسلمون قطيع من قطعان الغنم الكثيرة ، تساق بالعصا ، ما كانوا يتصورون ، وإذا قيل لهم لا يصدقون ، أن العالم قد خسر شيئاً بانحطاط المسلمين وتخليهم عن قيادة البشرية ، وبتقصيرهم في حق الله ، وفي حق الإنسانية ، فعرفت أن الخطأ من الكتَّاب والمؤرخين ، لأنهم إنما صوروا المسلمين كشعب من الشعوب الكثيرة المعدودة بالمئات ، شعب يعيش تحت رحمة الوقائع والتقلبات ، وتحت رحمة الحكومات والحضارات ، والفلسفات والمعسكرات ، إنهم ما عرفوا القوة الكامنة في الرسالة الإسلامية التي يحملها المسلمون ، حقيقة يجب علينا أن نأخذها بعين الاعتبار ، وهي الحقيقة الخالدة المسيطرة على جميع الاعتبارات السياسية والاقتصادية ، إن المسلمين أصحاب رسالة ، إن المسلمين أصحاب عقيدة ، إن المسلمين جند الله ، والله يقول : ﴿ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴾ [ الصافات : ١٧٢ ] ﴿ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ [ الصافات : ١٧٣ ] ﴿ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ﴾ [ المجادلة : ٢١ ] ﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [ آل عمران : ١٣٩ ] .

بهذه النظرة يجب علينا يا إخواني ، يا أبنائي الأعزاء ! أن ننظر إلى أنفسنا ، أنتم خلاصة العالم الإسلامي ، أنتم رواد العالم الإسلامي وطلائعه ،

ساقتكم بلادكم وأسركم إلى هذه المدينة الطيبة لتستمدوا هذه الثقة التي لا تجدونها إلَّا في هذه المدينة ، مدينة الرسول الأمين ، أو في مكة البلد الأمين ، هنا مصدر الثقة ، هنا مصدر الاعتزاز ، هنا مصدر الإيمان ، هنا مصدر الاعتماد على الله ، هنا مصدر تعاليم التجرد من الأنانية ، التجرد من الترف المدمِّر للأمم والحضارات ، التجرد من البطر الذي حذر الله منه فقال : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾ [ القصص : ٥٨ ] .

إن المعسكرات المبدئية التي يحسب لها الحساب الكبير كلها كنسج العنكبوت ، إذا قام فارس من فرسان الإسلام المؤمن الواعي ، الداعية المخلص ، المؤيد من الله يستطيع أن يأخذ عصا ، ويطوي بها هذا النسيج كله ، هل يقوم معسكر على غير عقيدة ، على غير إيمان ، على غير خشية الله ، هل يقوم معسكر على غير رحمة للإنسانية ، ورسالة عادلة نافعة ، رحيمة بالإنسانية ، هذه معسكرات زائفة ، إنها اكتسبت القيمة ، لأنكم أنتم فقدتم القيمة ، فاستعيدوا هذه القيمة ، تفقد هذه المعسكرات قيمتها وقوتها .

إن الوضع الديني ، والخلقي والاجتماعي والسياسي المزري الذي يعيشه العالم اليوم ، بل الانهيار الإنساني ، والاحتضار المعنوي الذي يعانيه مجتمعنا المعاصر كله تفسير لقوله تعالى :

﴿ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾ [ الأنفال : ٧٣ ] . لم نؤد واجبنا ، ولم نقم بدورنا في تكويننا ، وفي تكوين المجتمع الإسلامي المؤمن القوي النقي ، فكانت فتنة في الأرض وفساد كبير ، وفاقد الشيء لا يعطيه ، والمريض لا يعالج المريض ، والمجتمع الذي فقد حصانته الخلقية ، وقوته الباطنية ، وتماسكه الخلقي ، وتمرده على الشهوات والسفالات ، وصموده أمام المغريات النفسية ، والمالية والسياسية ، ولم يحمل دعوة يعتز بها ، ويتحمس في القيام بها ونشرها لا يستطيع أن يحافظ على كيانه وشخصيته حتى بقائه واستمراره ، فضلاً عن عملية إنقاذ العالم المعاصر ، والمجتمع الحاضر ، من التدهور والانهيار ، وما يرغب فيه ويسعى إليه من الانتحار .

وندعو الله تعالى أن يعيد إلينا إيماننا برسالتنا ، ثم بدورنا ومركزنا ، ويعيدنا إلى مكاننا الطبيعي والشرعي في خارطة العالم ، وفي إطار الإنسانية .

* * *

# مطالبة القرآن
## الانقياد التام والاستسلام الكامل[١]

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٢٠٨ فَإِن زَلَلۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡكُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴾ [ البقرة : ٢٠٨ ـ ٢٠٩ ] .

إخواني وأصدقائي ! تلوت عليكم آية من القرآن الكريم تشتمل على إنذار وتحذير ، هل يتصور أحد أن يحارب الله ويعاديه ، فما معنى هذا الإنذار والتحذير ، فهل يقدر عبد من عباد الله على أن يحارب الله ؟ ولكن القرآن الكريم قد استخدم كلمة تتضمن هذا المعنى ، وهو ما تقشعر منه الجلود ، وتتصكك لها الآذان ، يقول الله ـ عز وجل ـ وهو خالق الكون ، ومالك الملك والقادر على الإطلاق ، والذي أنعم فأجزل على عباده : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ ﴾ فإنه لا قبل لكم أن تحاربوه وتبارزوه وتعادوه .

يتبادر إلى الذهن في بادىء ذي بدء أن تستخدم كلمة « الإسلام » في موضع السلم ، وهو « ادخلوا في الإسلام كافة » ولكنه أمرهم بالدخول في « السلم » كافة ، وهي أن تكون المعاملة مع الله معاملة استسلام وانقياد ، وخضوع كامل ، بجميع معاني هذه الكلمات ومقتضياتها ومضموناتها ، العقائد ، والعبادات ، والسلوك الفردي والاجتماعي ، وجوانب الحياة كلها ، موافقة بما جاء بها سيد المرسلين ﷺ ، من عند الله رب العالمين ، ومطابقة

---

(١) نشر هذا المقال في مجلة « البعث الإسلامي » في عددها الثاني ، المجلد الخامس والثلاثون عام ١٩٩٠م .

للأوامر الإلهية والأحكام الربانية ، ولا تكون العلاقات مبنية على الموالاة لأعداء الله والخضوع لأوامرهم .

إن كلمة الإسلام في اللغة العربية مشتقة من « السلم » ومعنى الإسلام هو الانقياد ، والاستسلام ، ( والتنازل عن كل شيء في حق الله تعالى وأوامره وتعاليمه عن الأهواء ، والشهوات ، وعن المصالح والأغراض ، وعن الشعور بالتمييز بين المنافع والمضار ، والاطراح على عتبة الأحكام الربانية بالانقياد التام والاستسلام الكامل .

أما معنى السلم ، فهو الصلح ، يقول الله عز وجل في موضع آخر : ﴿ ۞ وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا ﴾ [ الأنفال : ٦١ ] وجاء « أسالم من سالم وأحارب من حارب » وقد استخدم القرآن الكريم في مواضع مختلفة كلمات تعبر عن الرعب والجلال والهيبة تنذر وتزلزل ، يقول عن الربا :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ [ البقرة : ٢٧٨ ـ ٢٧٩ ] .

وجاء في الحديث القدسي : « من آذى لي ولياً فقد آذنته بالحرب » فإنه من المستبعد والمستحيل أن يكون هناك شقي يدور بخلده أن يحارب الله ويعاديه ، ولكن دراسة نفس الإنسان وتجارب الحياة الإنسانية والأعمال التي تصدر نتيجة لإغفال التعاليم النبوية ، تدل على أن هناك إمكانية لمثل هذه المعاداة ، فيمكن أن يدعي الرجل الإسلام ، ويعترف بعبديته ، ثم يعادي ربه في بعض أموره ويخالفه في بعض أحكامه ، فمثلاً يقيم عبد من عباد الله علاقة العبودية مع الله ـ ولكن بشيء من التحفظ ، ويشرك رضاه وهواه ـ في هذه العلاقة ، أن يشهد أن الله حق ، وأن الحساب حق ، والحشر حق ، ولكنه يعيش باستقلال وحرية في الحياة الاجتماعية والأسرية ، وفي الثقافة والمبادىء العامة ، وفي العلاقات مع الأقارب والأصدقاء ، والمعاملات التجارية ، فلا يقبل الله هذه العلاقة المتحفظة المشروطة ، فكأن هذه الآية نزلت لإيضاح تلك النكتة ، وفيها عبرة وجرس إنذار لأصحاب مثل هذه العلاقة بالله ، إن الله يقول : ﴿ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً ﴾ فإن المشاطرة في هذا المجال غير مقبولة

أن يقول القائل : أقبل هذا ولا أقبل ذاك ، أستسلم لهذا ولا أستسلم لذاك ، إن الداخل في المسجد يدخل المسجد بكل جسمه وبكل أعضائه ، فإذا قال القائل : إنه يضع قدميه داخل المسجد ، وأما جسمه فيكون خارج المسجد ، أو أنه يطرق رأسه في داخله ويبقى جسمه في خارجه ، أو قال : إذا أمرتني بالقيام فعلى الرأس والعين ، ولكن لا يمكن لي الركوع والسجود ، فإني أرى فيه إهانة للإنسانية وأشعر بالخيبة والفشل ، وتنازلاً عن الاعتزاز والثقة بالنفس ، فإن هذه العبادة لا تستحق أن تسمى بالصلاة ، بل هي كلمة فيها كفر وجحود ، وطريقة فيها طغيان وبغي .

عفواً لو توقعتم أني سأتلو عليكم البشائر ، أو أقص عليكم حكايات رائعة للسلف ، أو أبين أمامكم أموراً تطمئنون إليها وترتاحون بها فإنه من مواضع الضعف ، إننا نحن المسلمين تعودنا الطمأنينة والتزكية لتلك الحياة التي نقضيها في هذه الأرض المقدسة نريد أن نسمع كلمات التهنئة والتقدير والغبطة ، وإن آذاننا تصغي إلى أصوات الترحيب من كل جانب ، نريد أن نسمع يا مرحباً ! يا مرحباً ، يا للسعادة !! ندعو الله أن يرزق لكم الدوام والهناء في هذه الأرض المباركة ، فأنتم قد حالفتكم السعادة ولا شك في هذه الأرض .

وقد تمنى آلاف من الأولياء المقبولين أن يصلوا إلى هذه الأرض المقدسة ويتشرفوا بزيارتها .

إن الإمام الهمام المجاهد الكبير الذي اعتنق على يديه أربعون ألف شخص الإسلام ، وبايع على يديه المباركتين ثلاثة ملايين شخص مباشرة ، وعاهدوا على اتباع الشريعة ، ومجانبة الكفر والشرك والبدع ، وعلى الجهاد في سبيل الله ، وأما الذين بايعوا على يدي تلاميذه وخلفائه ، فلا يعدُّ عددهم ولا يحصى ، ولا يعلمهم إلَّا الله ، ولم يكن له نظير في الدول الأخرى في التأثير والكمالات العملية والعلمية ، وقل وصل آلاف مؤلفة من العلماء وعامة الناس إلى المراتب العلية والمقامات الرفيعة على يديه ، خلال رحلته الأولى للحج والزيارة ـ وكانت الرحلة في تلك الأيام بالسفن الشراعية ـ خاطبه أحد رفقائه ،

بقوله هذه جزيرة العرب ، هذه هي النخلة تبدو من بعيد ، وأومأ إليها ـ لا يعرف أحد أي موضع كان ذلك الموضع من جزيرة العرب ، وكم كان بعيداً عن تلك البقعة المباركة التي أصبحت جزيرة العرب من أجلها محببة لدى النفوس وأثيرة في القلوب ـ فعيل صبره بعد سماع هذه الكلمات ، وخر لله ساجداً ، وركع ركعتين ، شكراً لله تعالى وكان على الوضوء ، ثم قال : الشكر لله الواحد الأحد الصمد الذي أكرمنا بزيارة هذه الأرض المقدسة ، وقد انتقل إلى رحمة الله كثير من العباد والزهاد وبقيت الأماني في قلوبهم لزيارة هذه الأرض المقدسة كما كانت ، ولم تتح لهم فرصة لوضع أهداب العيون على أراضيها الطاهرة وغسلها بدموعهم الحارة ـ فإنكم تقولون لو بشرتنا ورحبت بنا ودعوت لنا ليطول بنا القيام في هذه الأرض المقدسة لكان أفضل من أن تنذرنا وتخوفنا وتتلو علينا مثل هذه الآية التي يخاطب الله عز وجل بها المؤمنين بأن أمرنا ليس كأمر السلاطين والملوك في الدنيا الذين يقتنعون بشيء من المكوس التي تؤدى إليهم ، وبشيء من التوقير والتبجيل الذي يسدى إليهم من رعاياهم ، وبشيء من الخضوع الذي يكون لأبهتهم الملوكية ، ولكن الله الغني القوي العزيز ، خلق هذا الكون ، وقدر المقادير والآجال ، وبيده الأمر كله من إنشاء المرض والصحة وإيصال النفع والضرر ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ ﴾ [ آل عمران : ٢٦ ] .

والتاريخ يشهد بأن الحكومات التي طبق صيتها الخافقين والتي يتفاءل بأربابها الذين بهم ينقلب التراب تبراً ، وفي ظلالهم ينقلب الشؤم تفاؤلاً وسعداً ، غربت شموسها طرفة عين وجعل الله عز وجل هذه الشموس آفلة لم تطلع بعد على مر الدهور والأعصار ، إن تاريخ روما الكبرى يشهد كما جاء في كتاب جبون ( Gibbon ) « زوال وسقوط روما » ( Decline And Fall of The Roman Empire ) كيف كانت هذه الدولة ، وكيف كانت عظمتها وهيبتها على النفوس ، سقطت كما تسقط أوراق الخريف .

اقلبوا صفحات تاريخ الدولة الساسانية كيف كان عهد مجدها ، وتقلب ملوكها في البلاد ، ﴿ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ﴾ [ سبأ : ١٩ ] .

يقول الله تعالى إنه لا يجدر الاكتفاء بالصلاة والسجدة لله وبذكر اسمه تعالى فقط حتى تظن أن الله لا يسأل عن الأمور الأخرى شيئاً فإنه يتحتم عليك أن تدخل في العبودية الكاملة لي من غير استثناء ولا يقبل أن تقول : إنه لي وهذا لك ، إنما لي كل شيء ، إن مالك وعرضك ، صحتك وجسمك ، رأسك وبدنك ، إيمانك وإسلامك ، وفاءك وفداءك ، كله من حقوقنا فإنه لا طاعة لأحد إلا لله وبما شاء الله .

تتضمن هذه الآية التي تلوتها أمامكم إنذاراً شديداً وتحذيراً عنيفاً ، ولا أدري هل تتاح لي فرصة أخرى للقاء بكم فأبين ما يلقي الله في قلبي عن هذه الآية ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ ﴾ فإن كلمة « كافة » كلمة شاملة جامعة ، أي استسلموا لأوامره كلها ، برمتها ، واستسلموا أنتم جميعاً كذلك له ، فلا يمكن أن ينقاد أحدكم ولا ينقاد الآخرون ، أو أن يطيع أحدكم في بعض الأمور ويعصيه في أمور أخرى ، بل كلكم لنا ، وكل مالكم لنا فأطيعوني إطاعة كاملة ، فتكون عقائدكم موافقة بما جاء به الله ورسوله موافقة تامة بدون أي انحراف ، أو عدول ، فليس لأحد الأمر في هذا الكون ، ألا له الخلق والأمر ، واعلموا أنه بيده الخلق والأمر ، والصحة والمرض ، وبيده الرزق ، والقوة ، وهو المعز ، وهو المذل ، وهو الرزاق ، وهو الذي يؤتي الملك والقوة ، والغنى ، بيده الخير كله ، وهو على كل شيء قدير ، لا شريك له في خلقه وأمره ، وفي ملكه ، لا نبي ولا ولي ، وهو القادر على الإطلاق ، ولا يجرأ على الشفاعة عنده أحد إلا بإذنه ، وكذلك يجب أن تطيعوا الرسول ﷺ طاعة كاملة ، فالذين يطيعونه في أمور ، ويعصونه في أمور ، فإنهم ليسوا من المطيعين للرسول في نظر القرآن ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٖ وَلَا مُؤۡمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمۡرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُ مِنۡ أَمۡرِهِمۡۗ ﴾ [ الأحزاب : ٣٦ ] . فإذا عرف بسند صحيح ، وطريقة صحيحة معتمدة أنه قول رسول الله وفيه رضاه فلا خيار لأحد فيه ، ولا حرية ، ولا تردد فيه ، إلَّا أن يطاع الرسول ﷺ ويتبع قوله ، ويؤخذ به ، ويعض عليه بالنواجذ .

اسمحوا لي ، ودعوني أتحدث بصراحة فإني كطائر وقع على شجرة

طور ، ثم طار ، فسأطير غداً إن شاء الله تعالى ، وإني لم آتكم متجسساً ولا منقباً عن المساوىء للمجتمع هنا ، ولكني لست بعيداً عن تيار الحياة ، وإنما أطلع على ظروف المسلمين وأحوالهم هنا ، وأتابع التيار الذي يجرف هنا ، ولقد شاهدت أن العقائد سليمة صحيحة ، ووجدت مواظبة على الصلوات والفرائض ، ولكن المجتمع مع الأسف الشديد يميل إلى الفساد ، وأصبحت الحياة المنزلية معاكسة للإسلام ، كل بيت مؤثث بغاية من الإسراف والتبذير ، والترف والبذخ ، وبالأمتعة المسلية الملهية كالفيديو الذي أصبح الشغل الشاغل وحديث المحافل ، إننا نحن المسلمين مؤمنون في المساجد لا شك ، ولا يستطيع أحد أن يقول شيئاً عن المساجد ، وهي بيوت الله .

ولكن يا إخواني ! إن المسلم لا يكون فقط مسلماً في المسجد ، إن المسلم يعيش مسلماً في بقاع المعمورة وأرجائها في برِّها وبحرها ، وفي قمرها إذا وصل ـ وقد وصل إليه بعلم الله وتيسيره للإنسان ـ هو عبد من عباد الله ، وقد أجمع العلماء على أنه لا يسقط التكليف عن أحد ، ولا عن الأنبياء والمرسلين ، والتكليف معناه اتباع الأمور الشرعية ورعاية حدودها ، وجاء في الآية الكريمة ﴿ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴾ [ الحجر : ٩٩ ] وقد أجمع المفسرون على أن اليقين هو الموت ، فواظب الرسول ﷺ وداوم على الصلوات إلى حين وفاته ، وكان لا يزال يسأل ـ ﷺ ـ : هل صلى الناس ؟ قيل : يا رسول الله ! هم ينتظرونك ، فقال : ضعوا لي ماءً في المخضب ، ففعلوا ، فاغتسل ثم ذهب لينوء فأغمي عليه ، ثم أفاق ، فقال : أصلى الناس ؟ قالوا : لا ، هم ينتظرونك يا رسول الله ! والناس عكوف في المسجد ينتظرون رسول الله ﷺ لصلاة العشاء ، فأرسل رسول الله ﷺ إلى أبي بكر بأن يصلي بالناس ، ثم صلى الرسول ﷺ نفسه ، وقد ثبت سؤاله في هذا الوقت ووصيته بالصلاة ، وبالعبيد ، وبالأنصار ، ثم كانت آخر كلمة تكلم بها رسول الله ﷺ : « اللهم الرفيق الأعلى » .

وقد بلغ بنا نحن المسلمين الحال إلى أن العقائد إذا كانت صحيحة وسليمة كانت العبادات ناقصة سقيمة ، وإذا سلمت العقائد وصلحت العبادات

كلتاهما ، كانت في المعاملات خنادق كبيرة ، ليست ثلمة واحدة ولا خلل بل خنادق وفجوات وخلجان هائلة .

قلت خلال محاضرة لي في الشارقة : أنتم أعرف بهذا الخليج الذي تعيشون على ساحله بالنسبة إلى الآخرين ، ولكنكم لا تعرفون إلا نوعاً واحداً من الخلجان ، وهو هذا الخليج الذي يفصل جزيرة العرب عن إيران وبينهما ماء ، لكن هناك خليجاً آخر أكثر خطراً وأطول مدى ، وأشد عمقاً من خليجكم وهو الخليج الذي وقع بين الإسلام والمسلمين ، وأن هناك خلجاناً وفجوات بين الإسلام والمسلمين في العقائد والعبادات ، فكم من المسلمين الذين ينطقون بالشهادتين ، ولكن لا علاقة لهم بالصلوات ، ومنهم من إذا صلحت عقائدهم وعبادتهم ، ولكنهم يخرجون المعاملات ، والأخلاق والمثل عن حياتهم ، يكذبون ، ويخونون ، ينقصون المكيال والميزان ، يغشون ويحلفون الزور لترويج متاجرهم وسوقهم ، ويغتصبون حقوق الآخرين ، فلا يأخذهم الحياء ، ولا الغيرة ؟ لأنهم لا يعدونها من الدين .

وكم منهم من لا يراعي حقوق الوالدين ، ويدوس حقوق الأهل والعيال ، ولا علاقة لهم بالجيران ، فلا صدق في قولهم ولا حلاوة في لسانهم ، يشكوهم من يسكن حولهم من الجيران ، أو الأقل لا يشكرهم لأجل صنيعهم .

وكم منهم من لا يفرق في السياسة والمعاملات بين عدو الله وخليله ، ولا يميز بين الخير والشر ، ولا بين الصالح والفاسد ، ولا بين المتدين والملحد ، وقد قال الله عز وجل : ﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ ﴾ [ هود : ١١٣ ] أي : لا تميلوا إليهم ، وقد استخدم القرآن لفظ الركون وهو أدنى الميل ، فضلاً عن الموالاة والمناصرة ، فلا تركنوا ولا تميلوا إلى الذين جعلوا الظلم شعارهم ، وتخطَّوا حدودهم وجاوزوا خط الاعتدال ، وداسوا كرامة الحقوق ، وجعلوا الدنيا أكبر همهم ، ومبلغ علمهم ، وتجردت قلوبهم من خشية الله ، وهم أصبحوا عبيد المال والثروة ، عبيد الدرهم والدينار عبيد القطيفة والخميصة ، عبيد الجاه والمنصب ولا يهمهم إلا شأنهم ، إن كلمة

« ظلموا » تشمل هذه الأمور كلها ، ولعل هذه الآية تكون جديدة في حق بعض المسلمين ، إنها لم تنهانا عن المبايعة على يديهم والخضوع أمامهم ، بل نهتنا عن الركون والميل القليل إلى هؤلاء الذين جعلوا الظلم سمتهم وشعارهم .

فكم من المسلمين من يعتبر هذه الأمور جزءاً من الدين ؟ إنهم يقولون : إن هذه الأمور من الحياة ، ولا علاقة لها بالدين ، فهات ما عندك من نصائح دينية ، ولو تكرمت ببيان ما هو الأجر والثواب في قراءة هذه الأوراد أو تلك وهذه الأدعية ، لكنت جديراً بها ، وأطعناك فيها أما مظاهر الحياة والسلوك فنحن أحرار فيها ، نفعل فيها ما نشاء ، لا نفكر بما يلحق الضرر بنا أو بديننا إذا قمنا بموالاته ، ولا نكترث بما يأتي به التعسير في سبيل الدين أو يحدث نقص فيه إذا قمنا بمعاداته ، فإننا نزعم أنه لا علاقة لهذه الأمور بالدين .

إخواني ! نحن عباد الله في الأمور كلها ، فينبغي لنا أن نكون ممتثلين للأوامر الإلهية ومتمسكين بها كلياً ، وكذلك يجب أن نكون مهتمين بإخواننا المسلمين ، وأن ندعو لعلو الإسلام وغلبته في العالم وننصره بفكرنا وجهدنا ، فلا يجدر بنا أن نكون من العباد الزاهدين ومن المتدينين المتشرعين من غير الاهتمام بأمر الإسلام والمسلمين ، فلا يهمنا أمر المسلمين أين يذهبون ، وأين يروحون ، وكيف يمتحن الإسلام ، وما هي القضايا التي يعاني منها المسلمون ، وما هي الدول التي أصيب فيها الإسلام بالانحطاط ؟ وقد جاء في الحديث : « من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم » ، « مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » .

ولقد وسع الله الرزق وأنعم على هذه البلاد ، بارك الله فيها فلا أغتبط فيها ، ولكن يجب عليكم أن يهمكم أمر المؤسسات في بلدانكم التي تنحدرون منها ، وأمر الأمة الإسلامية التي تتوجع لأجله ، إنكم تقدرون على أن تحسوا تلك الحرارة التي اشتعلت في هذه البلاد ـ بما فيها باكستان والهند ـ وأنتم أبناؤها وأفلاذ أكبادها ، ولو رحل إليها عبد من عباد الله الذي رزق فهماً سليماً ، وإدراكاً صحيحاً ليحس تلك الحرارة في ذلك الجو الذي قام فيها

الدعاة إلى الله كالشيخ معين الدين الحبشيّ ، والشيخ قطب الدين بختيار الكاكي ، والشيخ عبد الباقي بأنفاسهم الطيبة ، ويشعر بندى دموعهم الطاهرة في تلك الأرض وإن كانت في داخلها ، وأن شجرة الإسلام التي نراها قائمة على قدم وساق ، تورق وتثمر رغم المراحل الصعبة والعقبات التي اجتازتها ، ترجع إلى هؤلاء الدعاة المصلحين ، ونحمد الله عز وجل على بقائها وازدهارها ، لا بد أن توجهوا اهتمامكم إلى قضايا بلادكم الإسلامية ومؤسساتها الإسلامية ، وأن تفكروا في مسألة الجيل الناهض وبقائه على إسلامه ، وإذا دبرتم خطة لصيانة أولادكم وهيأتم لهم الجو اللائق فنهنئكم ونرحب بكم ، ولكن لا ينبغي لأحد أن ينسى مولده ووطنه وأقاربه وذويه .

نشكر الله عز وجل وهو الرزاق ذو القوة المتين يرزقكم هنا ويرزقهم هناك ، وهو قادر على أن يرزقهم أكثر منكم ، وقد هيأ لكثير من سكان تلك البلاد أضعافاً مضاعفة ، فلا ألفت أنظاركم إلى منظمة أو مؤسسة معينة للدعم ، ولكن يجب عليكم أن توجهوا اهتمامكم إلى تلك الملة الإسلامية التي تعيش في أوطانكم وإلى إيمان النشء الجديد ، وأن تهتموا بما يحيط بها من تحديات ، ويخطط لها من برامج يشاهدونها على الشاشة ، فإن مسلسلات رامائن استمرت شهوراً ، وقد أخبرني شاهد عيان أنه رأى في مدرسة أن المصاحف بقيت مفتوحة وهي موضوعة على كراسيها ، والطلبة غائبون ، وعندما سئل أساتذتهم : أين ذهب الطلبة ؟ قالوا : اليوم يوم الأحد وهو موعد الرواية المسلسلة لرامائن ، هذه قصة ولاية « بيهار » التي أنجبت العلاَّمة محب الله البهاري[1] الذي كان رأس العلماء ، وأستاذ العلماء ، وإمام العلماء ، وكم أنجبت هذه الولاية من العلماء الربانيين .

لا بد أن يكون اهتمامكم ببلادكم اهتماماً فكرياً ، لا أقول أن يكون هذا

(١) مؤلف كتاب « مسلم الثبوت » في أصول الفقه ، و« سلم العلوم » في المنطق ، وقد عكف علماء الهند على تدريسهما وشرحهما ، واعتنى علماء الأزهر بكتاب « مسلم الثبوت » تدريساً واستفادةً .

الاهتمام اهتماماً اقتصادياً فحسب ، بل يكون عقلياً ، وتكون قلوبكم متألمة على الأحوال والظروف ، هل يبقى النشء الجديد على الإسلام أم لا ؟ إن هذه الأرض قد أنجبت مجددين للدين لم تنتفع بهم الهند فحسب ، بل نفع الله بهم العالم ، أستطيع أن أقول في ضوء التاريخ أن الإمام الشيخ أحمد بن عبد الأحد السرهندي ، المشهور بمجدد الألف الثاني بلغ نفعه إلى تركية ، ولم يزل تلاميذ تلاميذه موجودين فيها ، سافر الشيخ خالد الرومي إلى دهلي ـ وقد قيد قصته ـ فيقول : إني سألت القافلة التي جاءت من الهند حينما كنت في مكة المكرمة أيام الحج ، عن الشيخ الكبير غلام علي النقشبندي ، فأبدوا عدم معرفتهم فقضيت العجب منهم على أنهم لا يعرفون مثل هذا العالم الرباني الجليل ، فسافر إلى دهلي ، وأقام عنده مدة من الزمن ، وقرض قصائد مدحية له في العربية والفارسية ، ورجع من الهند بعد إكمال مقصده وبغيته ، فاستقبلته بلاد العراق على بكرة أبيها ، وتقاطر العلماء عليه كتقاطر الفراش والهوام على النور للحصول على تلك السعادة التي أتى بها من الديار الهندية ، والاستنارة بذلك النور الذي اكتسبه فيها ، وساقه إلى بلاده ، هذه هي بلادكم فلا تغضُّوا البصر عنها .

إخواني ! إن من أولى الأوليات أن تكون ثقتكم قوية بأن هذا الدين كامل عقيدة فاستمسكوا بها ، لأن الانحراف عنها كالارتداد عن الدين وواظبوا على تلك الفرائض المعينة ، لأنه لا تكون الشقاوة أكثر منها من أن تقيموا هناك من غير أداء الصلوات والمواظبة عليها ويتحتم عليكم كذلك أن يكون مجتمعكم إسلامياً حتى لا يكون من المعقول أن تقيموا في هذه الأرض المقدسة ، ويجري التلفزيون في بيوتكم كل وقت يراه أولادكم في أوقات الصلوات ، يقول الله تعالى : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ [ لقمان : ٦ ] يبدو أن القرآن ترك هذه الأسماء الفيديو ، والتلفزيون لأنه في لسان عربي مبين لا يمكن الإتيان بكلمة إنجليزية ، لكن من الإعجاز القرآني العجيب أن الكتاب الذي نزل قبل أربعة عشر قرناً أشار إلى ما ينطبق على الجهاز المستعمل اليوم ، ولو قلت : إنه يعني الفيديو ، والتلفزيون لما أخطأت ، لأنه

قال فيه ﴿ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ ﴾ فإن المتذوقين باللغة العربية وبلاغتها في كل بلد يتذوقون بـ« لهو الحديث » إن الذوق الأدبي يسوق إلى آفاقها وأبعادها ، فإنه يصعب علي أن أترجم هذه الكلمة إلى اللغة الأردية بالضبط ، رغم كوني من أبنائها وأصحابها ، ما هي وظيفة الفيديو ، والتلفزيون ، وما يشغلهما ؟ إذا كان أحد يعجبه اللعب يشتريه ، فهل لا تدخل فيه هذه الأجهزة ، الفيديو ، والتلفزيون ، التي قيل لها « لهو الحديث » ، ولو ادعيت أن القرن الأول والثاني إلى السابع والثامن ، حتى لو قلت إن ذهن أكبر عالم في العصر الماضي لم ينتقل إليه لما أخطأت .

وهذا من الإعجاز القرآني ، ما هو « لهو الحديث » ؟ هذه المسلسلات المرئية والتصاوير الناطقة ، والأصوات المسجلة كلها من « لهو الحديث » هل كان في استطاعة أحد أن يتصور قبل أربعة عشر قرناً مثل هذا الجهاز حينما لم يحلم به أحد فضلاً عن اختراعه وإبداعه ، ولكن كتاب الله قد قال إن هناك رجالاً يشترون « لهو الحديث » وهو اللهو الذي لا يحصل للإنسان ولا يملكه إلا بالشراء وبذل النقود .

إخواني ! قوا أنفسكم وأهليكم منها ، وصونوا بيوتكم على الأقل ، يجب أن تكونوا مسلمين كاملين في الإسلام عقيدة وسلوكاً وإذا ما بلغتم الكمال هنا ، فمن أين يأتي إليكم الكمال ؟ وأقول بصراحة بعد طلب العفو منكم أنكم إذا رجعتم إلى الهند في إجازة أو إلى أوطانكم شهد غير المسلمين على أن الذين جاؤوا هم قادمون من بيئة صالحة مباركة ، لأن سيماهم في وجوههم من النور ، وحلاوتهم في نطقهم من العسل ، والاحترام والحرمة في عيونهم من الحياء والحشمة ؛ لأنهم جاؤوا من الجزيرة العربية ، لا أن يعرفكم هؤلاء ويميزوكم من غيركم أنكم جئتم بالعفش الثمين الزائد ، والكماليات والتحف فيتبعوكم لاختطافها منكم ، لأنها ذات قيمة وتجذب الأنظار ، فإذاً لا بد أن يعرفكم هؤلاء بسيما وجوهكم وآثار سجودكم ، ونور جباهكم ، وحلاوة نطقكم ، ونصحكم وأناتكم لا من ملابسكم وشنطكم ، ولا بد أن تغير أجواء بيوتكم ويتأثر بكم أهلكم وعيالكم حتى تجري فيها تلك السنن النبوية التي لم

تكن باقية فيها وأن تتلى فيها الآيات القرآنية التي لم تكن البيوت متعوِّدة عليها حتى يقول هؤلاء : إن أولئك جاؤوا من مكة ، ومن المدينة ، ومن الأرض المقدسة فلا تشتغلوا بالراديو ، والتلفزيون ، لا أن يقول هؤلاء إن رجالاً جاؤوا من مكة والمدينة ومن عادتهم مشاهدة التلفزيون ، فافتحوا أمامهم الفيديو ، والتلفزيون ، فإنه لا يليق بكم ولا بشأن هذه الأماكن المقدسة ، بل هو انتهاك لحرمتها ، وحط من شأنها ، ونيل من كرامتها ، فإنه أحرى بكم أن تزيلوا هذه المنكرات الشاسعة حتى يستحيوا منكم ، فلا يشتغلوا بهذه الأمور .

وحيثما رحلتم ، فكما أن النور يبدد الظلمات وتتقشع السحب الكثيفة به ، تظهر صوركم كالأضواء النيرة في بحر الظلمات ، لا بد أن تتغير حياتكم قبل الرحيل من هذه الأماكن المقدسة .

فهل عرفتم كم من الناس دخل في الإسلام بعد صلح الحديبية في أربع سنوات ما بين فتح مكة وحجة الوداع ، يقول الإمام الزهري : إنه لم يسلم في مكة المكرمة في ثلاث عشرة سنة وفي المدينة المنورة في عشر سنوات مثلما أسلم في فترة صلح الحديبية ، فيبين سبب هذا الإسلام أن الباب فتح عليهم بعد صلح الحديبية فجاء رجال من قريش من مكة إلى أقاربهم في المدينة المنورة فشاهد أهلهم لياليهم فتحيروا وقالوا إنهم في عالم غير ذلك العالم ، إنهم يستيقظون مبكرين ومعهم صبيانهم لا يعرفون اللغو فضلاً عن الكذب ، لا ينطقون إلَّا بذكر الله ورسوله ، إنهم يطعمون أضيافهم إيثاراً وينومون أطفالهم جائعين ، فتسارعوا إلى الإسلام لأنهم شاهدوا صورة الإسلام النيرة بأم أعينهم .

إخواني ! يجب أن ينتشر بكم الإسلام في أوطانكم وإذا قمتم لهم بالمراسلات الخطابية وبالعلاقات الأخرى أو قابلتموهم بالذهاب إليهم ، فكان وقعكم عليهم طيباً ، يظنوا أنكم جئتم من تلك البلاد ببركات ورحمات ، ورافقتكم نفحاتها الطيبة المباركة .

لا أريد أن أطيل عليكم فينبغي أن ترتسم هذه الآية الكريمة على ألواح قلوبكم : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدْخُلُواْ فِي ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ

ٱلشَّيْطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٠٨﴾ فَإِن زَلَلْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [ البقرة : ٢٠٨ ـ ٢٠٩ ] إن القرآن الكريم أتى بلفظ « خطوات » جمعاً ، ما يشير إلى كثرتها ، فتشمل الأمور الاعتقادية ، والتعبدية ، والأخلاقية ، والثقافية ، والسياسية ، ولو كان مجتمعنا خالياً عن هذه الأمور لما وقع الفساد والفوضى الذي يقع في كثير من المجتمعات ، لأنه لم يبق فرق بين الصالح وغير الصالح ، وبين التدين وغير التدين ، وبين أن ينهج المنهج الشرعي وينهج المنهج غير الشرعي .

وفقكم الله لما فيه خيركم ويتقبل منكم ، وينعم عليكم بأفضاله وبركاته ، ويرزقكم أن تذهبوا بهذه الأفضال والبركات إلى بلادكم التي ثبت حقها عليكم وسيدوم هذا الحق وإن استوطنتم مكاناً آخر ، وبلداً بعيداً .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

* * *

# الفصل الثاني
# نظرات وتأملات
# في سُور القرآن الكريم وآياته

# سورة الفَاتِحة ، جَمالها ، وجَامعيتها وتأثيرها في الحيَاة

تأَمَّل في سورة الفاتحة ، التي هي الدُّرَّة الفريدة في المعجزات السماوية ، وقطعة رائعة من القطع القرآنية البيانية ، لو اجتمع أذكياء العالم وأدباء الأمم ، وعلماء النفس وقادة الإصلاح وزعماء الروحانية ، على أن يضعوا صيغة يتفق عليها أفراد البشر على اختلاف طبقاتهم ، وعلى تَنوُّع حاجاتهم ، وعلى تشتُّت خواطرهم يتقدمون بها أمام ربهم ، ويتعبّدون بها في صلواتهم ، تُعبِّر عن ضمائرهم ومشاعرهم وتفي بحاجاتهم وأغراضهم ؛ لما جاؤوا بأحسن منها : ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [ الإسراء : ٨٨ ] ، وقد قال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴾ [ الحجر : ٨٧ ] .

وقد افْتُتِحَتْ بالحمد ، وهي الكلمة الجامعة بين الشكر والثناء ، ومن الكلمات البليغة المعجِزة ، التي لا يمكن ترجمتها في لسان آخر ، والحمد خير ما يبتدىء به عبد عرف نعم الله التي لا تحصى ، وعرف قدْره ، وهو خير ما يفاتح به في هذا الموقف الشريف ، وفي هذا المقام المحمود .

ثم يقرر المصلّي أن الرب الذي يحمده ، ويقوم يستعين به ويعبده ، هو ليس رب قبيلة أو شعب ، أو أسرة أو فصيلة ، أو بلد ووطن ، إنما هو رب العالمين ، العقيدة الغريبة الثائرة ، التي تثور على جميع التقسيمات المصطنعة المزوّرة ، التي جنَتْ على الإنسانية أكبر جناية .

وهكذا يعلن المسلم وحدتين ، وهما الدعامتان اللتان يقوم عليهما الأمن والسلام ، وعليهما قام الإسلام ، في كل زمان ومكان ، وهما وحدة الربوبية ، والوحدة البشرية ، وحدة نسل بني آدم من غير فرق بين بلد ووطن ، أو لون أو دم .

فالإنسان أخو الإنسان من جهتين ، والإنسان أخو الإنسان مرتين ، مرة ـ وهي الأساس ـ لأن الرب واحد ، ومرة ثانية لأن الأب واحد : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [ النساء : ١ ] ، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [ الحجرات : ١٣ ] ، وفي شرحه وتطبيقه ، يقول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في حجة الوداع : « إن الله قد أذهب عنكم عُبْيَةَ الجاهلية ، وفخرَها بالآباء ، إنما هو مؤمن تقي ، أو فاجر شقي ، الناس بنو آدم ، وآدم خلق من تراب ، لا فضل لعربي على أعجمي إلّا بالتقوى »[1] .

ثم يذكر المصلّي من صفات الرب الكريمة ، الكثيرة ، التي عرفها وآمن بها ، صفة الرحمة التي هي من أليق الصفات ـ وكلها لائقة كريمة ـ بهذا الموقف الذي يقفه المسلم عابداً خاشعاً ، داعياً مبتهلاً ، محتاجاً فقيراً ، تائباً آيباً ، والمقام مقام الرجاء لا اليأس ، ومقام التفاؤل لا التشاؤم .

ثم يذكر ويتذكر يوم الدين ، يوم الجزاء والعقاب ، الذي يتجلى فيه مُلكُ الله وملكوته ، في أروع مظهر ، لا ينازعه فيه ملك زائف أو حكم عارض : ﴿ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾ [ غافر : ١٦ ] ، فيجدد في نفسه الإيمان بالآخرة واستحضارها الذي هو مصدر الخوف والمراقبة ، ومصدر الرقابة على النفس والضمير ، وما أحوج المسلم ـ وهو الذي يستقبل الحياة المليئة بالإغراءات ، ويخوض فيها ـ إلى هذا الاستحضار .

ثم يعلن في كل تأكيد عرفته لغة العرب التي نزل فيها القرآن ، واختيرت لتكون لغة الصلاة العالمية ـ الرسمية ـ وفي أبلغ أسلوب من الأساليب البيانية العربية ، أنه لا يعبد إلا الله ولا يستعين إلّا به[2] ، وما الحياة إلّا عبادة

---

(١) رواه الترمذي وغيره عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم .

(٢) انظر فائدة التقديم لضمير المنصوب المنفصل ، وما يفيده من الحصر والتأكيد ، وما فيه من النكات النحوية والبلاغية ، في كتب التفسير والنحو والبلاغة .

واستعانة ، وبهما يتصل الإنسان بالإنسان ، والضعيف بالقوي ، والفقير بالغنيّ ، والمحكوم بالحاكم ، والعبد بالمعبود ، فإذا جُرِّدتا وأُفرِدتا لله تعالى ، فُكت السلاسل والأغلال ، وحُطِّمت الأوثان والأصنام ، وبطل الشرك وزالت الفتنة ، وكان الدين كله لله . أعظم إعلان يعلنه مسلم ، وأكبر تعهد يتعهده ، فلينظر ما يقول ، وليكن على نفسه حسيباً رقيباً ، فكل ما يواجهه في الحياة خارج الصلاة : إما يدعوه لخضوع واستكانة ، وإما يدعوه لسؤال واستعانة ، وقد كفر بهما جميعاً ، وثار على كل من تزعَّمهما ، أو تظاهر بهما .

ثم يدعوه للهداية للصراط المستقيم ، التي هي أعظم حاجاته ، وأعز مطالبه ، وهي التي بُعثت لها الأنبياء ، وأُنزلت لها الصحف ، وقامت عليها سُوق الجنة ، وهي التي لا قيمة لشيء إذا فُقِدت ، ولا نقص في الحياة والسعادة إذا وجدت ، وهي التي فطرت النفوس البشرية على حُبّها وطلبها والبحث عنها ، والجهاد في سبيلها . ولكن الهداية لا تقوم في الخلاء ، ولا تُفهم إلّا بأهلها ، ولا تتمثل إلّا في أصحابها ، وأولئك هم الذين أنعم الله عليهم : ﴿ مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [ النساء : ٦٩ ] . وقد حثّ القرآن ـ وجميع الصحف السابقة ـ على حبهم والانتساب إليهم ، والانضواء إلى رايتهم ، والاقتداء بهديهم : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ﴾ [ الأنعام : ٩٠ ] ، ويتبع ذلك التبرُّؤ من الذين جانبوا الهداية وكفروا بالنعمة واتبعوا الهوى ، وسلكوا طريق الردى ، أولئك الذين أسرفوا في العناد ، وبالغوا في الإفراط ، فحلَّ عليهم غضب الله ، أو بالغوا في التحريف وتورَّطوا في التفريط ، فوقعوا في الضلال : ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ [ الفاتحة : ٦ ـ ٧ ] .

وهنا يتجلّى إعجاز القرآن ، وإني أعتقد أن الكلمة الواحدة التي جاءت في القرآن الكريم ، تصف أبناء المسيحية ، تكفي سبباً في إيمان دارس منصف بالقرآن وإعجازه ، وأنه يصدّق النبيّ الأُميّ الذي نزل عليه ، وكونه منزّلاً من عند الله عزّ وجلّ . ما أروع الحقيقة التاريخية التي نطق بها القرآن الكريم على

لسان أمّي ، ولد في الصحراء وعاش فيها ، والتي يصدّقها التاريخ في أدب جمّ ، وفي خضوع وانقياد واستسلام ، ويدهش المؤرخون عندما يفكّرون في مدى صدق هذا التعبير : كلمة « الضَّلالة » .

فقد تُفهم منها معانٍ كثيرة ، منها فساد العقيدة وفساد الجهل والانحراف ، والحيد عن الطريق ، وما إليها ، وكلها ضلال ، ولكن كلمة الضلالة أعمق معنى ، وأقوى أثراً ، وأبعد مدى من هذا الضلال الجزئي المحدود . إن دراسة الإنسان التاريخية وقوّته الاستنتاجية وقدرته على استخلاص النتائج الصحيحة تعود حائرة ومنقادة عندما تلاحظ أن النبيّ الذي لم يدرس تاريخ المسيحية قطّ ، ولم تكن لديه وسائل معلومات عنها ، ولم تثبت عنه زيارة بلد مسيحيٍّ إلّا لساعات معدودات ، كيف أجرى الله على لسانه الحقيقة الكبرى الصادقة حيث قال بالنسبة لليهود : ﴿ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ ﴾ بينما قال بالنسبة للمسيحيين : ﴿ ٱلضَّآلِّينَ ﴾ .

إن هذه الكلمات وحدها تكفي دلالة على كون القرآن الكريم منزّلاً من الله عزّ وجلّ ، وكونه وحياً إلهياً ، حيث كان بالإمكان أن تستخدم للمسيحيين عشرات من كلمات اللغة العربية ، فقد كانت من سعتها بالمكان الذي كان بالإمكان فيه أن تستخدم خمسون كلمة تؤدي هذا المعنى ، وكان بالإمكان أن تنطبق جميعاً على المسيحيين .

غير أن الله أراد فرقاً واضحاً مكشوفاً بينهم وبين اليهود ، إذ أطلق على اليهود : ﴿ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ ﴾ ، فمن قرأ تاريخهم شهد في ضوء التاريخ وفي ضوء اعترافاتهم أنفسهم ، ونظراً للأثر السلبي التخريبي الذي تركوه على الأخلاقيات والاتجاهات والممارسات البشرية ، والمجتمع البشري ، ونظراً لما عاملهم به الله عزّ وجلّ ، والعصيان والبغي اللذين تميَّزوا بهما عبر التاريخ ، وحُرموا من أجله نصر الله وعونه ـ بأنه لا تنطبق عليهم كلمةٌ انطباقَ ﴿ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ ﴾ .

أما من درس تاريخ المسيحيين فإنه يشهد بأنه لا تنطبق عليهم كلمةٌ مثل انطباق ﴿ ٱلضَّآلِّينَ ﴾ عليهم ، فقد كان شأنهم شأن سالك للطريق ، يترك

الطريق المستقيم المؤدي إلى غايته ، ويأخذ طريقاً معاكساً يسلك به إلى الوراء ، ولا يزال يواصل السير عليه فيزداد بُعداً على بُعد عن غايته المتوخّاة ، وكما يقول الشاعر العربي :

شَتَّانَ بَيْنَ مُشَرِّقٍ وَمُغَرِّبِ

فقد امتحنت المسيحية في عهدها الباكر ـ يعني في منتصف القرن الأول المسيحي ـ بتحريف لا يوجد له نظير في تاريخ الديانات في عهدها الأول ، فقد انتقلت من ديانة بسيطة توحيدية إلى ديانة وثنية تتركب من الأفكار اليونانية والبوذية ، وذلك على يد داعيها الكبير وبطلها العظيم بولس ( Saint Paul ) ( ١٠ ـ ٦٥م ) . وكان هذا الانتقال أشبه بقفزة من روح إلى روح ومن وضع إلى وضع ومن نظام إلى نظام ، لا يشارك الثاني الأول إلّا في الاسم وبعض الطقوس . ويتحدث عنه عالِم مسيحي ( Ernest De Bunsen ) فيقول : ( إن العقيدة والنظام الديني الذي جاء في الإنجيل : ليس الذي دعا إليه السيد المسيح بقوله وعمله ، إنّ مَرَدَّ النزاع القائم بين المسيحيين اليوم وبين اليهود والمسلمين ليس إلى المسيح ، بل إلى دهاء بولس ، ذلك المارق اليهودي والمسيحي ، وشرحه للصحف المقدسة على طريقة التجسيم ( Essene ) والتمثيل ، وملئه هذه الصحف « بالنبوءات » والأمثلة . إن بولس في تقليده لأسطفانوس ( Stephen ) داعي المذهب الإنساني قد ألصق بالمسيح التقاليد البوذية ، إنه واضع ذلك المزيج ، من الأحاديث والقصص المتعارضة التي يحتوي عليها الإنجيل اليوم ، والتي تعرض المسيح في صورة لا تتفق مع التاريخ أصلاً . ليس المسيح ، بل بولس والذين جاؤوا بعده من الأحبار والرهبان : هم الذين وضعوا تلك العقيدة والنظام الديني الذي تلقاه العالم المسيحي كأساس للعقيدة المسيحية الأرثوذكسية خلال ثمانية عشر قرناً ) .

* * *

# نظرات في سورة يوسف[١]

ما أجمل قصة يوسف الجميلة الرائعة التي حكاها الله تعالى كاملة مفردة في سورة يوسف ، ويوسف كله جمال في حياته وسيرته ، وفي أخلاقه وتصرفاته ، وفي ضعفه وخموله ، وفي مجده وأبهته ، وفي صبره واحتماله ، وفي رجائه وإيمانه ، وفي وعظه ودعوته ، وفي صفحه وكرمه ، وفي سماحته وسخائه ، وفي بدايته وفي نهايته ، وكل حديث عن يوسف جميل جليل ، حلو عذب . فيا طيب أخبار ويا حسن منظر .

نطالع في القرآن سورتين جليلتين ، نزلتا لتسلية النبي ﷺ وأصحابه ، الذين كانوا يعيشون في أقسى الظروف التي جربها فرد أو جماعة في تاريخ الإنسانية الطويل ، والنبوة بالمستقبل المشرق الباهر الذي لا يبلغ إليه قياس الأذكياء ، ولا كهانة الكاهنين ولا طموح الطامحين ، إحداهما سورة يوسف ، والأخرى سورة القصص . وكلتاهما مكيتان إلّا أن الأولى تتناول شخص الرسول الكريم ، وتبشر بمستقبله العظيم ، والأخرى تتناول جماعة المؤمنين ، المضطهدين المعذبين وتنبىء بانتصارها وازدهارها ، وسيادتها ، وقيادتها ، وقد كان المجتمع الإسلامي المستضعف الممتحن في مكة في حاجة ملحة إلى ذلك لتقوية عقيدته وإيمانه ، وثقته بمركز التوجيه ، ومصدر الإشعاع ، وثقته بمستقبله المضمون المكفول ، وكان الذين يحاربون هذه الدعوة وزعيمها ، وأتباعه ، ويسومونهم سوء العذاب ، ويتكهنون بزوالهم السريع وفنائهم القريب ، في حاجة كذلك إلى هذه النبوة الجريئة المجلجلة ، الخالعة للقلوب ، فسورة يوسف تبدأ بقوله تعالى : ﴿ ۞ لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ

---

(١) نُشر هذا المقال في مجلة « البعث الإسلامي » في عددها الثالث ، المجلد السابع والعشرون ، عام ١٩٨٢م .

وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ﴾ [ يوسف : ٧ ] ، ويتوسط السورة بقوله : ﴿ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [ يوسف : ٩٠ ] وتختم السورة بقوله : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [ يوسف : ١١١ ] وكلها إشارات لطيفة بل تصريحات مكشوفة بالفتح العظيم الذي يبدد الظلام وينفي الأوهام ويشق الطريق إلى الأمام ، ويجعل من الشخص الضعيف الطريد المجفو سيد الأمة وملك البلاد وقابض الزمام .

وتبدأ سورة القصص بالإعلان الملكي الصارخ المفزع : ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴾ [ القصص : ٥ ـ ٦ ] ويتوسط السورة قوله : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾ [ القصص : ٥٨ ] وختم السورة بقوله : ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [ القصص : ٨٣ ] فجاءت السورتان على تفاوت بين زمن نزولهما ـ ولكن كلتيهما نزلتا بمكة ـ بلسماً لجروح المسلمين لا يعرف وقعهما في القلوب ، وسحرهما في النفوس إلا من عاش في ذلك المجتمع المخنوق ، المرهق بالجراح والمتاعب ، وفقه القرآن وعرف أسلوبه ، وتذوق معانيه ، ولا تزالان مادة سكينة وسلوى ، وثقة وبشارة لكل داعية مجفوٍّ محارب ولكل دعوة مضطهدة مطاردة ولكل جماعة مؤمنة تتألب عليها القوى ويتنمر عليها الأعداء ويرمونها عن قوس واحدة ؟ ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝١٢٠ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴾ [ هود : ١٢٠ ـ ١٢١ ] .

لقد اجتمع ليوسف شخصياً ، ولبني إسرائيل مجموعة جميع الأسباب والظروف الموجبة لخيبتهم وإخفاقهم في كفاح الحياة ، والخمول والضياع ، والفناء والانطواء والبقاء على وضع ذليل ، فقد بيع يوسف كعبد رقيق ، واشتري بثمن بخس دراهم معدودة تدل على رخص السلعة ، وهوانها في عين

البائع والمشتري ، ودخل في قصر عزيز مصر عبداً رقيقاً لا يعرف أحد نسبه ، وطيب أرومته ولا كرم معدنه ، ثم اتهم بتهمة خلقية شنيعة كثر عنها الحديث ، وتناولتها الألسن ، وشاعت في المجتمع ، ودخل السجن متهماً لا مدافع عنه ولا مزكي له ، كل ذلك كان كفيلاً بتخلفه في المجتمع ، وبقائه في غياهب السجون تحيط به هالة الأراجيف والإشاعات ، والظنون والشبهات والاحتقار ، والامتهان ، ويزيد في محنته وبلائه أنه غريب في مصر لا يتمتع بوطنية وجنسية ولا يتصل بالشعب الحاكم ، وبالأسرة الحاكمة بنسب أو دم ، وهو فرد من أفراد شعب ينظر إليه الشعب المصري المتمدن الراقي ، المتغطرس ، نظرة هوان واحتقار ، ولا يرى فرداً من أفراد هذا الشعب المتخلف كفواً لوظيفة كبيرة ، فضلاً عن السيادة والقيادة ، وتقلد وزارة أو صدارة ، كل ذلك كان كافياً ليجعل مستقبل هذا الشاب الغريب ، مظلماً بائساً ويختم على حظه ومصيره ختماً لا تفضه يد بشر ولا حيلة عقل .

ولكن يوسف قد خرج من كل ذلك خروج السيف من الجلاء ، والإبريز الخالص من النار ، وسطع نجمه وبزغ نوره كطلوع البدر في الليلة الظلماء ، وقد ذكر يوسف في صدقه النبوي ، وفي بلاغته النادرة ، وقد تساءل أخوته الذين فوجئوا برؤيته على عرش مصر ومعرفته بعد جهل طويل ، وقالوا في دهشة وفزع : ﴿ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ﴾ ، قال : ﴿ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [ يوسف : ٩٠ ] إنه هو التقوى والصبر اللذان قد تجليا في يوسف بأروع مظاهرهما وأبدع آياتهما حتى أصبحت قصة يوسف رمزاً للتقوى والصبر وعنواناً لهما .

وهذه قصة محمد ﷺ وأصحابه ، وقصة أمته ، وقصة الدعاة في أمته ، في كل زمان ومكان ، وفي كل جيل وعصر .

وقد اشتملت قصة يوسف على فصول كثيرة من المحنة والبلاء ، قلما تجتمع في قصة رجل واحد ، ذلك ليكون درساً وعبرة ، لكل داعية في كل محنة ولكل مؤمن في كل نكبة ، ثم انتهت هذه القصة الجليلة بفصل رائع ونهاية عظيمة تغمر النفوس ثقة وإيماناً ، وسكينة وحناناً ، وتطمع الطامعين في

رحمة الله ، ولطيف صنعه ، ودقيق حكمته .

إنسان تبتدىء قصته من التعرض لحسد الإخوة وبني الأب ، ومكيدتهم ، ومعرتهم التي قلما تعرض لها إنسان ، فمن حضانة الوالد الشفيق والرفيق ورعايته إلى ظلام الجب ووحشة الصحراء ، إلى رق القساة الذين يبيعونه بثمن بخس دراهم معدودة ، إلى خدمة عزيز مصر ومكيدة امرأته ومؤامرتها ، إلى التهمة الشنيعة التي هو منها بريء كبراءة الذئب من دمه ، إلى محنة السجن ، والقالة التي تشيع في البلد إلى الخروج منه مكرماً مبجلاً ، مطلوباً مدعواً إلى تقلد أعظم مركز ، وأدقه في حكومة متمدنة وبلد راق ، إلى احتياج الإخوة الذين جازفوا بحياته ، إلى رفده وبره ، واعترافهم بجنايتهم وخيانتهم ، إلى الاجتماع بالأخ الشقيق ، والأب الشفيق ، وقرة عين برؤيتهم والاجتماع بهم بعد فرقة طويلة والاستئناس بهم بعد وحشة طويلة وقرة عينهم كلهم برؤية مجد بيتهم ، وسلطان عشيرتهم ، قصة ذات فصول ، كل فصل آية في الجمال والجلال ، وفي الدقة والكمال ، كل فصل حلقة جميلة محكمة في سلسلة حوادث ، قدرها العزيز العليم صنع الله الذي أتقن كل شيء .

وتقسم قصة يوسف بأربع خصال سيطرت على حياته كلها ، هي النزاهة والاستقامة ، وكبر النفس وعلو الهمة ، والحكمة والفقه ،والإنابة والعبودية ، لقد كان يوسف نزيهاً مستقيماً في جميع المراحل والتجارب التي مر بها في حياته ، كان نزيهاً مستقيماً في قصر العزيز يوم امتحن امتحاناً تزول له الجبال الراسيات ، فقد تهيأ له من أسباب الإغراء والاستهواء ـ من الجمال والمال والسلطان والشباب والصحة والأمن من كل شبهة وتهمة ـ ما لو تهيأ أقله لأحد لكان كافياً لفتنته ، وقد كان مطلوباً أشد الطلب ، ولكنه تمرَّد على كل ذلك ، وثبت على كل ذلك ، وكلمته الخالدة التي تجلى فيها الكرم ، وصفاء المعدن ، والاعتراف بالإحسان ، وتجلى فيها الإيمان بالغيب ، والعلم بسنن الله ونتائج الأعمال ؟ ﴿ مَعَاذَ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [ يوسف : ٢٣ ] ، وكان نزيهاً مستقيماً في السجن في معاملته برفاقه ، ومن تولى

أمرهم حتى حاز ثقتهم، واستولى على قلوبهم حتى خاطبوه بقولهم: ﴿ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ ﴾ [ يوسف: ٤٦ ]، وقالوا: ﴿ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [ يوسف: ٧٨ ]، وكان نزيهاً مستقيماً في ولايته وفي تصرفاته حتى أحبه أهل البلاد، وسرى بحديثه الركبان، فقال له بنو يعقوب الغرباء البعداء: ﴿ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [ يوسف: ٧٨ ].

وكان كبير النفس عالي الهمة حين عصى سلطان النفس، وسلطان الشباب، وسلطان الجمال، وسلطان ربة البيت، وآثر الباقي على الفاني، والغيب على الشهود، وحفظ السيد الغائب في حرمته، وفي أعز متاعه، وكان كبير النفس عالي الهمة حين آثر شقاء السجن على سعادة القصر، والتعب على أساس الأمانة، وعلى الترفه على أساس الخيانة، وقال: ﴿ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ ﴾ [ يوسف: ٣٣ ] وكان كبير النفس عالي الهمة، حين جاءته الدعوة الكريمة من ملك البلاد، وصاحب العرش، رفضها واعتذر من قبولها في كبر نفس وعلو همة وقال: ﴿ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۖ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴾ [ يوسف: ٥٠ ] وكان كبير النفس عالي الهمة حين لم يقبل أن يعيش مدللاً مترفهاً يأكل من فتات مائدة الملك، فطلب أن يتولى أدق مركز في حكومة مصر، وقال في ثقة بمواهبه التي أكرمه الله بها: ﴿ قَالَ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ [ يوسف: ٥٥ ] وكان كبير النفس عالي الهمة، واسع الأناة، صبوراً حين لم يفش سره لإخوته، حتى جاءت المرحلة التي أذن الله له فيها، فقال: ﴿ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ﴾ [ يوسف: ٨٩ ].

وتجلت حكمته وفقهه في موعظته البليغة التي واجه بها صاحبيه في السجن، وهي من قطع الدعوة الحكيمة، والموعظة الحسنة الخالدة التي لا يقدر عليها غير الأنبياء فكأنها قطعة من نفسه، قبس من جماله، كلما تأمل فيها عاقل رزق سلامة الذوق، ورقة الشعور، وصفاء الوجدان، بهر بجمالها وتناسبها، جاء زميلان من أصحاب السجن يحكيان له رؤياهما، وقد شغلت الرؤيا فكرهما وأفزعتهما، فليس لهما هم غير هذه الرؤيا، وقد واجههما

يوسف مواجهة مؤسسة على الحكمة البليغة ، والمعرفة العميقة لطبائع الإنسان ، ودخائل النفس ، مواجهة تجلت فيها الحكمة ، والرحمة ، والرقة ، والصرامة ، لقد كانا قبل كل شيء في حاجة إلى العلم ، بأنهما لم يخطئا في الاختيار ، وأنهما إنما يخاطبان الخبير العليم الذي هو « صاحب الاختصاص » في هذا الموضوع ، وذلك أول ما يحتاج إليه المريض حين يقصد الطبيب ، والتلميذ حين يختار المعلم ، وكانا في حاجة إلى أن يعرفا أن حاجتهما ستقضى في أقرب مدة ، وفي أول فرصة ، وهي حاجة المريض والمنكوب ، والطالب الصادق ، فجمع بين ذلك يوسف ، وقال مطمئناً مسلياً مؤكداً : ﴿ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ ﴾ [ يوسف : ٣٧ ] وهكذا اطمأن الرجلان ، وارتاحا إلى علم يوسف ، وإلى أن غرضهما سيتحقق قريباً .

وعرف يوسف أن آذانهما وقلوبهما قد تفتحت له ، وأنها لا تتفتح في كل وقت ، أنهما قد تهيأا لسماع ما يلقي إليهما من قول ، وما يخاطبهما به من حكمة ، فقد نشطت الآذان ، ورقت القلوب وتفتق الشعور ، فانتهز يوسف هذه الفرصة السانحة الغالية التي ليست إلا كوميض البرق ، صمم على أن يدخل في هذه الآذان المفتوحة ، وفي هذه القلوب الرقيقة كلمة حكمة ، ودعوة ، هي أهم لهم وأنفع وأجدى لهم من تأويل الأحلام ، والتي ترتبط بها حياتهم ارتباطاً أشد وأوثق من ارتباطها بهذه الأحلام ، ولكنه لم يرد ، وهو الحكيم العطوف أن يغير على هذه القلوب وأن يهاجمها مهاجمة عنيفة ، فينغلق الباب المفتوح ، ويجمع القلب الأليف ، فوصل الدعوة بمعرفته التي كان في حاجة إلى ذكرها صلة رفيقة رقيقة ، وتدرج منها إلى الدعوة إلى التوحيد ، تدرجاً لم يثقل على قلب المستمعين ، ولم يشعروا بهذا الانتقال اللطيف ، بل جاء كالماء الزلال السلسال ، الذي لا يستثقله العطشان ، بل يتهافت عليه الإنسان الظمآن ، فقال واصلاً بقوله : ﴿ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ ۚ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴾ [ يوسف : ٣٧ ] وذلك سر معرفته وسبب كرامته ، ثم قال وقد تهيأ له الجو ، واستعدت له القلوب :

﴿ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ [ يوسف : ٣٨ ] ، ثم تقدم قائلاً وقد نشطت الآذان والقلوب ، وأساغت السابق وتهيأت للاحق : ﴿ يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [ يوسف : ٣٩ ـ ٤٠ ] .

وهنا عرف يوسف أن الوجبة الأولى قد تمت ، وأنه ليس من الحكمة أن يزيد فيها ويطيل الكلام ويقف طويلاً بينهم وبين ما جاؤوا له ، فهذا هو التناسب الذي لا يشعر به إلَّا الأنبياء والعلماء الربانيون ، وقد جاء في حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه كان رسول الله ـ ﷺ ـ يتخولنا بالموعظة كراهة السآمة علينا ، وكان مما أوصى به داعيين من الدعاة أرسلهما إلى اليمن : « يسرا ولا تعسرا ، وبشرا ولا تنفرا » فهنالك وقف يوسف وبدأ يؤول لهما أحلامهما ، فقال : ﴿ يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا ۖ وَأَمَّا ٱلْءَاخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ ۚ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴾ [ يوسف : ٤١ ] ، وبذلك جاءت هذه الموعظة البليغة نموذجاً رائعاً لدعوة الأنبياء ، ومعجزة باهرة من حكمهم ، ومادة لا تنقطع لأصول الدعوة وحكمتها ، ومناهجها في كل عصر .

وتجلت إنابته وعبوديته في جميع مراحله فلم يصلف ولم يتبجح ، ولم يرجع الفضل إلى نفسه وقوة مقاومته ، فقال وقد استطاع أن يستعصي على هذا الجو من الإغراء والاستهواء ، وثبت فيه كالصخرة الصماء : ﴿ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [ يوسف : ٣٣ ] ، وقال حين ثبتت براءته ونزاهته : ﴿ ۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [ يوسف : ٥٣ ] ، وتجلت هذه الإنابة والعبودية ، والافتقار يوم بلغ إلى قمة مجده ، وأوج سعادته ، وإلى القارىء الكريم تفصيل ذلك :

يتربع يوسف على أريكة مصر ذات النيل السعيد ، والخصب المزيد ،

ويتم له الأمر والنهي فيها ويتم له من المجد والعظمة ، ونفوذ الكلمة وبسطة السلطان ، ما يتم لأكبر حاكم وأعظم والٍ في الدنيا ، فهو الرجل الذي يخشى ويرجى ، وتأتيه الدنيا راغمة صاغرة ، ثم لا يشغله كل ذلك عن التواضع ، لا يشغله عن ربه وعن معرفة نفسه ، وعن تذكر مصيره ، ولا يذهله عن قيمته وحقيقته ، ولا يذهله عن إيثار الآخرة على العاجلة ، والباقية على الفانية وعن إيثار آبائه الفقراء الزاهدين الذين عاشوا في شظف من العيش ، وفي تقشف من الحياة على الأمراء الباذخين ، والملوك الجبارين الذين جلسوا على عرش مصر وغير مصر .

لقد تقلد يوسف العزيز أعظم منصب وأكرم مركز في حكومة مصر المتمدنة الواسعة ليخدم عيال الله ، وليرفه البلاد والعباد ، وليؤدي الأمانة إلى أهلها ، لقد فعل يوسف كل ذلك بحكم الضرورة ومقتضى المصلحة الواقعة ، فكان فيه براً تقياً ، أميناً قوياً ، ولكن قلبه لم يتعلق بذلك ، ولكن الملك لم يسترقه ولم يتملك قلبه ، إنه بقي يحن إلى معيشة آبائه الزاهدين ، قائماً بدعوتهم ، محافظاً على أمانتهم ، ولما علا نجمه ، وكمل مجده ، وتم إقباله ، فاض لسانه وجنانه بالحمد والشكر ، والاعتراف ، والدعاء الأثير الحبيب ، والأمنية اللذيذة العزيزة ، فقال :

﴿ ۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [ يوسف : ١٠١ ] .

وهكذا كانت نهاية القصة الجميلة الرائعة ، فكانت خير نهاية لقصة إنسان مؤمن عريق في الكرم ، وبيت النبوة ، ولإنسان عظيم ونبي كريم .

وهذه الخصال الأربع ميراث النبوة ، وطبيعة الأنبياء ، وأفضل ما يتجمل به الدعاة إلى الله ، وخلفاء الأنبياء ، والربانيون في كل عصر وجيل ، وهي سلاح الدعوة الماضي ، وكنزها الذي لا ينفد ، ومددها الذي لا ينقطع ومفتاح خزائن الله في كل عصر ومصر ، وهو المنهاج الذي يجب أن يكون موضوع الدراسة ، ومادة التقليد .

وسيرة محمد ـ ﷺ ـ من أشبه السير بسيرة يوسف ، فكلاهما من معدن كريم ، وأثير حبيب ، وكلاهما حُسِدَ وعُودِيَ ، وكلاهما أقصي من وطنه ، وكلاهما لبث مختفياً متوارياً ، ذلك في غيابة الجب ، وهذا في ظلام الغار ، وكلاهما بلغ ما أراد الله به من الكرامة في موطن الغربة ، وفي دار الهجرة ، وكلاهما أمد أعداءه الحاسدين الكائدين بالميرة والقوت في عام المجاعة وكلاهما جاء أخوته الحاسدون ، وقالوا له : ﴿ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴾ [ يوسف : ٩١ ] ، وكلاهما كان جوابه : ﴿ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ [ يوسف : ٩٢ ] .

وهكذا كانت سورة يوسف مرآة وضيئة يرى فيها رسول الله ـ ﷺ ـ قسمات وجهه المنير ، وملامح مستقبله الزاهر ، ويقرأ فيها قصته وما يؤول إليه أمره في الغد القريب ، كما كانت سورة القصص مرآة صافية يرى فيها الصحابة والمسلمون في العصر الأول ، والمسلمون الذين يلقون عنتاً ، ويواجهون اضطهاداً وتعذيباً ، وسخرة ومحاولة القضاء على مقومات شخصيتهم ، وملامح وجوههم ، وصورة مستقبلهم ، وصدق الله العظيم :

﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [ يوسف : ١١١ ] .

* * *

# سورة الإسراء
## وما تضمه من إعلانات تاريخية صارخة[١]

إن سورة الإسراء ـ التي تتضمن قصة الإسراء ـ تضم إعلانات صارخة لافتة يبتدىء بها عهد جديد في تاريخ الأديان ، وفي مصير الأمم .

تضم هذه السورة الكريمة إعلاناً بانقضاء عهد قيادة بني إسرائيل الدينية والخلقية وسيادتهم الروحية والسياسية التي أكرموا بها بفضل النبوة والملوكية اللتين اجتمعتا فيهم ، وظلوا يتمتعون بها دهراً طويلاً ، ثم سجلوا على أنفسهم من المآسي والمهازل وتبديل نعمة الله ، وسوء استعمال مواهبهم ونقض الميثاق الذي أخذ منهم ، والإفساد في الأرض مرة بعد مرة والعلو الكبير ، ما أوجب انتزاع هذا المنصب الجليل والكرامة التي ليس فوقها إلا النبوة ، ونقلها إلى الذين كان يعيرهم اليهود بالأمية وينظرون إليهم بعين الاحتقار .

وتضم هذه السورة الكريمة وقصة الإسراء إعلاناً بأن محمداً ﷺ هو نبي القبلتين ، وإمام المشرقين والمغربين ، ووارث الأنبياء قبله ، وإمام الأجيال بعده ، فقد التقت في شخصه وفي إسرائه مكة بالقدس ، والبيت الحرام بالمسجد الأقصى ، وصلى الأنبياء خلفه ، فكان هذا إيذاناً بعموم رسالته ، وخلود إمامته وإنسانية تعاليمه ، وصلاحيتها لاختلاف المكان والزمان .

وضمت هذه السورة الكريمة إعلاناً آخر ليس بأقل أهمية وقيمة من « الإعلانين » الأولين ، وهو تحديد شخصية النبي ﷺ وتحديد زعامته وإمامته ، وتحديد مكانة الأمة التي بعث فيها وآمنت به ، وتحديد رسالتها

---

(١) نُشر هذا المقال في مجلة « البعث الإسلامي » في عددها الثالث ، المجلد الثالث عشر عام ١٩٦٨م .

ودورها الذي ستمثله في العالم ، ومن بين الشعوب والأمم .

لقد كان محمد ﷺ ـ بالقوى التي جبل عليها والمواهب التي خص بها والفرص التي أتيحت له ـ من أجدر الناس بقيادة شعب أو بلاد ، ومن أجدر الناس بزعامة أمة تخلفت في الحياة ، أو عاشت في عزلة عن العالم ، ومن أقوى الزعماء والقادة وأقدرهم على نفخ روح جديد ، وافتتاح عهد سعيد في أمة كالأمة العربية ، وفي بلاد كالجزيرة العربية وما أجدره بأن ينظر إليه من تسره عظمة العرب ، ومن يهمه مجد العرب ، كمؤسس للأمة العربية الجديدة ، ومؤسس للإمبراطورية العربية الجديدة ، ومؤسس للمجتمع العربي الجديد ، فقد كان كل هذا وأكثر وأعظم ، فعلى يده ويد أتباعه قامت الإمبراطورية العربية العظمى التي لم يحلم بها كبار الطامحين في العرب ، وعلى يده ويد أتباعه قام المجتمع العربي الجديد الذي ولد ثقافة وولد فلسفة ، وولد حضارة كل منها جديد ، وكل منها مفيد .

لقد كان محمد ﷺ جديراً كل الجدارة بأن ينظر إليه من هذه الناحية ، وتتشرف الزعامة القومية بالانتساب إليه ، وأن تعتبره بطلاً من أبطالها ، فليس أحد أعظم فضلاً وأكرم يداً على الأمة العربية والمجتمع العربي من هذه الشخصية الكريمة الفريدة .

ولكن جاء « الإسراء » خطاً فاصلاً بين هذه الناحية الضيقة المحلية المؤقتة وبين شخصيته النبوية الخالدة العالمية ، إذا كان الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ زعيم أمة ، أو قائد إقليم ، أو منقذ عنصر ، أو مؤسس مجد ، لم يكن في حاجة إلى الإسراء والمعراج ، ولم يكن في حاجة إلى سياحة في عالم الملكوت ، ولم يكن في حاجة إلى أن تتصل بسببه الأرض بالسماء اتصالاً جديداً ، لقد كان له في أرضه التي يعيش فيها ، وفي محيطه الذي يكافح فيه ، وفي مجتمعه الذي يسعى لإسعاده غنى وسعة ، لا يفكر في غيره ، ولا يتجاوزه إلى رقعة أخرى من الأرض فضلاً عن السموات العلى وسدرة المنتهى ، وفضلاً عن المسجد الأقصى الذي يبعد عن بلده بعداً كبيراً ، والذي كان في ولاية الديانة المسيحية ، وحكومة الأمة الرومية القوية .

وجاء الإسراء وأعلن أن محمداً ﷺ ليس من طراز القادة والزعماء الذين تتجاوز مواهبهم وجهودهم ودوائر كفاحهم حدود الشعوب والبلاد ، ولا تسعد بهم إلا الشعوب التي يولدون فيها ، والبيئات التي ينبعون منها ، إنما هو من طراز الأنبياء والرسل الذين يحملون رسالات السماء إلى الأرض ، ويحملون رسالات الخالق إلى الخلق ، وتسعد بهم الإنسانية على اختلاف شعوبها وطبقاتها ، وعهودها وأجيالها .

وإذا كان منصب القيادة العالمية والسيادة الروحية والسياسية قد نقل إلى أتباعه ـ وعلى رأسهم وفي مقدمتهم العرب ـ كان ذلك إيذاناً بأن العرب سيكون لهم شأن آخر ، إنهم ينتقلون الآن ـ بفضل بعثة محمد ﷺ ـ من قيادة لا تتجاوز حدود الجزيرة ـ إن توسعت كثيراً ـ إلى قيادة تشمل العالم كله وتشمل الإنسانية كلها ، إنهم لا يفكرون بعد الآن في القبائل والفصائل ، وفي ربيعة ومضر ، وفي عدنان وقحطان ، إنهم يفكرون الآن في قضايا النوع البشري كله وسعادته وشقائه إنهم لا يكافحون الآن للانتصاف لقبيلة من قبيلة ، والانتصار للواء دون لواء ، أو لجمع القبائل المتناحرة المتنافسة تحت لواء عربي واحد ، وتحت سيادة زعيم واحد ، إنهم يفكرون الآن في جمع شتات الإنسانية وشملها ، وإيجاد الوحدة والمحبة والثقة والصفاء في قلوبها المختلفة ، وأهوائها المتشتتة ، وكلماتها المتعددة ، وشعائرها المتضاربة ، إنهم منذ اليوم لا يعيشون لأنفسهم ، ولا يكافحون لمصالحهم ، إنهم سيعيشون للإنسان أينما كان ، ويكافحون للإيمان إلى أقصى المكان وإلى آخر الزمان ، لقد ربطت ناصية الإنسانية وسعادتها بناصيتهم ، وكتبت لهم الوصاية العادلة الفاضلة على العالم كله .

ما أعظم التطور الذي حدث في تاريخ العرب على أثر بعثة محمد ﷺ ونادت به سورة الإسراء وقصة المعراج في لغة صريحة بليغة وفي أسلوب مبين مشرق ، وما أعظم النعمة التي أسبغها الله على العرب ، نقلهم من جزيرتهم التي يتناحرون فيها إلى العالم الفسيح الذي يقودونه بناصيته ومن الحياة القبلية المحدودة التي ضاقوا بها إلى الإنسانية الواسعة التي يشرفون عليها

ويوجهونها ؛ أصبحوا بفضل هذا التطور العظيم الذي فاجأ العرب وفاجأ العالم يقولون بكل وضوح وشجاعة لإمبراطور المملكة الفارسية العظيمة وأركان دولته : « الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام » .

نعم لقد خرجوا من ضيق الدنيا إلى سعتها ثم أخرجوا الأمم من ضيق الدنيا إلى سعتها آخراً ، وهل أضيق من الحياة القبلية والجنسية ، وأوسع من الحياة الإنسانية الآفاقية ، وهل أضيق من الحياة التي لا يفكر فيها إلا في المادة الزائلة والحياة الفانية ، ولا يجاهد إلا في سبيلها ، وأوسع من الحياة الإيمانية والروحانية التي لا نهاية لها ولا تحديد .

لقد خرجوا من ضيق جزيرة العرب ، ومن ضيق الحياة فيها ، ومن ضيق التفكير في مسائلها ومصالحها ، ومن ضيق التناحر على سيادتها ، ومن ضيق التكالب على حطامها القليل ، وملكها الضئيل ؛ وعيشها الذليل ، إلى عالم جديد من السيادة الروحية والخلقية والعلمية والسياسية ، ليس الدانوب الفائض ، والنيل السعيد ، والفرات العذب ، والسند الطويل ، إلا سواقي حقيرة وترعاً صغيرة فيه ، وليست جبال الألب وبرانس وقمم همالايا إلَّا تلالاً متواضعة وسدوداً صغيرة ، وليست البلاد الواسعة كالهند والصين وتركستان إلا أحياء ضيقة وحارات صغيرة ونقطاً مغمورة في هذا العالم ، وليست هذه الأرض كلها ـ إذا نظر إليها من ارتقى إلى قمة هذه السيادة ـ إلا خريطة ملونة يراها الطائر المحلق في السماء ، وليست الأمم الكبيرة مع ثقافاتها وحضاراتها وآدابها إلَّا أسراً صغيرة في أمة كبيرة .

لقد قام هذا العالَم الكبير على أساس العقيدة الواحدة والإيمان العميق ، والصلة الروحية القومية فكان أوسع عالم عرفه التاريخ ، وكانت الشعوب التي تكون هذا العالم أقوى أسرة عرفها التاريخ تنصهر فيها الثقافات المختلفة والعقول المختلفة والعبقريات المختلفة ، فتكون منها ثقافة واحدة هي الثقافة الإسلامية ، وتتكون منها عبقرية واحدة هي العبقرية الإسلامية التي لم تزل تظهر في نوابغ الإسلام الذين لا يحصيهم عدد ، وفي المآثر الإسلامية ـ بين

علمية وعملية ـ التي لا يستقصيها التاريخ .

لقد كانت ـ ولا تزال ـ قيادة هذا العالم بجدارة واستحقاق أشرف قيادة وأعظمها وأقواها في تاريخ الزعامة والقيادة ، وقد أكرم الله بها العرب لما أخلصوا لهذه الدعوة الإسلامية واحتضنوها وتبنوها وتفانوا في سبيلها ، فأحبهم الناس في العالم حباً لم يعرف له نظير ، وقلدوهم في كل شيء تقليداً لم يعرف له نظير ، وخضعت للغتهم اللغات ، ولثقافاتهم الثقافات . ولحضارتهم الحضارات ، فكانت لغتهم هي لغة العلم والتأليف في العالم المتمدن من أقصاه إلى أقصاه ، وهي اللغة المقدسة الحبيبة التي يؤثرها الناس على لغاتهم التي نشؤوا عليها ويؤلفون فيها أعظم مؤلفاتهم وأحب مؤلفاتهم ، ويتقنونها كأبنائها وأحسن ، وينبغ فيها أدباء ومؤلفون يخضع لهم المثقفون في العالم العربي ، ويقر بفضلهم وإمامتهم أدباء العرب ونقدتهم ، وكانت ثقافتهم هي الثقافة العالمية ، وكانت حضارتهم هي الحضارة المثلى التي يتنبَّل الناس ويتظرفون بتقليدها ، ويحث علماء الدين على تفضيلها على الحضارات الأخرى ، وقد يطلقون على كل ما يخالفها من الحضارات اسم « الجاهلية » و « العجمية » ، وينهون عن اتخاذ شعائرها ومظاهرها .

وبقيت هذه القيادة الشاملة الكاملة مدة طويلة ، والناس لا يفكرون في ثورة عليها ، وفي التخلص منها ، كما هي عدة المفتوحين والأمم المغلوبة على أمرها ، في كل عهد وفي كل ناحية ، لأن صلتهم بهذه القيادة ليست صلة المفتوح بالفاتح أو المحكوم بالحاكم أو الرقيق بالسيد القاهر ، إنما هي صلة المتدين بالمتدين ، وصلة المؤمن بالمؤمن ، وعلى الأكثر إنما هي صلة التابع بالمتبوع الذي سبقه بمعرفة الحق والإيمان بالدعوة والتفاني في سبيلها ، فلا محل للثورة ، ولا محل للتذمر ، ولا محل لنكران الجميل ، إنما اللائق أن يعترفوا لهم بالفضل وتلهج ألسنتهم بالشكر والدعاء وأن يقولوا : ﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [ الحشر : ١٠ ] .

هكذا كان ، فقد ظلت هذه الأمم المفتوحة تعتبر العرب المنقذ الوحيد من

الجاهلية والوثنية ، والداعي إلى دار السلام ، والقائد إلى الجنة ؛ والمعلم للإنسانية الرفيعة ، والأستاذ في الأخلاق الفاضلة ، والعلوم الصحيحة .

هذه هي القيادة العالمية التي هيأتها البعثة المحمدية وأعلنتها سورة الإسراء وهي القيادة التي يجب أن يحرص عليها العرب أشد الحرص ويعضوا عليها بالنواجذ ، ويسعوا إليها بكل ما أوتوا من مواهب ويوصى بها الآباء والأبناء ، ولا يجوز لهم في شريعة العقل والدين والغيرة ـ أن يتخلوا عنها في زمن من الأزمان ، ففيها عوض عن كل قيادة مع زيادة فضل ، وليس في غيرها عوض عنها وكفاية ، وهي القيادة التي تشمل جميع أنواع القيادة والسيادة ، وهي تسيطر على القلوب والأرواح ، أكثر من سيطرتها على الأجسام والأشباح .

إن الطريق إلى هذه القيادة ممهدة ميسورة للعرب ، وهي الطريق التي جربوها في عهدهم الأول « الإخلاص للدعوة الإسلامية واحتضانها ، وتبنيها والتفاني في سبيلها وتفضيل منهج الحياة الإسلامي على جميع مناهج الحياة » وبذلك ـ من غير قصد وإرادة لنيل هذه القيادة وتبوئها ـ تخضع لهم الأمم الإسلامية في أنحاء العالم ، وتتهالك على حبهم وإجلالهم وتقليدهم ، وبذلك تنفتح لهم أبواب جديدة ، وميادين جديدة في مشارق الأرض ومغاربها ، الميادين التي استعصت على غزاة الغرب ومستعمريه ، وثارت عليهم ، وتدخل أمم جديدة في الإسلام ، أمم فتية في مواهبها وقواها وذخائرها ، أمم تستطيع أن تعارض أوربة في مدنيتها وعلومها وصناعتها وسيطرتها ، إذا وجدت إيماناً جديداً ، ودينا جديداً ، وروحاً جديداً ، ورسالة جديدة .

إلى متى أيها العرب تصرفون قواكم الجبارة التي فتحتم بها العالم القديم في ميادين ضيقة محدودة ؟! وإلى متى ينحصر هذا السيل العرم الذي جرف بالأمس المدنيات والحكومات ، في حدود هذا الوادي الضيق تصطرع أمواجه ويلتهم بعضها بعضاً ؟!

إليكم هذا العالم الإنساني الفسيح الذي اختاركم الله لقيادته واجتباكم لهدايته ، وقد كانت البعثة المحمدية فاتحة هذا العهد الجديد في تاريخ أمتكم

وفي تاريخ العالم جميعاً ، وفي مصيركم ومصير الأمم جميعاً ، احتضنوا هذه الدعوة الإسلامية وتفانوا في سبيلها وأخلصوا لها من جديد وجاهدوا في سبيلها من جديد .

﴿ وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴾ [ الحج : ٧٨ ] .

* * *

# تأملات في سورة الكهف

مِنَ السُّوَر التي نشأتُ على قراءتها منذ عَقَلْتُ وميَّزت : سورة الكهف ، أتلوها يوم الجمعة[١] تعبُّداً وثواباً كعامة الناس ، وفي دراستي للحديث النبوي الشريف رأيت حَثّاً على قراءة سورة الكهف وحفظها ، وأنَّ ذلك يعصم من الدجَّال[٢] . وتساءلت : هل في هذه السورة من المعاني والحقائق والتنبيهات والزواجر ، ما يعصم من هذه الفتنة التي استعاذ منها النبي ﷺ كثيراً ، وحثَّ أمَّته على الاستعاذة منها حثّاً شديداً ، والتي هي الفتنة الكبرى الأخيرة التي قال عنها : « ما بين خَلْق آدم إلى قيام الساعة أمرٌ أكبر من الدجَّال »[٣] ، ولماذا

---

(١) يرجع الفضل في ذلك إلى تربية والدة العلامة الندوي ، التي كانت توصيه دائماً بقراءة هذه السورة الكريمة يوم الجمعة ، وتحاسبه عليها حيناً بعد حين . حتَّى حفظها بكثرة قراءته لها ، وكانت من السيدات المثقَّفات الثقافة الدينية ، حفظَت القرآن ، ولها مؤلَّفات وشعر رقيق مطبوع تناجي به الله ، وتعبِّر فيه عن عواطفها الدينية . توفِّيت إلى رحمة الله تعالى لستٍّ خلوْنَ من جمادى الآخرة ١٣٨٨هـ .

(٢) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، قال : « مَنْ قرأ سورة الكهف كما أُنزلت ثم خرج الدجَّال لم يُسلَّط عليه، ولم يكن عليه سبيل ». (رواه الحاكم في المستدرك)، وأخرج ابن مردويه والضياء في المختارة عن علي قال : « قال رسول الله ﷺ : مَنْ قرأ الكهف يوم الجمعة فهو معصوم إلى ثمانية أيام من كلِّ فتنة تكون ، فإن خرج الدجَّال عصم منه » .
وعن أبي الدرداء قال : قال رسول الله ﷺ : « من حفظ عشر آيات من أول ( ورُوِيَ من آخر ) سورة الكهف عُصِمَ من فتنة المسيح الدجَّال » ، أخرجه مسلم وأبو داود والترمذي ، وعنده ثلاث آيات من سورة الكهف ، وصحَّحه ، وفي مسند أحمد : « مَن قرأ عشر آيات من سورة الكهف عُصِم من فتنة الدجّال » . ( ج٦ ص٤٤٦ - ص٤٤٩ ) . وروى النسائي : « من قرأ العشر الأواخر من سورة الكهف فإنه عصمة له من الدجَّال » والأحاديث في ذلك كثيرة .

(٣) رواه مسلم عن عِمْران بن حُصَين .

خصَّ رسول الله ﷺ ـ وهو أعرف خلق الله بكتاب الله وأسراره وعلومه ـ هذه السورة الكريمة من بين سور القرآن ؟

## صلة سورة الكهف بفتن العهد الأخير :

ورأيت نفسي تتوق إلى معرفة سرِّ هذا التخصيص ، والصِّلة المعنوية بينها وبين هذه العصمة ، التي أخبر بها رسول الله ﷺ ، ففي القرآن سور من القصار المفصَّل ، وسور من الطِّوال ، عَدَل عنها النبي ﷺ إلى هذه السورة ، وخصَّها بهذه الخاصة العظيمة[1] !! واقتنعت إجمالاً بأنَّ هذه السورة ، هي السورة القرآنية الفريدة ، التي تحتوي على أكبر مادة وأغزرها فيما يتصل بفتن العهد الأخير التي يتزعَّمها الدجَّال ، ويتولَّى كِبْرها ، ويحمل رايتها وتحتوي على أكبر مقدار من التِّرْياق الذي يدفع سُموم الدجَّال ويبرىء منها ، وأنَّ من يتشرَّب معاني هذه السورة ويمتلىء بها ـ وهو نتيجة الحفظ والإكثار من القراءة في عامة الأحوال ـ يعتصم من هذه الفتنة المقيمة المُقْعِدة للعالم ، ويَفلَت من الوقوع في شباكها ، وإنَّ في هذه السورة الكريمة من التوجيهات والإرشادات ، والأمثال والحكايات ما يبيِّن الدجَّال ويشخِّصه في كل زمان ومكان ، وما يوضِّح الأساس الذي تقوم عليه فتنته ودعوته ، وتهييء العقول والنفوس لمحاربة هذه الفتنة ومقاومتها ، والتمرُّد عليها ، وإنَّ فيها روحاً تعارض التدجيل وزعماءه ، ومنهج تفكيرهم ، وخطَّة حياتهم في وضوح وقوَّة .

**السورة الخاضعة لموضوع واحد** : اقتنعت بهذه الفكرة إجمالاً ، وأقبلت

---

(١) وقد انتهج بعض العلماء الراسخين ، وكبار المحدِّثين والمفسِّرين هذا المنهج من التفكير ، وتأمَّلوا في هذه السورة ، ورأوا بينها وبين فتنة الدجَّال صلة معنوية ، وقد نقل العلاَّمة محمد طاهر الفتني (م٩٨٦هـ) في مجمع بحار الأنوار ، عن بعض من تقدَّم قوله : « وفي الحديث في فضل سورة الكهف : عصم من الدجال ، أي الذي يخرج في آخر الزمان ، كما عصم أصحاب الكهف من ذلك الجبَّار ، أو من كل دجَّال يُلبِّس ، لما في هذه السورة من العجائب والآيات ، فمن تدبَّرها لم يفتتن » ، قال : « وعندي أنّ ذلك لخاصيّة اطَّلع عليها النبي ﷺ » ، ( مجمع بحار الأنوار ، مادة « دَجَل » ) .

إلى دراسة هذه السورة الكريمة ، كأنَّها سورة جديدة عليَّ ، ودخلت في معانيها ومضامينها ، وأنا أحمل هذا المصباح ـ الفكرة التي اقتنعت بها ـ فوجدتني في عالم من المعاني والحقائق لا عهدَ لي به من قَبْل ، ووجدت السورة كلَّها خاضعة لموضوع واحد ، أستطيع أن أسمِّيه « بين الإيمان والمادية » أو« بين القوة المصرِّفة لهذا الكون ( هو الله ) وبين الطبيعة أو الأسباب » ، ووجدت جميع الإشارات أو الحكايات ، أو المواعظ والأمثال دائرة حول هذا المعنى ، تشير إليه من طريق جَلِيٍّ ، أو تنظر إليه من طرف خفيّ .

واغتبطت بهذا الفتح ، وانكشف لي جانب جديد من إعجاز القرآن ، ونبوة محمد ﷺ ، فما كنت أعرف أنَّ هذا الكتاب الذي نزل في القرن السادس المسيحي ـ يعني قبل ثلاثة عشر قرناً وزيادة ـ يحمل صورة صادقة ناطقة بهذه المدنية الداجلة التي تولَّدت في القرن السابع عشر المسيحي ، واختمرت في القرن العشرين ، ويصوِّر نهايتها وأوجها ، وزعيمها الأعظم الذي يسمِّيه لسان النبوة في إعجاز وإيجاز « بالدجَّال » .

وفاض على قلمي بعض هذه المعاني ، والتمهيد لتفسير هذه السورة بالإجمال ، وأنا معلِّم التفسير في دار العلوم ندوة العلماء قبل خمس وعشرين سنة تقريباً ، ونشرته في مجلة « ترجمان القرآن » لصاحبها ورئيس تحريرها الأستاذ أبي الأعلى المودودي ، التي كانت تصدر من حيدر آباد يومئذٍ .

واتَّفق لي أن نزلتُ ضيفاً على العلاَّمة الكبير نادِرَةِ هذا العصر الشيخ مناظر أحسن الكيلاني ، رئيس القسم الديني في الجامعة العثمانية بحَيْدر آباد سنة ١٣٦٦هـ . (١٩٤٦م) ، وكنَّا نتذاكر كل ليلة ، فذكر لي أنه اطَّلع على هذه المقالة القصيرة ، وسُرَّ بها ، وأخبرني أنَّه كتب في هذا الموضوع على عادته بإسهاب وتوسُّع ، وسيرسله إلى مجلة « الفرقان » ، وأصدرت هذه المجلَّة عدداً خاصَّاً بالراحل العظيم نشرت فيه هذه المقالة برمَّتها .

لقد أثارت هذه المقالة ـ المنشورة من جديد ـ الرغبة في الحديث عن هذه السورة العظيمة ، وصلتها بالعهد الأخير ، وفتنته ، ودعواته ، واتجاهاته ، وفتنة الدجَّال بصفة خاصة ، وما في ذلك من الدروس ، والعِبَر ، والآيات ،

ورأيت أن أقيِّد ما يجول في خاطري ، وما فتح الله به عليَّ في فهم هذه السورة ـ مستعيناً بما جاء في مقالة العلاَّمة الكيلاني ، الذي أعتبره من أساتذتي وشيوخي ، وإن لم تكتب لي التلمذة التقليدية ، وكان يعتبرني من أعزِّ إخوانه[١] ـ من النكت البديعة ، والتوجيهات البليغة ، ولطائف القرآن الدقيقة ؛ وليس ما أكتبه تفسيراً لهذه السورة على أسلوب المفسّرين ، إنَّما هي تأمُّلات ونظرات عامة في هذه السورة العظيمة .

**مفتاح شخصية الدجَّال** : مفتاح شخصية الدجَّال الذي تُفْتح به أغلاقها ، وتُعْرف به أعماقها ، وتتميَّز به عن سائر دعاة الشر والإفساد ، والفكر والإلحاد ، هو لقب « الدجَّال »[٢] الذي غَلَب عليه ، فهو شِعاره الذي يُعرف به ، والدَّجل والتدجيل ، هو القطب الذي تدور حوله شخصيَّته ، ودَعَواته ، وأعماله ، وتصرُّفاته .

وقد اتَّسمت الحضارة الماديَّة في العهد الأخير بالتدجيل[٣] في كلِّ شيء ، والتلبيس على الناس ، وتسمية الأشياء بغير أسمائها ، وتمويه الحقائق ،

---

(١) كتب إلى العلامة الندوي على أثر علَّة برأ منها : « إنّي كلما غلبني الوجع وانقطع الرجاء من الحياة تمثَّل لي وجود العزيز ، وتمثَّلت بيت الشاعر :

أهيم بليلى ما حييت فإن أَمُتْ أوكِّل بليلىٰ من يهيم بها بعدي

(٢) قال ابن منظور في لسان العرب : « الداجل المموّه الكذَّاب ، وبه سمي الدجَّال ، والدجَّال هو المسيح الكذَّاب ، وإنَّما دَجَله سحره وكذبه ، قال ابن خالويه : ليس أحد فسَّر الدجَّال أحسن من تفسير أبي عمرو ، قال : الدجَّال المموِّه ، يقال دَجَلْت السيف موَّهته ، وطليته بماء الذهب ، قال الأزهري : كل كذاب فهو دجّال ، ودَجَل الشيء بالذهب التذهيب ، يقال لماء الذهب دجَّال ، وبه شُبِّه الدجَّال لأنه يُظهر خلاف ما يُضمر . قال أبو العباس : سمِّي دجَّالاً لتمويهه على الناس وتلبيسه وتزيينه الباطن ، يقال قد دجَّل إذا موَّه ولبَّس ، ( لسان العرب باختصار واقتباس ) .

(٣) عن حذيفة بن اليمان قال : « إنَّ الدجَّال يخرج ، وإنَّ معه ماءً وناراً ، فأما الذي يراه الناس ماءً فنار تحرق ، وأما الذي يراه الناس ناراً فماء بارد عذب » ( أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب الفتن وأشراط الساعة ) ، وفي رواية أبي هريرة « أنَّه يجيء معه مثل الجنة والنار ، فالتي يقول أنها الجنة هي النار » .

وإطلاق الأسماء البرَّاقة الخلاَّبة للعقول على غير مسمَّياتها ، وبكثرة الاختلاف بين الظاهر والباطن ، والأول والآخر ، والنظريات العلمية ، والتجارب العملية ، وهذا شأن الشعارات والفلسفات ، التي حلَّت محلَّ الأديان ، وسحرت النفوس والعقول[١] ؛ والكلمات التي أحاطت بها هالات التقديس والتمجيد ، وحلَّ حبها واحترامها في قرارة النفوس ، وحبَّات القلوب ؛ وأصبح الشكُّ في قُدْسها ، أو النقاش في كرامتها ، ومكانتها علامة للرجعية ، وإنكاراً للبداهة ، والمشهود المحسوس .

وقد التبس الأمر بذلك على كبار الأذكياء ، ونوابغ العلماء ، فأصبحوا يتغنَّون بهذه الشعارات والفلسفات ، ويدعون إليها في إيمان وحماس من غير تمحيص لنيَّة أصحابها وإخلاصهم ، أو شجاعة في تحديد نجاحها وإخفاقها ، في مجال العمل والتطبيق ، والمقارنة الصحيحة المحايدة ، بين ما كسبته الإنسانية والأمم الضعيفة ، وبين ما خسرته من سلطان هذه الشعارات وتحت رايتها ، من السعادة الحقيقية ، والحقوق الفِطْرية . وهذا كلُّه من قوة التدجيل وسحره ، الذي يفوق فيه « الدجَّال الأكبر » على جميع الدجَّالين والمدلِّسين ، والمموِّهين ، الذين عرفهم التاريخ البشري .

وقد سرت هذه الروح « الدجليَّة المدلّسة » في هذه الحضارة ، لسيرها على خط معارض لخط النبوَّة : الإيمان بالآخرة ، والإيمان بالغيب ، والإيمان بفاطر الكون ، وقدرته المطلقة ، واحترام شريعته وتعاليمه . وللاعتماد الزائد على الحواس الظاهرة ، والشغف الزائد بما يعود على الإنسان باللذة البدنية والمنفعة العاجلة ، والغلبة الظاهرة ، وهي النقطة التي تدور حولها سورة الكهف ، وما جاء فيها من قصص وعِبَر .

---

(١) مثل « الحرية » و « الاشتراكية » و « الديمقراطية » و « رفع مستوى المعيشة » و « الرفاهية » و « الحقوق الإنسانية » وحتى لفظ « الحضارة » و « الفنون الجميلة » و « الدستور » إلى غير ذلك من الشعارات .

## دور المسيحية واليهودية في توجيه المدنية ومصير الإنسانية :

وقد كان مع الأسف للمسيحية المحرَّفة ـ وهي التي قادت الحضارة في أوروبا بعد القرون الوسطى في العالم المتمدّن ـ ولليهودية الثائرة الموتورة دور متشابه ـ رغم الخلاف الجذري في العقيدة ـ في توجيه المدنية إلى المادية الرعناء ، المجرَّدة من الروح وتعاليم الأنبياء ، والتأثير في مصير الإنسانية على حدٍّ سواء ، فقد بدأت الشعوب المسيحية التي تحرَّرت من رقِّ الكنيسة والبابوات ، وضعفت صلتها ـ إذا لم نقل تقطَّعت كليّاً ـ بالمسيحية السمحة ، المؤسسة على التوحيد الخالص ، فاتّجهت اتّجاهاً ماديّاً عنيفاً ، أصبح يهدِّد العالم ومصير الإنسانية بالاكتشافات العلمية الحديثة ، والمخترعات المدمِّرة المبيدة ، وفقد التوازن بين العلم والعاطفة والعقل والضمير ، والصناعة والأخلاق .

وقد ساهم اليهود في العهد الأخير ـ بأسباب يعود بعضها إلى خصائص النسل والدم ، وبعضها إلى التعليم والتربية ، وبعضها إلى الغايات السياسية ، والمشاريع القومية ـ بأكبر قسط في العلم والفن ، والاكتشاف والاختراع ، وفي السيطرة على هذه الحضارة وتملُّك زمامها ، وتوجيهها في صالحهم والتأثير في الأدب والتربية ، والسياسة والفلسفة ، والتجارة ، والصحافة ، ووسائل التوعية والإعلام ، حتَّى أصبحوا العنصر الفعَّال الرئيسي في قيادة الحضارة الغربية التي ظهرت في بيئةٍ مسيحيّة ، وفي حضانة شعوب آمنت بالمسيح ، واحتضنت اسمه هذا العهد الطويل ، ويبدو للناظر المتعمِّق في الحوادث الأخيرة ، والمطَّلع على مدى نفوذ اليهودية العالمية في المجتمع الغربي ، أنَّ هذه الحضارة وما تحوي عليه من علم وفن ، ستبلغ نهايتها السلبية ، وتصل إلى ذروتها في قوّة التدمير ، والهدم والإفساد ، والتلبيس والتدجيل ، على أيدي اليهود الذين مكَّن لهم الغرب المسيحي ـ بغفلة منه وجهل بمراميهم البعيدة وطبيعتهم الحاقدة ـ كل تمكين ، وأتاح لهم كل فرصة لم يكونوا يحلمون بها قبل قرون ، وكانت في ذلك أكبر محنة للإنسانية ،

وأكبر خطر على العالم ، فضلاً عن العرب ، الذين يكتوون بنارهم ، فضلاً عن المنطقة المحدودة التي يجري فيها هذا الصراع الحاسم .

لذلك نرى أنَّ لهذه السورة اتِّصالاً وثيقاً بالمسيحية واليهودية ، فقد تعرَّضت للعقيدة المسيحية في مفتتحها ، وهكذا تبتدىء السورة الكريمة :

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴾ [ الكهف : ١ ـ ٥ ] .

وقد كانت السِّمة البارزة الثانية للحضارة التي نشأت في حضانة المسيحيين ، وشبَّت وترعرعت تحت رعايتهم ، الشغف الزائد بهذه الحياة المحدودة الفانية والحرص على تمديدها وتزيينها ، والمبالغة في إجلالها وتفخيم شأنها ، والاتجاه إلى نفي كل ما وراءها ، من مُثُل وقِيَم ، وخيرات ونِعَم ، والاقتصار على التنافس في السيطرة على أسبابها وطاقاتها وذخائرها ، وهي النقطة التي تلتقي عليها اليهودية معها ـ رغم ما بينها من عداء وتناقض ـ فقد تجرَّدت التوراة[١] عن ذكر عالم الآخرة ، والحياة الآخرة ، والحثِّ على الاستعداد لها ، وصرف القوى والمواهب إلى نيل السعادة فيها ، وإثارة الحنين والأشواق إلى نعمائها وطيِّباتها ، والإشارة إلى قِصَر هذه الحياة الدنيا وتفاهتها ، وذم حبِّ العلوِّ ، والإفساد فيها ، والتزهيد في زخارفها ومتاعها القليل ، وحُطامها الزائل . . تجرَّدت عن كلِّ هذه المعاني تجرُّداً يثير العجب ، ولا يعقل عن الكتب السماوية المنزَّلة من الله ، وروحها وطبيعتها .

---

(١) يريد العلامة الندوي بالتوراة : الأسفار الخمسة المنسوبة لموسى عليه السلام ، والتي اصطلح اليهود والنصارى على تسميتها بالتوراة ، وهي التوراة التي حرَّفها اليهود وأدخلوا فيها أشياء كثيرة من قصصهم وتواريخهم ، أما التوراة التي أُنزلت على موسى عليه السلام ففيها ذكر الآخرة . قال تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾ إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴾ [ الأعلى : ١٤ ـ ١٩ ] .

فلا عجب إذا كان تاريخ اليهود تاريخ التنافس على المادة، والنهامة للثروة، والكفاح للسيادة (السلالية)، والكبرياء القومي، وقد تجلَّى ذلك بوضوح في كلِّ ما نُسب إليهم من كتب دينية مقدَّسة، أو صدر عن أقلامهم وقرائحهم من أدب وشعر، وقصص وملاحم، ونبوَّات وكهانات، أو أُثر عنهم من بطولات ومغامرات، وحروب وثورات، أو عُرف عنهم من إبداعات واختراعات أو عُزي إليهم من أفكار وفلسفات فإنَّ أَنْدَر شيء في كل ذلك، هو الرقَّة والتواضع، وهَضم النفس وإنكار الذات، والاستهانة بالحياة الدنيا، والشوق إلى لقاء الله، والحنين إلى الآخرة، والرحمة بالإنسانية على اختلاف طبقاتها، وأجناسها وأوطانها.

ولذلك ثنَّى الله تبارك وتعالى الإنكار على عقيدة الشرك، وعقيدة الابْنِيَّةِ أو الوَلَدِيَّة التي تبنَّتها المسيحية، وتولَّت كبرها، والإنكار على عبادة هذه الحياة، واتّخاذ دارها المحلّ والقرار، والانصراف إليها عن كل ما سواها، ونوَّه بقِصَر هذه الحياة، وتداعي هذا الأساس الذي تقوم عليه، فقال: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۝٧ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾ [الكهف: ٧ ـ ٨].

وأعاد هذا الإنكار والتشنيع على عُبَّاد الحياة الدنيا ومنكري الآخرة، أو الغافلين عنها، فقال: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ۝١٠٣ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٣ ـ ١٠٤].

وهكذا أحاطت عقيدة الآخرة، وعقيدة الإيمان بالغيب، والإيمان بفاطر هذا الكون، وقدرته المطلقة المسيطرة على كل شيء، المتصرِّفة في كل شيء، بأول هذه السورة وآخرها، وبجميع جوانبها، وهي عقيدة نفسية، وعقلية وطبيعية، تأباها المادية التي لا تعتمد إلَّا على الحسّ والمشاهدة والتجربة، والمنفعة العاجلة، واللذة البدنية، والسيادة القومية أو العنصرية، وتتنصل عنها وتحاربها بكل قوة ووسيلة، فجاءت هذه السورة تشتمل على مادة تستأصل جذور المادية التي قدَّر الله أن يكون المسيحيُّون أكبر مربّيها ودعاتها، والمشرفين عليها، في رحلة التاريخ الطويلة، ثم يتولَّى قيادتها

اليهود الذين حاربوا المسيح منذ أول عهده ، ونافسوا المسيحية في جميع عهودها ، وعلى أيديهم تبلغ هذه المادية ذروتها الأخيرة ، وفيهم يظهر الدجَّال الذي يكون أعظم بطل من أبطال الكفر والإلحاد ، والتدجيل والتلبيس ، وقد أخبر رسول الله ﷺ بأنَّ تلاوة هذه السورة ، والمحافظة على أوائلها أو خواتيمها تعصم من فتنته ، وهكذا كانت بين بداية هذه السورة ونهايتها مناسبة لطيفة لا تخفى على الناظر المتأمِّل ، ولمجموع السورة صِلَة وثيقة ، عميقة بفتنة الدجَّال الذي يظهر في وقته[1] .

* * *

(١) نُشر هذا المقال حتى هنا في مجلة « البعث الإسلامي » في عددها الثاني ، المجلد السادس عشر ، عام ١٩٧١م .

# قصص هذه السُّورة الأربع

لقد اشتملت هذه السورة على أربع قصص ، هي معالم هذه السورة وعمدها ، وأقطابها الأربعة التي تدور حولها حِكمها ، وتعاليمها ، ومواعظها ، وهي :

١ ـ قصة أصحاب الكهف والرقيم .

٢ ـ قصة صاحب الجنَّتين .

٣ ـ قصة موسى والخضر ( عبد الله الذي آتاه الله رحمة من عنده وعلَّمه من لَدنه علماً ) .

٤ ـ قصة ذي القرنين الذي مكَّن الله له في الأرض ، وآتاه من كلِّ شيء سبباً .

إنَّ هذه القصص وإن تنوَّعت أساليبها وسياقها ، اتَّحدت في الغرض والغاية ، والروح التي تجمع بينها ، وتربطها ربطاً معنوياً ، عميقاً وثيقاً ، وإليك شرح هذا الإجمال :

## نظرتان في هذا الكون :

إنَّ هذا الكون خاضع ـ في غالب الأحوال ـ لأسباب طبيعية تتحكَّم في العالم ، وتتصرَّف فيه ، وهي القوى الكونية التي تسيطر على هذا النظام ، وهي الأسباب وخواص الأشياء التي قلَّما تفارق هذه الأشياء وقلَّما تخطىء ، وفي الناس من اقتصر نظره على هذه الحياة ، وعلى هذا العالم المادي المحسوس ، ورأى أنَّ المسبِّبَات والنتائج تابعة دائماً لأسبابها وعللها ، مرافقة لها لازمة ، ليس في الوجود من يحول بين هذه الأسباب وهذه المسبّبات ، ويتصرَّف فيها بإرادته المطلقة ، ويستطيع أن يوجد المسبِّبات من غير أسباب ، ويبدعها إبداعاً ، وتعلَّق بهذه الأسباب ، وعبدها كالأرباب ، وكفر بكل قوة

وراء هذه الأسباب والخواص ، وبكل قوة تسيطر على هذا العالم ، وتحكمه حكماً مطلقاً كليّاً ، وكفر بالحياة بعدها ، وبالبعث والنشور ، وبذل جهده ومواهبه في تسخير هذه القوة الكونية ، والأسباب والخواص ، وتسخير المادة ، وهام في سبيلها ، وبالغ في تمجيدها وتقديسها حتى جعلها ربّاً وإلٰهاً ، وأصبح يكفر بكل شيء سوى المادة والقوة ، حتى إذا نال منها غايته ، وسخَّر بعضها أو أخضع بعضها لإرادته وحاجته ، اعتقد ألوهيته ، أو أعلن ربوبيَّته ـ بلسان المقال أو بلسان الحال ـ واستعبد بني جنسه ، وعاث في دمائهم وأموالهم وأعراضهم ، واستباحها لأغراضه وشهواته ، أو طموحه ، أو مجَّد أمته ووطنه ، أو أسرته وحزبه .

وهنالك نظرة أخرى في هذا الكون تعارض النظرة الأولى في الأساس والمنهج : وهي أنَّ وراء هذه الأسباب الطبيعية ، والقوى الكونية ، والخواص المودَعة في الأشياء ، قوة غيبية تملك زمام هذه الأسباب والخواص ، وكما أنَّ هذه الأسباب سبب لهذه المسببات ، فالإرادة الإلهية القاهرة سبب لهذه الأسباب نفسها ، تخلقها وتسيِّرها ، وتفكُّها من مسبباتها إذا شاءت ، فهي سبب الأسباب ، وهي علَّة العلل . وإليها المنتهى في سلسلة الأسباب والعلل ، وإنَّ خالق هذا الكون ، وخالق هذه الأسباب لم يفلت من يده زمام هذا الكون في حين من الأحيان ، ولم تتحرر هذه الأسباب من رقِّه وحكمه ، وهي لا تتمرد عليه ولا تستعصي ، ولا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء ، هو الذي ربط الأشياء بالخواص ، والمسبِّبات بالأسباب ، والمقدِّمات بالنتائج لحكمة بالغة ، وإرادة قاهرة ، وهو الذي يربط ويفكّ ، ويثبت ويمحو ، ويوجد الأشياء من العدم ، ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [ يس : ٨٢ ] .

وإنَّ هنالك أسباباً مؤثِّرة أخرى تعمل في هذا العالم ، وفي مصير الأفراد والأمم ، كالأسباب الطبعية أو أشدّ ، وتتبعها نتائج قد تكون أعظم وأضخم من النتائج الطبعية المادية التي تتبع أسبابها ، وهي الإيمان والعمل الصالح ، والأخلاق الفاضلة ، وطاعة الله ، والعدل ، والعبادة ، والرحمة ، والمحبة ،

إلى غير ذلك من المعنويات . وأسباب تعمل عكسها ، كالكفر والبَغي ، والفساد في الأرض ، والظلم والشهوات ، والآثام ، إلى غير ذلك من المعنويات أيضاً .

وإنَّ من تمسَّك بالأسباب المعنوية الصالحة ـ من غير تعطيل للأسباب الطبعية ـ صَالَحَهُ هذا الكون ، وطابت له الحياة ، ويسَّره الله لليسرى وخرق له ـ في بعض الأحيان والمناسبات ـ بعض عاداته ، وأخضع له الأسباب الطبعية ؛ ومن تمسَّك بعكسها من المعنويات والأخلاق والسلوك في الحياة ، واعتمد على الأسباب الطبعيَّة فقط ، وأسَّس عليها حياته ، حاربه هذا الكون وخانته القوى التي أخضعها ، وهو أحوج ما يكون إليها ، وثارت عليه الطبيعة .

## سورة الكهف ، قصة صراع بين الإيمان والمادية :

إنَّ سورة الكهف قصة الصراع بين النظرتين والعقيدتين والنفسيتين ، صراع بين الإيمان بالمادة وما يتبعها ، وبين الإيمان بالغيب ، والإيمان بالله ؛ وشرح لما تتبع كل نظرة من العقيدة ، والعمل والأخلاق ، والنتائج والآثار ، وتحذير من اتّخاذ النظرة الأولى التي تؤمن بالمادة والظاهر ، وتكفر بالله والغيب .

وأنظر الآن في القصص الأربع ، وأبدأ بالقصَّة الأولى :

# ( ١ )
# قصة أصحاب الكهف
# في الأدب المسيحي ، والقصص الدينية

مَن كان أصحاب الكهف والرقيم ؟ ما هي قصَّتهم ؟ وما قيمة هذه القصَّة ومكانتها في تاريخ الإنسان ؟ ولماذا خصَّها القرآن بالذكر ، حتى جعلها قصَّة باقية خالدة ، تُتْلَى على اختلاف الزمان والمكان ؟ .

وقبل أن نقرأ قصَّة أصحاب الكهف في الأسلوب القرآني المعجز ، المركَّز الهادف ، والبلاغة القرآنية التي لا حشو فيها ولا فضول ، نستعرض قصة أصحاب الكهف في الكنب التي تقدَّمت ، وفي القصص التي تناقلتها الألسن ، وتوارثتها الأجيال ، ونقارن بين موافقات القصَّتين ومفارقاتهما .

لم ترد قصة أصحاب الكهف في أسفار العهد العتيق ، فإنَّها حادثة وقعت في فجر التاريخ المسيحي ، وبعد ما ظهرت الدعوة إلى التوحيد ورفض الأوثان ، عن طريق أتباع المسيح عليه الصلاة والسلام ، وبعدما دُوِّن آخر سفر من أسفار العهد العتيق ، وليست القصة بطبيعتها ـ وقد تجلَّت فيها بطولة أتباع المسيح واستقامتهم ـ مما يحرص اليهود على حفظها ونقلها ، والتغنّي بها ، ولكنها من أحبِّ القصص الدينية إلى المسيحيين ، لأنَّها من أعظم القصص غرابة ، وأشدها دلالة على صرامة أتباع المسيح الأوَّلين ، وقوَّة إيمانهم ، وتفانيهم في سبيل العقيدة والمبدأ ، وغَيْرتهم على تعاليم المسيحية النقيَّة الأولى ، وهي صالحة لإشعال الجمرة الإيمانية ، وإلهاب الغَيْرة الدينية ، وإثارة قوة المقاومة ، والكفاح في نفوس المؤمنين في كل عصر ومصْر ، وهذه العناصر كلّها التي تمتاز بها هذه القصة ، تضمن لبقاء هذه القصة على مدى الأعصار ، وانتشارها في الآفاق ، وانتقالها من جيل إلى جيل ، ومن عصر إلى

عصر ، فكيف فهمها المسيحيون الأوَّلون ، وكيف رَوَوْها لمن جاء بعدهم ؟ .

جاء في دائرة المعارف للأخلاق والديانات ، ما خلاصته[١] :

« إن قصَّة « النائمين السبعة » من أكثر القصص التي تُروى عن القدِّيسين ، متعة عقلية ، واشتهاراً في الآفاق ، إنَّ عناصر القصة التي تشترك فيها أقدم الكتب كما يلي :

إنَّ إمبراطور « ديسيس » ( Decius ) يدخل المدينة اليونانية القديمة « أفيسيس »[٢] ويجدد فيها تقليد عبادة الأوثان ، ويأمر أهل المدينة والمسيحيين بصفة خاصة بتقديم الذبائح والقرابين لها ، وأقلع عدد من

---

(١) وقد حكى الأديب المؤرِّخ الإنجليزي الشهير إدوارد جبون ( Edward Gibbon ) في كتابه الشهير « سقوط روما وانحطاطها » ( Decline & Fall of The Roman Empire ) هذه القصة في أسلوبه الخاص الذي يمتزج فيه التاريخ بالأدب ، والرواية بالتعليق والتفسير ، ويتجلَّى فيه التعصب المسيحي ، والتعرُّض للإسلام من غير ضرورة ( راجع صفحة ٢٤١ ـ ٢٤٣ ) المجلد الثاني :
Modern Library Giant Series (U.S.A).

(٢) ذهب أكثر المفسرين في تفسير سورة الكهف إلى ذلك ، كالبيضاوي ، والنيسابوري، والآلوسي ، وابن كثير ، وإليه ذهب أكثر المؤرِّخين ، والجغرافيين المسيحيين ، واختاره جبون( Gibbon ) في كتابه الشهير « انحطاط روما وسقوطها » ، اقرأ قصة « النائمين السبعة » Seven Sleepers في هذا الكتاب .
أما تحديدها الجغرافي ، فقد جاء في دائرة المعارف للبستاني ، أنها إحدى المدن الأيونية الاثنتي عشرة من الأناضول ، موقعها على الجانب الجنوبي من نهر قسيطرة ، وهي على مسافة ٦٠ كيلو متراً من أزمير ، جعلها الرومانيون قاعدة ولاية آسيا الغربية البر ، وقنصلية ، ومحطَّاً لتجارة متَّسعة زاهرة جدَّاً ، ولكن أعظم فخر لها هو هيكل ديانا ـ المعبودة اليونانية ـ العظيم الذي يُعد من عجائب الدنيا السبع ، وكان أكبر الهياكل اليونانية .
وذكر بليكي Blackie في كتابه A Manual of Bible History أن مدينة إفيسيس Ephesus اشتهرت في التاريخ القديم بفلسفتها ، وخلاعة أهلها ، واستهتارهم ، وأصبحت مضرب المثل في الفجور والخلاعة ، وكانت وثنيتها مزيجاً من الوثنية الغربية والشرقية .

المسيحيين عن عقيدتهم النصرانية ، وبقي عدد منهم متمسِّكين بديانتهم ، محتملين لاضطهاد رجال الحكومة ، وتعذيبهم . وهنا يُقَدَّم إلى الإمبراطور سبعة من الشباب ( وتقول بعض الروايات أنَّهم كانوا ثمانية ) وكانوا مقيمين في السراي ، وقد اختلف في أسمائهم ، وقد اتُّهموا باعتناق النصرانية سرَّاً ، وهم يرفضون تقديم القرابين إلى الأوثان ، ويمهلهم الإمبراطور لمدة طمعاً في أن يرجعوا إلى صوابهم ، ويتوبوا عن النصرانية ، ويخرج من المدينة .

وفي خلال هذه المدة يغادر هؤلاء الشباب المدينة ، ويأوون إلى كهف في جبل قريب كان يسمَّى بـ Anchilus ، ويخرج أحدهم اسمه Diomedes أو Imblicus متنكِّراً ، وفي ثياب متوسِّخة رقيعة إلى البلد ، ليتعرَّف الأخبار ويشتري الطعام ، ولا يمضي على ذلك كثير حتى يرجع « ديسيس » إلى المدينة ، ويأمر بأن يقدّم إليه الشباب ، ويخبر Diomedes زملاءه بهذا الأمر السلطاني ، فيتناولون الطعام ، وقد استولى عليهم الحزن والقلق ، ثم يستغرقون في نوم عميق طويل يسلِّطه الله عليهم ، ولمَّا لم يهتدِ الإمبراطور إلى هؤلاء الشباب ، طلب آباءهم فأبدوا براءتهم عن هذا التهرُّب ، وأن تكون لهم يَدٌ في هذه المؤامرة ، وأخبروه بأنَّهم متستِّرون في جبل Anchilus ، وهنا يأمر الإمبراطور بأن يسدّ مدخل هذا الكهف بحجارة كبيرة ، فيموتوا هناك حتف أنوفهم ، ويبقوا موءودين في هذه المغارة ، ويكتب مسيحيان ، أحدهما Theodore ، والآخر Rufinus قصة هؤلاء الشهداء الشباب على لوحة من معدن ، ويدفنانها تحت الحجارة التي سدّ بها الغار .

وبعد أن مضى عليهم ثلاثمئة وسبع سنوات في عهد الإمبراطور ثيودوسيس الثاني Theodosius تقوم ثورة يقودها بعض المسيحيين ، وتنكر جماعة منهم على رأسهم القس ثيودر Theodore عقيدة بعث الأموات ، وإمكان حشر الأجساد ، فيفزع ذلك الإمبراطور المسيحي ويشغل باله ، وهنا يلهم الله ملاَّكاً اسمه Adolius أن يبني زريبة لغنمه في الميدان الذي يقع فيه هذا الكهف ، ويستخدم البنَّاؤون لبناء هذه الزريبة الحجارة التي سدَّ بها هذا الغار ، وهكذا ينكشف هذا الكهف ، ويوقظ الله هؤلاء الشباب في هذه الساعة ، فيخطر

ببالهم أنَّهم ناموا ليلة ، ويتواصَوْن بأن يموتوا شهداء على يد « ديسيس » إذا ألجأتهم الضرورة .

ويذهب أحدهم وهو Diomedes إلى المدينة كالعادة ، ويقف حائراً أمام الصليب المنقوش على رتاج المدينة ، حتى يضطر إلى أن يسأل أحد السابلة ، هل هي مدينة أفسيس حقَّاً ؟ ويصبح توَّاقاً إلى إخبار زملائه بهذا الانقلاب العظيم ، ولكنه يملك عاطفته ويشتري الطعام ، ويقدّم ثمنه النقود التي كان يحملها ، وهي العُملة التي كان يتعاطاها الناس في عهد ديسيس ، ويعتقد صاحب الدكَّان وأهل السوق أنَّ الشاب قد عثر على رِكاز قديم ، ويريدون أن يكون لهم نصيب فيه ، ويهدِّدون الشاب ويخوِّفونه ، ويقودونه من بين وسط المدينة وأسواقها ، ويتألَّب عليه الناس ، ويبحث الشاب في هذا الجمع الحاشد عن رجل يعرفه ، فلا يجده ، ويستخبره الأسقف حاكم البلد عن شأنه ، فيخبره بالقصة بطولها ، ويدعوهم إلى أن يرافقوه إلى الكهف ، ويزوروا زملاءه الآخرين ، فيرتقون قلَّة الجبل ، وهناك يجدون لوحتين رصاصيَّتين تصدِّقان قصَّة الشاب ، فيدخلون الكهف ويجدون زملاءه أحياء ، يَغشى وجوههم النور والسكينة .

ويَنْمى الخبر إلى الإمبراطور Theodosies فيزور الكهف ، وهنا يقول له Maximilian أو Achillides أو شاب آخر ، إنَّ الله سبحانه وتعالى قد سلَّط عليهم النوم ليبرهن على الحشر والنشر ، ثم أيقظهم قبل أن تقوم القيامة ، وبعد ذلك مات الشباب موتهم الأخير ، وقد بُني هيكل رومي في تذكارهم[١] .

أما مكانة هذه القصة التاريخية ، فلا يشك كبار المؤرخين والناقدين

---

(١) Article «Seven Sleepers», Encyclopaedia of Religion & ethics.
وقد ساق هذه القصة بطولها ابن جرير الطبري وغيره من المفسِّرين وعلماء المسلمين في كتبهم برواية محمد بن إسحاق . وقد وقعت فيها أوهام لعدم ذيوع المصادر المسيحية في عهدهم ، وعدم إحاطتهم بالتاريخ الروماني قبل أن تصبح النصرانية دين الدولة الرسمي . راجع تفسير ابن جرير ( على سبيل المثال ) ج١٥ ص١٢٣ ـ ١٢٦ ، ولذلك عدل العلامة الندوي عن نقلها هنا، واقتصر على المصادر المسيحية الأصلية.

للأساطير الشائعة في صحَّتها وإمكان وقوعها لشهرتها واستفاضتها في العالم المسيحي ، وتناقل الأجيال والكتب لها ، يقول « جبون » الذي يجنح دائماً إلى تزييف مثل هذه الأخبار الغريبة :

« إنَّ هذه القصة الغريبة لا يمكن أن تُحمل على مجرَّد خرافة الإغريق ومغالاتهم الدينية ، فقد اتَّصلت الروايات الموثوق بها وتسلسلت إلى خمسين سنة بعد وقوع هذه المعجزة ( المفروضة ) ، وقد خصَّص قسٌّ سوري وُلِدَ بعد الإمبراطور ثيودوسيس الأصغر بسنتين اسمه James of Sarus رواية من رواياته التي يبلغ عددها إلى مئتين وثلاثين لمدح شبَّان أفيسيس ( أصحاب الكهف ) . وقبل أن ينقضي القرن السادس المسيحي نُقلت قصة أصحاب الكهف هذه من اللغة السورية إلى اللغة اللاتينية بعناية غريغوري Gregory of Tours ، وقد حفظت ذكرى أصحاب الكهف في اجتماعات العشاء الرَّبَّاني في الشرق المسيحي بإجلال واحترام ، ودُوِّنت أسماؤهم باحترام بالغ في الأعياد الرومية والتقويم الروسي ، ولم تنحصر شهرتهم في العالم المسيحي فحسب »[١] .

أمَّا عدد الأعوام التي قضوها في المنام ، فهو يتراوح بين ثلاثمئة سنة ، كما نقله المفسِّرون الإسلاميُّون عن المسيحيين ، وثلاثمئة وسبع سنين ( كما جاء في مقالة دائرة المعارف للأخلاق والديانات ) ، أما التفاوت بين ثلاثمئة سنين وثلاثمئة سنين وتسع سنوات كما جاء في القرآن ، فقد حمله المفسرون المتقدِّمون على التفاوت بين التقويم الشمسي والقمري ، قال ابن كثير : « وهذا خبر من الله تعالى لرسوله ﷺ بمقدار ما لبث أصحاب الكهف في كهفهم ، منذ أرقدهم إلى أن بعثهم الله ، وأعثر عليهم أهلَ ذلك الزمان ، وأنَّه كان مقداره ثلاثمئة سنين تزيد تسع سنين بالهلالية ، وهي ثلاثمئة سنة بالشمسية ، فإن تفاوت ما بين كل مئة سنة بالقمرية إلى الشمسية ثلاث سنين ،

---

(١) راجع كتاب « سقوط روما وانحطاطها » لجبون ـ المجلد الثاني « النائمون السبعة » صفحة ٢٤١ ـ ٢٤٣ :

Modern Library Giant Series (U.S.A).

فلهذا قال بعد الثلاثمئة : ﴿ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا ﴾[١] .

ويستشكل على ما جاء في مقال دائرة المعارف الذي نقلناه ، وكتاب ( جبون ) ، على ما شاع على ألسنة الناس ، ونقل في أكثر كتب التفسير والتاريخ من أن اختفاء أصحاب الكهف ولجوئهم إلى كهفهم كان في عهد ديسيس الإمبراطور الروماني الذي يسميه المؤرخون العرب وعلماء المسلمين والعامة بدقيانوس ، وإنَّه كان نتيجة اضطهاده للعقيدة المسيحية ، وقسوته التي اشتهر بها في التاريخ ، وأنَّ ظهور أمرهم والعثور عليهم كان في عهد ثيودوسيس الثاني الإمبراطور المسيحي المؤمن ، يستشكل على كل هذا أنَّ الفترة بين عهدهما لا تزيد على مئتي سنة على الأكثر ، وعلى هذا الأساس تهكَّم « إدوارجبون » بالعدد الذي جاء في القرآن في تحديد مدة نومهم . والتجأ بعض المفسرين القدامى ، وبعض المفسِّرين العصريين[٢] ، ـ تفادياً من هذا الإشكال ـ إلى أنَّ ما جاء في القرآن : ﴿ وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا ﴾ [ الكهف : ٢٥ ] ، ليس من قول الله تعالى ومما قرره القرآن ، بل هو حكاية قول أهل الكتاب ، ومن ضمن مِرائهم وتخرُّصاتهم ، ومتَّصل بالكلام السابق ، وهو قوله تعالى : ﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ ﴾ [ الكهف : ٢٢ ] إلى آخر ما حكي عنهم من الجدال والاختلاف ، ونُسب ذلك إلى قتادة ، ومُطَرِّف بن عبد الله ، وروي فيه قراءة شاذَّة : « وقالوا ولبثوا في كهفهم ثلاثمئة سنين وازدادوا تسعاً » واستدل أهل هذه المقالة بتعقيبه تعالى على ذلك بقوله : ﴿ قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [ الكهف : ٢٦ ] . قالوا : فلو كان ذلك تقريراً من الله لما عقَّب عليه بهذا التفويض إلى علم الله ، ونقل هذا التفسير عن ابن عباس أيضاً ، ولكن قال العلَّامة الآلوسي : « ولعلَّ هذا لا يصحُّ عن الحبر رضي الله عنه ، فقد صحَّ عنه القول بعدة أصحاب الكهف سبعة وثامنهم كلبهم مع أنَّه تعالى عقَّب القول بذلك بقوله سبحانه ، ﴿ قُل رَّبِّى

---

(١) راجع تفسير ابن كثير ـ سورة الكهف .

(٢) كالعلَّامة جمال الدين القاسمي ، في « التفسير القاسمي » ، والأستاذ أبي الأعلى المودودي ، في « تفهيم القرآن » .

أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم ﴾ [ الكهف : ٢٢ ] ، ولا فرق بينه وبين قوله تعالى : ﴿ قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ ﴾ [ الكهف : ٢٦ ] ، فلِمَ دلَّ هذا على الرد ، ولم يدلَّ ذاك[١] ؟ .

وردَّه بعض كبار العلماء ، وقالوا : إنَّ الذوق العربي السليم يأباه ، ولا يتبادر إليه ذهن القارىء ، إذا لم يكن مطَّلعاً على هذا التأويل والتفصيل ، قال الإمام الرازي : « وأما قوله ﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ ﴾ فهو كلام قد تقدَّم ، وقد تخلَّل بينه وبين هذه الآية ما يوجب انقطاع أحدهما عن الآخر ، وهو قوله : ﴿ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا ﴾ [ الكهف : ٢٢ ] وقوله : ﴿ قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [ الكهف : ٢٦ ] ، لا يوجب أنَّ ما قبله حكاية ، وذلك لأنَّه تعالى أراد بقوله : ﴿ قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [ الكهف: ٢٦ ] ، فارجعوا إلى خبر الله دون ما يقوله أهل الكتاب »[٢] .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية : « ( إن ) بعض المفسرين زعموا أنَّ هذا قول بعض أهل الكتاب ، لقوله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ ﴾ وليس كذلك فإن الله لم يذكر هذا عن أهل الكتاب ، بل ذكره كلاماً منه تعالى »[٣] .

إنَّ مصادر هذا الإشكال والتناقض المفروض بين العدد الذي يقرِّره القرآن ، وبين العدد الذي يقرِّره « جبون » ، والذي يبني على استعراض التاريخ الروماني ، هو ما اشتهر من أنَّ حادثة اختفاء الفتية ولجوئهم إلى الكهف قد وقعت في عهد « ديسيس » الذي حكم بين سبتمبر سنة ٢٤٩م ويونيو ٢٥١م ، ولعلَّ الذي جعله بطل هذه القصَّة ما اشتهر عنه من قسوة ومن سفك للدماء ، واضطهاد عام للمسيحيين ، وإجبار على تقديم الذبائح والقرابين الدينية أمام رجال الحكومة المعينين ، والأمر بالحصول على الشهادات منهم[٤] .

---

(١) روح المعاني ، سورة الكهف .

(٢) راجع تفسير الكبير للإمام الرازي ، سورة الكهف ، الجزء الثالث .

(٣) « الجواب الصحيح لمن بدَّل دين المسيح » .

(٤) راجع دائرة المعارف البريطانية ، مقال « ديسيس Decius » ٧ ، ص١٥٧ ، طبع ١٩٦٣م ، ولا يخفى على المطَّلع على التاريخ الروماني أن ديسيس لم يكن مخترع =

ولكن الذي يشكِّك في تعيين هذا الإمبراطور ليكون مسؤولاً عن هذه الحادثة ، وبطل القصَّة ، هو أنَّ مدة حكمه كانت قصيرة جدَّاً ، لا تبلغ سنتين ، وأنَّه قضى أكثر هذه المدة في الحروب مع القوط ، وقد مات قتيلاً بأيديهم على شاطىء نهر « الراين Rhine » في فرنسا ، ومن المحتمل أن يكون قد وجد فرصة للقيام بجولة في المدن الشرقية اليونانية التابعة لمملكته العظيمة الواسعة ، ولم يذكر التاريخ له رحلة إلى بلاد الإغريق ، والمملكة الشرقية ، وقد جاء في تاريخ المؤرخين للعالم ، أنَّ مدة « ديسيس » كانت قصيرة جدَّاً وهادئة ، ولم يكد يتولَّى الحكم حتى اضطر إلى التوجه إلى « كَال » لقمع ثورة قامت هناك ، وانقضت مدة حكمه كلها في الحروب مع القوط »[١] ، وقد ذكر المؤرخون أسماء أولئك القادة المسيحيين الذين عاقبهم الإمبراطور على عدم خضوعهم لمرسومه ، ولم يذكروا فيه أصحاب الكهف ، ولم يكن عدد الذين عوقبوا من المسيحيين كبيراً ، فقد ذكر « جبون » نفسه « أنَّ عدد المعاقبين والمعذَّبين لم يتجاوز عشرة رجال وسبع نساء »[٢] .

ثم إنَّ حادثة اختفاء رهط من المسيحيين حادثة محلية لم تكن من الأهمية في وقت حدوثها بمكان يلفت إليه أنظار المؤرخين ، ويحرص على تدوين تاريخها المؤلفون ، بخلاف يقظتهم من هذا النوم الطويل الخارق للعادة ، وخروجهم إلى البلد ، وانتشار صيتهم في الآفاق ، وبعد أن تدوّي الأوساط الدينية بخبرهم ، فوقوع هذه الحادثة الثانية ، حادثة انتباههم من النوم ، وانتشار خبرهم في العالم المسيحي في عهد ثيودوسس من الحوادث

---

= هذا المرسوم ولا صاحب الفكرة فيه ، بل قد سبقه « تراجان » إلى ذلك بمدة طويلة ، وهو الذي أصدر هذا المرسوم وطبَّقه على المملكة ، وقد أعدم في عهده بطريق القدس وبطريق حلب لأنهما كانا مسيحيين ، راجع :

History of the Christian Charch by George H.Dryer.p.65-66.

(١) اقرأ تفصيل الحروب والمعارك مع القوط ، وهلاك الإمبراطور ديسيس بأيديهم في المجلد السادس لتاريخ المؤرخين ص٤١٣ .

(The Historian's History of the world. London,(1908) vlo vl p.413)

(٢) « سقوط روما وانحطاطها » لجبون الجزء الثاني ص ٩٨ .

المستفيضة المدوِّية في الآفاق الشاغلة للنوادي والمحافل ، التي يحرص المؤرخون على تدوينها وتسجيلها ، ويتنافس النَّقَلة والرواة في نقلها وحكايتها ، فنرجِّح أنَّ حادثة الاضطهاد والاختفاء وقعت في عهد الإمبراطور هادرين[١] ( Hadrian PuBlius( Aelius Hadrinus ) الذي حكم طويلاً ، ويذكر التاريخ أنَّه قام بجولة في الولايات الشرقية ، دامت من ١٢٩م إلى ١٣٤م ، ولا يلزم أنَّ هذا الاضطهاد قد وقع على يده مباشرة أو بإيعاز منه ، ولا يلزم كذلك أن يكون قد علم به وارتضاه ، فقد اتَّسعت الإمبراطورية الرومية في ذلك العهد اتِّساعاً كبيراً ، وانتشر الولاة والحكَّام في ولاياتها ومدنها ، فمن المعقول

---

(١) حكم هادرين من سنة ١١٧م إلى ١٣٨م ، وقد ولي الحكم بعد « تراجان » ، وقد أقرَّه المجلس في شهر أغسطس سنة ١١٧ المسيحي ، واجتهد في أن يعيد إلى المدن اليونانية نضارتها الزائلة ، وأقام سدَّاً على الحدود الرومية ، وقد قام اليهود في سنة ١٣٢ بثورة قمعها ، وظهرت القسوة في قمع هذه الثورة ، والتغلب عليها . وأمر بإجلاء اليهود ، فكان لا يسمح ليهودي بالدخول في القدس إلا مرَّة واحدة في السنة ، ومن ذلك العهد تحقَّق جلاء اليهود في شكل مستمر . ( دائرة المعارف لتاريخ العالم ج ـ ٢ ) .

وقد قام في سنة ١١٩م بجولة رسمية في آسيا الصغرى ، وسورية ، وعقد مجلساً في « سمرنا » دعا إليه ملوك الشرق وأمراءه ، وقضى فصل الشتاء في « حلب » ، وتوجَّه في سنة ١٣٠م إلى الجنوب ، وأمر بإنشاء مدينة على أطلال مدينة « قدس » ، ثم وصل إلى مصر عن طريق بلاد العرب ، واضطر إلى العودة إلى « فلسطين » في سنة ١٣٣م ، حيث قاد حركة القضاء على ثورة اليهود ، ثم أسند القيادة إلى القائد المعروف جيوليس سيورس ( Julius Serverus ) وعاد إلى « رومية » ، ومات الإمبراطور في Baiae في العاشر من تموز سنة ١٣٨م .

« إنَّ حياة هادرين مجموع متناقضات وأضداد » ( دائرة المعارف البريطانية ج١١ ) .

وقد جاء في كتاب « تاريخ الكنيسة المسيحية » لصاحبه H.Dryer George « أنَّ هادرين وإن كان يختلف عن الرومان القدماء ، « كان تقدمياً » ومتفحصاً في الأمور الدينية ومتشككاً فيها ، وإن كان قد أشار بالعدول عن التهمة الاجتماعية ، والرمي بالزندقة بالإطلاق ، ولكنه بقي محافظاً على سياسة « تراجن » في إجبار « الزنادقة والمارقين » ( وجلُّهم مسيحيون ) على تقديم الذبائح والقرابين للآلهة ، والتمسُّك بالديانة الوثنية الرومية » ص ـ ٦٦ .

جدّاً أن يقوم أي حاكم أو والٍ بعملية اضطهاد ديني أو مطاردة دينية وفقاً لاتجاهه الخاص وحماسه الديني ، أو تطبيقاً لسياسة الدولة العامة إزاء الديانة الحديثة وتتخطى في ذلك الحدود ، وهذا يقع في كل حكومة وعهد .

فإذا قرَّرنا أنَّ اضطهادهم واختفاءهم كان في أثناء هذه الجولة ، وظهورهم في عهد ثيودوسس ، لم يكن هناك تفاوت كبير بين عدد المسيحيين وعدد القرآن ، ولم يكن هناك أساس لتهكُّم « جبون » ، فإنَّ بداية هذه القطعة ونهايتها لا تعرفان بالتحديد الزمني الدقيق ، وقد اضطربت أقوال المؤرخين السوريين ، والمؤرخين الإغريق في تعيين سنة اليقظة والخروج ، فالمؤرخون السوريون يزعمون أنَّها ٤٢٥م أو ٤٣٧م ، وتقول الروايات الإغريقية ، أنَّ الخروج كان في السنة الثامنة والثلاثين من حكم « ثيودوسس » الثاني[١] ، معنى ذلك أنها كانت في سنة ٤٤٦م[٢] . ونؤمن بأن القرآن الذي جاء مهيمناً على الكتب السابقة ، أحق بالتعويل والاعتماد عليه من هذه الروايات المضطربة ، والأساطير والمصادر ، التي كانت عرضة للتغيير والزيادة والنقص ، وقد ظهر الاضطهاد الديني للمسيحية في شكل سافر من عهد نيرون ( ٦٤م ) ، واستمرَّ إلى أن كانت المسيحية ديانة أباطرة الروم بشكل عام ، واعتنق قسطنطين النصرانية في القرن الرابع المسيحي ، ولا يزال تاريخ المسيحية الأول يكتنفه الشيء الكثير من الغموض لغرابتها وضعفها ، ويعوزه التدوين التاريخي الذي يعتمد عليه .

وطبيعة اختفاء جماعة قليلة العدد في مدينة صغيرة لم تحتل المكانة الأولى المرموقة في المملكة ، تختلف اختلافاً كبيراً عن الظهور الذي اقترن به عناصر الغرابة الكثيرة في عهد ملك يدين بديانتهم ، ويقدِّر هذا الحادث كل تقدير في زمن أصبحت فيها عقيدة الحشر والنشر ، والحياة بعد الموت موضوع جدال عنيف ، ونقاش كبير ، واشتدت الحاجة فيه إلى برهان ساطع على

---

(١) راجع ( جبون ) .
(٢) حكم ثيودوسس من ٤٠٨م إلى ٤٥٠م .

إمكانه ووقوعه ، فنهاية هذه القصة وتحديد العهد الذي انتبه فيه أصحاب الكهف واشتهر أمرهم ، لا يقبل شكّاً ولا مراءً ، فقد عرفت الطبيعة البشرية بالحرص على الاحتفاظ بمثل هذه الحوادث الجسام وتتبُّعها ، وتتوافر الدواعي الدينية والعاطفية والعقلية على تحقيقها وتسجيلها للأجيال القادمة بخلاف بداية هذه الرواية ، ومقدمة هذه الحادثة ، والله أعلم بحقيقة الحال[١] .

## حكمة اختيار القرآن لهذه القصة :

تمسَّك المفسِّرون في سبب ورود هذه القصة الغريبة في القرآن ، بما رواه محمد بن إسحاق عن بَعْث قريش وفد منهم إلى أحبار يهود بالمدينة وسؤاله إيَّاهم يختبرون بها صدق النبي ﷺ ، واتِّصاله بالسماء ، فاختاروا لهم أسئلة فيها سؤال عن أصحاب الكهف[٢] ، وهذه الرواية إن صحَّت ، فليست هي

---

(١) نُشر هذا المقال حتى هنا في مجلة « البعث الإسلامي » في عدديها الثاني والتاسع ، المجلد السادس عشر ، عام ١٩٧٢م .

(٢) قال ابن جرير : حدَّثنا أبو كريب ، قال حدَّثنا يونس بن بكير عن محمد بن إسحاق ، قال : حدَّثني شيخ من أهل مصر قدم منذ بضع وأربعين سنة عن عكرمة عن ابن عبَّاس . قال : بعثَتْ قريش النضر بن الحارث وعقبة بن أبي مُعَيط إلى أحبار يهود بالمدينة ، فقالوا لهم : سَلوهم عن محمد ، وصِفوا لهم صفته ، وأخبروهم بقوله ، فإنَّهم أهل الكتاب الأوَّل ، وعندهم علم ما ليس عندنا من علم الأنبياء ، فخرجا حتى قدِما المدينة ، فسألوا أحبار يهود عن رسول الله ﷺ ، ووصفوا لهم أمره وبعض قوله ، وقالا : إنَّكم أهل التوراة ، وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا ، قال : فقالت لهما أحبار يهود : سلوه عن ثلاث نأمركم بهنَّ ، فإنْ أخبركم بهنَّ فإنَّه نبي مرسَل ، فإنْ لم يفعل فالرجل متقوِّل ، فَرُوا فيه رأيكم : سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأوَّل ، ما كان أمرهم ، فإنَّه قد كان لهم حديث عجيب ! وسلوه عن رجل طواف بلغ مشارق الأرض ومغاربها ، ما كان نبؤه ؟! وسلوه عن الروح ما هو ؟ فإن أخبركم عن ذلك فإنَّه نبي فاتَّبعوه ، وإنْ هو لم يخبركم ، فهو رجل متقوِّل ، فاصنعوا في أمره ما بدا لكم . فأقبل النضر وعقبة حتى قدِما مكة على قريش فقالا : يا معشر قريش ، قد جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمَّد ، قد أمرنا أحبار يهود أن نسأل عن أمور ، فأخبروهم بها ، فجاؤوا رسول الله ﷺ ، فقالوا : يا محمَّد أخبرنا ، =

السبب الرئيسي ، والسبب الوحيد لاختيار القرآن لهذه القصة ، من بين قصص الاضطهاد الكثيرة ، والقصص الغريبة ، التي لا سبيل إلى معرفتها ، والإخبار بحقيقتها إلَّا الوحي ، وإنَّ قصص أسباب النزول ، وإن أفاض فيها المفسِّرون ، وعُني بها العلماء المتقدِّمون العناية الكبيرة ، لا تحتلّ المكانة التي أحلَّها فيها كثير من العلماء .

وقد كان في مقاصد الإصلاح والتعليم التي جاء لتحقيقها القرآن ، وفي البيئة الفاسدة الموبوءة التي بُعث فيها الرسول ﷺ ، ونزل فيها القرآن ، وفي طبيعة البشرية التي لا يختلف اختلافاً كثيراً ، وفي الأزمان والبيئات التي تتوالى وتتجدَّد ، والحوادث التي تتعاقب وتتكرر ، وفي الأجيال البشرية التي سيخاطبها القرآن ، وتقودها النبوَّة المحمَّدية على اختلاف الأعصار والأمصار ، كان في كلِّ ذلك دواعٍ أقوى وأحقّ بالاستجابة ، وأسباب أظهر وأجدر بالاهتمام من سؤال طائفة ، أو امتحان جماعة ، ومن قصة يرويها بعض الرواة في سبب نزول آية أو سورة .

ويعجبني في ذلك ما قاله شيخ الإسلام أحمد بن عبد الرحيم المعروف بولي الله الدهلوي ، في كتابه الفريد « الفوز الكبير » في أصول التفسير ، قال رحمه الله :

« وعامة المفسِّرين يربطون كلّ آية من آيات المخاصمة ، وآيات الأحكام

---

= فسألوه عما أمروهم به ، فقال رسول الله ﷺ : أخبركم غداً بما سئلتم عنه ، ولم يستثنِ ، فانصرفوا عنه ، فمكث رسول الله ﷺ خمس عشرة ليلة لا يحدث الله إليه في ذلك وحياً ، ولا يأتيه جبرائيل عليه السلام حتى أرجف أهل مكَّة وقالوا : وَعَدنا محمد غداً واليوم خمس عشرة قد أصبحنا فيها لا يخبرنا بشيء عما سألناه عنه ، وحتى أحزن رسول الله ﷺ مُكْث الوحي عنه ، وشقَّ عليه ما يتكلَّم به أهل مكَّة . ثمَّ جاءه جبرائيل عليه السلام من الله عزَّ وجلَّ بسورة فيها أصحاب الكهف معاتبة إيَّاه على حزنه عليهم وخبر ما سألوه عنه من أمر الفتية ، والرجل الطوَّاف ، وقول الله عزَّ وجلَّ : ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [ الإسراء : ٨٥ ] ( ابن جرير الطبري ج ـ ١٥ ، ص١١٨ ـ ١١٩ ) .

بقصَّة ، ويعتقدون أنَّ تلك القصَّة كانت سبب نزولها ، والمحقَّق أنَّ الغاية الأساسية من نزول القرآن ، هي تهذيب النفوس البشرية ، والقضاء على العقائد الباطلة ، والأعمال الفاسدة ، فوجود العقائد الباطلة في المكلفين سبب مستقل لنزول آيات المخاصمة ، ووجود الأعمال الفاسدة وانتشار المظالم فيما بينهم سبب كافٍ لنزول آيات الأحكام ، وعدم انتباههم وازدجارهم بما جاء في القرآن من ذكر آلاء الله ، وأيام الله ، وما يقع عند الموت وبعده ، علَّة حقيقية لنزول آيات التذكير . أما القصص الجزئية ، والحكايات المعينة التي أتعب المفسِّرون نفوسهم في نقلها ، وأطالوا النَّفَس في ذكرها ، والحديث عليها ، فليس لها دخل كبير ، ولا أهمية ذات بال ، إلَّا في بعض الآيات ، حيث وقع التعريض فيها لحادثة من الحوادث وجدت في زمنه ﷺ ، أو قبل ذلك ، ولا يزول ما يعرض للسامع من التشوُّق عند سماع ذلك التعريض إلا بسط هذه القصَّة »[1] .

وقد جاءت هذه القصَّة في أوانها ومكانها ، فقد كان المسلمون في مكَّة يواجهون نفس الأوضاع التي واجهها الفتية في أوج الاضطهاد والاستبداد في عهد القياصرة ، وكانوا يعيشون في فترة تشبه الفترة التي عاش فيها الفتية المؤمنون قبل أن يغادروا البلد ، ويلجؤوا إلى الكهف ، ولا تصوير أبلغ من تصوير القرآن ، ﴿ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ ﴾ [ الأنفال : ٦٢ ] ، ودواوين الحديث ، وكتب السيرة تفيض بقصص الظلم والقسوة والتعذيب والتنكيل ، وتحكي من أخبار محنة بلال ، وعمَّار ، وخبَّاب ، ومصعب ، وسُمية وأصحابهم ما تقشعرُّ منه الأبدان ، ويشمئزُّ منه الوجدان ، ويصوِّر القرآن والسيرة الجو الرهيب الخانق ، الذي أحاط بالمسلمين في مكة . . الجو الذي لا تظهر فيه بارقة أمل ، ولا يتفتَّح فيه منفذ يدخل منه النور والهواء ، فكأنَّهم كانوا بين طِبْقي الرَّحَى ، وفي براثن الأسد الضاري ، ولا تعبير أدقَّ من التعبير القرآني ، ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا

(١) منقولًا إلى العربية عن الأصل الفارسي .

﴿ رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ﴾[1] [ التوبة : ١١٨ ] ، هنالك ينزل الوحي ، ويقصّ عليهم القرآن قَصَص الفَرَج بعد الشِّدّة ، واليُسْر بعد العُسر ، والعزَّة بعد الذُّلّ ، ونزول نصر الله من فوق سبع سموات خارقاً للعادة ، مكذِّباً لكل قياس ، هادماً لكل تجربة ، متحدياً لكل عقل ، كيف أدال الله قلَّة مؤمنة ، وحَفْنة من البشر ، مجرَّدة من كلِّ قوة وسلاح ، من الكثرة الكاثرة ، الكافرة الفاجرة ، الظالمة الغاشمة ، المالكة للحول والطول ، المستحوذة على القوى والطاقات ، والذخائر والوسائل ، وكيف أخرج الحيَّ من الميت ، والميتَ من الحيّ ، وأطلع النور من الظلمة ، وجعل من الأعداء القاتلين الذين وَلَغوا في الدماء ، وأكلوا الأكباد ، حماة حارسين ، وآباء مربِّين ، وكيف ورث الابن المؤمن الأب الكافر .

## شبَهٌ بين الممتحنين في مكّة وأصحاب الكهف :

فقصَّ الله في هذه الفترة الرهيبة ، التي يستولي فيها اليأس والتشاؤم ، وتزيغ فيها الأبصار ، وتبلغ القلوب الحناجر ، قصة يوسف مع إخوته ، وقصة موسى مع فرعون ، وهي قصة فرد وجماعة ، وقصة نبي وأمَّة ؛ وقصَّ عليهم قصة أصحاب الكهف مع الملك الجبَّار ، والسلطان الطاغية ، وهي قصص تختلف عصورها وبيئاتها ، وتختلف فيها الأشخاص الذين تدور حولهم القصَّة ، وتتَّفق في غاياتها ، وتتشابه في نهايتها ، وتلتقي على نقطة واحدة ، وهي الإرادة القاهرة ، التي تنصر المؤمن على الكافر ، والبَرَّ على الفاجر ، والمظلومَ على الظالم ، والضعيف على القويّ ، والفقير على الغني ، بطرق تحار منها الألباب ، وتَشْده بها العقول ، يؤمن بها الكافر ، ويوقن بها المتشكِّك . فيقول في آخر قصة يوسف : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [ يوسف : ١١١ ] ، وقال في آخر سورة هود :

---

(١) نزلت الآية في الثلاثة الذين خُلِّفوا ، وهم : كعب بن مالك ، وهلال بن أميَّة الواقفي ، ومرارة بن ربيع . والآية مدنية .

﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [ هود : ١٢٠ ].

وما أشبه المسلمين في مكَّة بالفتية المؤمنين الذين لجؤوا إلى الكهف فراراً بدينهم من الفتن ، فَبَقوا فيه إلى أن قلَّب الله الليل والنهار ، وانقرضت الدولة الكافرة المضطهِدة لأهل الإيمان والعقيدة ، وطُوي بساطها ، وجاء على عرش روما ـ الذي اقترن قروناً طوالًا بالحكم الوثني المشرك ، والملك العضوض الفاجر ـ مَنْ يحمي ديانة المسيح ودعوته ، ويفتخر بالنسبة إليها ، وحمل رايتها ، ويُقدِّر كل من أبلى فيها بلاءً حسناً ، ويحيطه بهالة من الإجلال والتكريم ، والحب والتعظيم ، وكذلك عاش المسلمون في مكة ما عاشوا ، متمسِّكين بدينهم ، كأنَّهم قابضون على الجمر ، واقفون على الرضف ، حتى جاء الفَرَج ، وأُذِنَ لهم بالهجرة ، فرجعوا إلى حِصْنٍ حصين ، وكهفٍ متين ، هي مدينة يثرب ، ولكنَّ الله أراد بهم أكثر مما أراد بالفتية المؤمنين ، اللاجئين إلى الكهف في القرن الثاني المسيحي ، أراد أن يُظهر بهم دينه على الدين كلِّه . ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾ [ التوبة : ٣٣ ] ، وقَرَن البعثة المحمَّدية ـ وهي الرسالة الأخيرة التي خُتمت بها الرسالات ـ ببَعْثة أمّة ، فقال : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾ [ آل عمران: ١١٠ ]. ويقول الرسول : « إنَّما بُعثْتُم ميسِّرين ولم تُبعَثوا معسِّرين »[1] ، فلم يكن يجدر بهذه القلَّة المؤمنة كهف ضيِّق محدود يبقون فيه بعيدين عن الحياة ، عاجزين عن كلِّ نشاط ، وعليهم تقوم الدعوة ويتوقَّف مستقبل الإنسانية ، وهم ملح الأرض ـ في لغة المسيح عليه السلام ـ والبذرة التي ينبت بها الزرع الكريم ، الذي فيه حياة الإنسانية ، وقيام للناس ، فهي أكرم على الله من أن تضيع ، وتنام بعد اليقظة ، وتنطوي في العزلة ، فهي تدعو إلى دين الله ، وتكافح الباطل وتقاومه ، وتجتهد لترفع الظلم عن الإنسانية كلّها ، ولتكون

(١) رواه الترمذي : عن أبي هريرة رضي الله عنه .

كلمة الله هي العليا ، ﴿ .. حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ﴾ [ الأنفال : ٣٩ ] .

وقد خرج رائد « أصحاب الكهف » فوجد الناس غير الناس ، والمدينة غير المدينة ، والدين غير الدين ، وجد دينه هو الذي يحكم ويسود ، وعقيدته هي التي تُكرَّم وتُشرَّف ؛ وكذلك لمَّا خرج المهاجرون من المدينة إلى مكة استقبلتهم بغير الوجه الذي كانت تستقبلهم به ، وإذا براية الإسلام تخفق وتعلو ، ومفتاح الكعبة بيد الرسول يضعه حيث يشاء ، وإذا بالناس يدخلون في دين الله أفواجاً ، وإذا بالإسلام هو مصدر كل شرف وكرامة ، وإذا بالوثنية هي موضع كل ذلّ وإهانة ، وإذا بطُرَداء الأمس هم سادة الناس ، وأساتذة الخلق في كلِّ شيء ، فما أشبه قصَّة أصحاب الكهف بقصة أهل مكة المؤمنين ، والفتية المهاجرين ، مع فرق يسير ، اقتضته طبيعة الإسلام وحاجة الإنسانية .

## التاريخ يعيد نفسه مرة بعد مرة :

وقد كتب الله لهذا الدين الخلود ، ولهذه الأمة البقاء ، والانتشار في العالم ، فاستلزم ذلك أن تمرَّ بجميع المراحل التي مرَّت بها أمم كثيرة في عهود كثيرة ، وأن تواجه دعوتها جميع المراحل الطبيعية ، التي تحتوي عليها الحياة الإنسانية ، من ضعف وقوَّة ، وقلَّة وكثرة ، وفتح وهزيمة ، وموافقة ومعارضة . وكثيراً ما تتعرَّض جماعات تقوم بالدعوة وتستقيم على العقيدة لاضطهاد فظيع ، وتعذيب وتنكيل ، ونفي وتشريد ؛ وقد يكون ذلك في ظلِّ حكومات كافرة ، وقد يكون ذلك في ظلِّ حكومات تتسمَّى بالإسلام ، ويقودها رجال ينطقون بكلمة التوحيد ، ويبنون المساجد ، ويقيمون الموالد والمهرجانات الدينية ويحتفلون بالأعياد الإسلامية ، والشعائر الدينية ، ولكنَّهم أحياناً يعتبرون الدعوة الإسلامية ، والعقيدة الصحيحة ، أكثر خطراً وأعظم ضرراً ، على كيانهم ومقاصدهم ، من الدعوات الجاهلية ، والخرافات الوثنية ، والأفكار الهدَّامة ، والفلسفات الملحدة ، فتعود قصة الكهف في

أرض الإسلام من جديد ، ويبدأ الصراع بين القلّة المؤمنة الضعيفة ، والكثرة « المنافقة » القوية ، وهنالك يجد هؤلاء الفتية روحاً ونوراً في قصّة أصحاب الكهف : ﴿ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴾ [ الكهف : ١٣ ـ ١٤ ] .

وقد تشتدُّ هذه الحال ، ويضيق الخناق ، ويستحيل الجمع بين الحياة والحرية ، وبين الإيمان والعقيدة ، فلا تبقى للمسلمين حيلة إلّا الفرار من المجتمع ، واللجوء إلى العزلة ، وتلك حالة لا تعرض إلّا في أحقاب متطاولة ، وأزمات نادرة ، ولكن لسان النبوّة قد أنبأ بذلك ، لأنَّ النبوّة المحمّدية هي نبوّة الأزمان كلِّها ، وهي المرشدة في الأحوال كلها ، فقال رسول الله ﷺ : « يوشك أن يكون خير مال المسلم غنماً يتبع به شَعَف الجبال ومواقع القطر يفرُّ بدينه من الفِتن »[1] ، وهنالك تغيثه سورة الكهف ، وتنير له الطريق .

* * *

(١) رواه البخاري : عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .

# قصة أصحاب الكهف في ضوء القرآن

والآن ، أستعرض قصة أصحاب الكهف في ضوء القرآن ، وفي إطار قَصَص واسع تُلمس فيه الحياة ، وتُستوحَى منه العِبَر والعظات .

## دولة الوثنية والخلاعة :

في مدينة من المدن الرومية الكبرى ـ إذا شئت سمَّيتها أفسُس أو أفسوس ـ في فجر التاريخ المسيحي ، بلغت المادية وما يتبعها من الوثنية السافرة ، والأبيقورية الوقحة أوجها وزَهْوها ، وقد شهد التاريخ بأنَّ الوثنية تقترن بها الخلاعة والشهوانية دائماً ، كأنَّ بينهما عَهْداً وحِلْفاً ، كذلك كان في الهند القديمة كما دلَّت الآثار والحفريات ، وكذلك كان في يونان ومصر ، وجزيرة العرب في الجاهلية ، واستهترت الحكومة ورجالها في عبادة الأصنام ، وعبادة الشهوات ، وعبادة المادة والقوة ، وانطلقت موجة عنيفة من الوثنية والشهوانية ، جرفت كلَّ القِيَم الروحية والخلقية ، وأصبح المجتمع ـ في هذه العاصمة ـ مجتمعاً مادياً محضاً ، لا يدين إلَّا بالمظاهر والمحسوسات ، ولا يؤمن إلَّا باللذات العاجلة ، والمنافع الحاضرة ، واستولت الحكومة ـ بطبيعة الحال ـ على جميع وسائل المعيشة والرفاهة في حدود المملكة ، وأصبحت مصدر الرخاء والثراء ، والمجد والشرف ، وأصبح اتِّباع عقيدتها واتجاهها ، وتقليد رجالها ، القنطرة الوحيدة للوصول إلى الحكم والغنى ، والمجد والشرف ؛ والْتفَّ حولها « الانتهازيُّون » وأصحاب الطموح من كلِّ جانب ، وأصبح الناس طرازاً واحداً أو قطعة واحدة من عُبَّاد الشهوات ، وعُشَّاق المناصب والوظائف ، وهواة الإقطاعات والولايات .

وألحَّت الحكومة ، وأسرفت في تطبيق عقيدتها وفرض اتِّجاهها على أهل البلاد ، وتتبَّعت كل من يخالفها في دين الوثنية ، واتجاه الإباحيَّة ، والتمتُّع

بالحياة ، فحرمته نعمة الحياة ، وسلبته حقوقه المدنية ؛ فأصبحت الحياة في هذه البلاد أسلوباً واحداً ، وصبغة واحدة من الخرافة والخلاعة ، لا يحتمل اختلافاً في اللون ، أو تنوعاً في العقيدة والأخلاق ، وأصبح الناس على اختلاف أجناسهم وطبقاتهم وأعمارهم ومدارك عقولهم ، نسخة واحدة من كتاب مطبوع في مطبعة متقنة .

**ثوّار مؤمنون :**

في هذه الدولة الوثنية الجائرة ، وفي هذا المجتمع المتهتّك الخليع ، وفي هذا المحيط الضيِّق المُطْبق ، وفي هذا الجو القاتم الخانق ، وُجِدَ رهط من الناس تسرَّبت إليهم دعوة المسيح ـ عليه الصلاة والسلام ـ فصادفت منهم عقولاً واعية وقلوباً خاشعة ، وضمائر حيَّة ، ففتحتها وملكتها ، وشغلت من نفوسهم كل مكان ، ومن قلوبهم وتفكيرهم كل جانب ، وأصبحت لهم إيماناً وعقيدة ، ولذَّة وقوَّة ، وبداهة ويقيناً ، فأصبحوا لا يعيشون بغيرها ، ولا يبيعونها بأكبر ثمن في العالم ، ولو كان هذا الثمن نفوسهم وحياتهم .

ومن هنا بدأ الصراع بدأ ذلك في نفوسهم أوَّلاً ، ثم في الخارج ثانياً ، وكذلك الصراع يبدأ دائماً في النفوس ، لقد اتَّجهوا اتِّجاهاً معارضاً للحكومة والمجتمع ، فالحكومة وثنية ، لا تقبل إلَّا الوثنية ، والمجتمع خليع لا يرضى إلَّا بالخلاعة ، ولا حياة ـ فضلاً عن الحكم والغنى ـ إلا بالحكومة والمجتمع . إن فلسفة الأسباب والمسبِّبات ، وإن دراسة المدنية والمجتمع ، وإنَّ واقع الحياة ؛ كل ذلك يفرض عليهم أن يخضعوا للحكومة والمجتمع ، فلا شبع من غير طعام ، ولا طعام من غير مال ، ولا مال إلَّا عند الحكومة ، ولا شَرَف ولا سمعة إلَّا بالجاه ، ولا جاه إلَّا بالوظيفة ، ولا وظيفة إلَّا عند الحكومة ، ولا هدوء ولا سلامة إلا بمسايرة الناس وموافقة المجتمع ، ولا موافقة إلَّا باتِّباع العقيدة السائدة والاتِّجاه العام !! هذا هو المنطق المادِّي يقوم على المشاهدة والتجربة ، وهذه طبيعة الأشياء .

ولكنَّهم يعارضون هذا المنطق « السليم » كما يسمِّيه أنصاره ، ويستوحون

إيمانهم وعقيدتهم ، فتجاوز نظرتهم النافذة المشهود الموجود ، ويتمثَّل أمامهم ما وراء هذا الشهود ، فيرون أنَّ وراء هذه الأسباب التي استولت عليها الحكومات واستحوذ عليها المجتمع سبباً آخر ، وهو الإرادة الإلهية التي خلقت هذه الأسباب ، وهي التي تسيِّرها من وراء الستار ، فمن أيَّدته هذه الإرادة القاهرة ، لم تؤثِّر فيه هذه الأسباب وأربابها ، ولم يحتج إلى أصحابها ، وسخَّر الله له الأحوال والأوضاع ، وجعلها مطابقة لحاله وحاجته ، وهيَّأ له من أمره رشَداً ومرفقاً ، وآتاه من لدنه رحمة ونعمة ، فلا حاجة إلى الخضوع إلى الأسباب الظاهرة ، والاستكانة إلى أصحابه الضعفاء الفقراء ، ولا بدَّ من الثبات على العقيدة .

وهنا ينتصر الإيمان على التفكير المادي ، ويغلب المنطق الإيماني على المنطق البرهاني ، وذلك موضع الاعتبار في القصَّة ومفتاحها : ﴿ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴾ [ الكهف : ١٣ ـ ١٥ ] .

## حياة من غير عقيدة ، أو عقيدة من غير حياة :

ولكن ما هو السبيل إلى البقاء على العقيدة ، وقد ضاقت الأرض على أهل الإيمان بما رَحُبَتْ ، وجعلت الحكومةُ البلادَ عليهم كفَّة حابل ، وسدَّت في وجوههم أبواب الرزق والحياة ، فإما حياة من غير عقيدة وخلق ، وإما عقيدة من غير حياة وحرية .

وهنالك يسعفهم الإيمان ، وينير لهم الطريق ، ويقنعهم بأنَّ في أرض الله سَعَة ، وفي نصرة الله ثقة ، وأنهم ليسوا مضطرين ـ بعدما تخلَّوا عن اللذات والمطامع ـ إلى البقاء في هذه القرية الظالم أهلُها ، وجَرَى على لسانهم : ﴿ وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴾ [ الكهف : ١٦ ] .

## منهج الصواب في حياة الانسحاب :

لقد كان لهم أن يهيموا في أرض الله على وجوههم ، ويمضي كل أحد منهم لسبيله ، أو يأوي كل فرد منهم إلى مغارة أرض ، أو قلّة جبل ، كما فعل المسيحيون في عصر رهبنتهم وانحطاطهم ، ولكنَّ الله ألهمهم أن يخرجوا مجتمعين ، فارّين بدينهم وعقيدتهم ، لاجئين إلى الله ، منتظرين منه الفرج القريب ، والنصر المبين ، وهذا هو منهج الصواب ، والطريق الأقوم ، كلّما ضاقت على أهل الإيمان الأرض ، وانسدت في وجوههم الأبواب ، وأشرف إيمانهم ودينهم على خطر وضياع .

## جائزة الإيمان والفتوّة والفرار إلى الله :

ثمَّ ماذا كان ؟ لقد حقَّقوا فيهم صفة الإيمان والفتوّة ، وهما الصفتان الأساسيتان في دستور النصرة الإلهية ، والتأييد الربّاني : ﴿ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ ﴾ [ الكهف : ١٣ ] ، فحقَّق الله لهم جميع مواعيده : وَعد الزيادة في الهداية ، ووعد التثبيت ، ﴿ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ [ الكهف : ١٣ ـ ١٤ ] ، وما أحوج المؤمن المهاجر ، الثائر على مجتمعه وبيئته ، الثائر على القوّة القاهرة والحكم المطلق إلى الهداية والتثبيت ، وإلى أن يربط الله على قلبه الخفّاق ، ونفسه المضطربة ، وقد أنجز الله وعده في هؤلاء الفتية الكرام ، فزادهم هدى ، وربط على قلوبهم ، وأخرج منها الجبن والخوف ، والحَيْرة والاضطراب ، وملأها شجاعة وسكينة ، وقوّة ويقيناً ، وفرحاً وسروراً ، ورضاً بالله وأفعاله ، وذلك زادُ المهاجر في سبيل الله ، وسلاح المجاهد في سبيل الله ، الثائر على عصره ، المتمرّد على بيئته .

ثم ماذا كان ؟ لقد خرجوا من البلد ، تاركين المدينة وزخارفها وراءهم ، نابذين أسباب الحياة ، قد غادروا وطنهم العزيز ومساكنهم الكريمة ـ فالظاهر أنَّهم كانوا من بيوت رفيعة ، ومَحْتِدٍ كريم[1] ـ فكان جزاء ذلك ، أن هداهم الله

---

(١) قال الآلوسي في تفسيره : « أنهم كانوا شباناً من أبناء أشراف الروم وعظمائهم » ، =

إلى كهف واسع صحّي[١] ، ولا تستطيع المنظّمات الكبيرة أن تبني مثل هذه الكهوف ، والملاجىء الواسعة ، النظيفة الصحيَّة ، فكان شأنه أن يستفيد من منافع الشمس ـ وهي النور والدفء ـ ويَسْلَم من مضارها ، وهي الحرارة الزائدة ؛ ويدخله الهواء النقي فيضفي على أهله الحياة والنشاط : ﴿ وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ﴾[٢] [ الكهف : ١٧ ] .

وهكذا انقطعت صلتهم عن المدنية الدَّنسة المتعفِّنة وعن أصحابها الغاشمين الفاسقين ، واتَّصلت بأسباب الحياة البريئة ، والعالم النقي الخارجي ، فكانوا يعيشون في عزلة عن العالم ، متمتِّعين بخيراته ومنافعه ، وليس ذلك إلا جزاء الإيمان الراسخ والجهاد الصادق ، ومن تيسير الله وحده وهدايته ، ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ﴾ [ الكهف : ١٧ ] .

لقد حاول الثائرون على نواميس الله وشرائعه ، وعلى الطبيعة ، وبذلوا جهدهم ومواهبهم ، وعلومهم وذكاءهم في الحصول على حياة رخية ، صافية هنيئة ، وسخَّروا لأنفسهم القوى الكونية ، وأخضعوا لهم أسباب الراحة والرخاء ، وهناء البال ، فحُرموا النتيجة ، وثارت عليهم الحياة والطبيعة ، وأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا ، وأصبحوا فريسة اكتشافاتهم ووسائلهم وفريسة الأمراض الطريفة والمشاكل الغريبة ، والحروب المدمِّرة ،

---

= روح المعاني ـ ج٥ ـ ص١١ .
وقد مرَّ نقلاً عن دائرة المعارف للأخلاق والديانات : « أنَّهم كانوا من أبناء البلاط وكانوا يسكنون في السرائي » .

(١) في لسان العرب : « الكهف كالمغارة في الجبل إلّا أنَّه أوسع منها ، فإذا صغر فهو غار » ، وفي الصحاح : « الكهف كالبيت المنقور في الجبل » .

(٢) في روح المعاني : « أنهم كانوا لا تصيبهم الشمس أصلاً فتؤذيهم ، وهم في وسط الكهف بحيث ينالهم روح الهواء ، ولا يؤذيهم كرب الغار ، ولا حرُّ الشمس ( ج٥ ص٢٠ ) وفي تفسير الرازي : أنَّ باب الكهف كان مفتوحاً إلى جانب الشمال ، فإذا طلعت الشمس كانت على يمين الكهف ، وإذا غربت كانت على شماله ( ج٥ ص٤٦٦ ) .

﴿ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴾ [ الكهف : ١٧ ] .

## الحياة في كهف الإيمان :

ويظهر أنَّهم لم يقضوا حياتهم في هذا الكهف الإيماني في بطالة وتعطُّل ، ولم يكونوا هنالك في ظلام وعمىً ، ومن غير دستور وهداية ، والظاهر أنَّهم أخذوا معهم بعض الصحف والأوراق المكتوبة ، ولعلَّها صحائف من التوراة والإنجيل ، وأثارة من علوم الأنبياء وتعاليمهم ، احتفظوا بها عند خروجهم من المدينة[1] ، وليكن ذلك دستور جميع الثائرين على بيئتهم ومجتمعهم ، المهاجرين اللاجئين المضطرين إلى الفرار والعزلة ، إذا كان لا بدَّ من الفرار والعزلة .

ولما نَفَدَ زادهم الذي حملوه ، سلَّط الله عليهم نوماً هنيئاً ، عميقاً طويلاً ، لم يحتاجوا معه إلى طعام وشراب ؛ ﴿ فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴾ [ الكهف : ١١ ] .

## تغيير الأوضاع في روما :

وهنا تظهر المعجزة الكبرى من معجزات قصة أصحاب الكهف ، ففي مدَّة

---

(١) القرآن يسميهم بأصحاب الكهف والرقيم ، وقد ذهب المفسِّرون في تفسير الرقيم مذاهب ، فمن قائل إنه لوح من حجارة كتبوا فيه قصَّة أصحاب الكهف ، وأمرهم وأسماءهم ، ثم وضع على باب الكهف ، ومن قائل إنه اسم قرية أو بلد ، وقد اختار العلاَّمة الكيلاني في مقالته : « إنه الكتاب المرقوم الذي كان رفيقهم في الكهف » ويؤيِّده ما نقله صاحب روح المعاني عن ابن عباس رضي الله عنه قال : إنَّه كتاب عندهم ، فيه الشرع الذي تمسَّكوا به من دين عيسى عليه السلام ( ج٥ ـ ص١١ ) وهو مختارنا ، وروى ابن جرير بسنده عن ابن زيد قال : « الرقيم : الكتاب ، ولذلك الكتاب خبر فلم يخبر الله عن ذلك الكتاب وعما فيه وقرأ : ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ۝١٩ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ۝٢٠ يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ ﴾ ( ج١٥ ص١٢٢ ) » ، وقال الإمام البخاري : الرقيم : الكتاب . مرقوم : مكتوب من الرقم . ( صحيح البخاري ج٢ ، كتاب التفسير ـ سورة الكهف ) .

نومهم واعتزالهم في الكهف تغيَّرت الأوضاع في البلد ، في مملكة روما وتوابعها ، فانقرضت دولة الوثنية والخلاعة ، وطوي رجالها وأصحابها في تقلُّبات الزمان ، وقامت على أنقاض هذه الدولة الوثنية الخليعة دولة تؤمن بالله ، وبالمسيح[١] ، وتنتصر للدين الجديد الذي حاربته الحكومة الماضية طويلاً ، وطاردت أتباعه ورجاله ، وتُجِلُّ كل من انتمى إلى هذا الدين ، وترحِّب بكلِّ من يدين بهذه العقيدة .

وهنالك يُبعث أصحاب الكهف من رقدتهم الطويلة التي استغرقت ثلاثة قرون وزيادة ، ﴿ وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا ﴾ [ الكهف : ٢٥ ] ؛ ويتساءلون بينهم عن مدَّة هذا النوم ، فيختلفون في التقدير والتحديد ، ثم يكلون أمره إلى الله ، لأنَّه ليس من مهمات الدين والدنيا ، ﴿ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ ﴾ [ الكهف : ١٩ ] .

وحينئذٍ يشعرون بالجوع ، فينتدبون أحدهم ليأتي لهم بطعام زكي[٢] ، ويرسلونه مع النقود الفضيَّة التي حملوها من مدينتهم ، ﴿ فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ ﴾ [ الكهف : ١٩ ]، ويوصونه بالاحتراس من فُشوِّ السرِّ وبالتلطُّف ، لأنَّهم لا يزالون يعتقدون أنَّ الدولة للأعداء ، وأنَّ شرطة الحكومة ورجالات المخابرات بالمرصاد ، ﴿ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ

---

(١) كان ذلك في عهد قسطنطين « الكبير » الذي تولَّى الحكم في سنة ٣٠٦م ، وقد تنصَّر ( وفق الرواية الشائعة ، فيشكُّ كثير من الباحثين في إخلاصه وسلامة نيَّته في قبول الدين الجديد ، ويردُّون ذلك إلى المصالح السياسية ) وهو الذي جعل النصرانية دين الدولة الرسمي ، وعقد مجالس عظيمة حضرها كبار الأساقفة والقسوس بتوحيد العقيدة النصرانية ، والقضاء على الخلافات والمذاهب المتناحرة ، وهو الذي اختطَّ مدينة قسطنطينية في عام ٣٣٠م ، التي اشتهرت باسمه وجعلها عاصمة الدولة ، ومات في ٣٣٧م .

(٢) فسَّر الإمام الرازي قوله تعالى : ﴿ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا ﴾ بقوله : « أيها أطيب وألذّ ، وقال : هذه الآية تدل على أنَّ السعي في إمساك الزاد أمر مشروع ، وأنَّه لا يبطل التوكُّل » .

﴿ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓاْ إِذًا أَبَدًا ﴾ [ الكهف : ١٩ ـ ٢٠ ] .

ولقد تسامع أهل البلد بقصة اضطهاد فتية مؤمنين في دولة الوثنيين الفجّار ، وسمعوا ما جرى لهم ، وكيف غادروا وطنهم واختفَوا عن الأنظار ، وانقطع أثرهم ، وقد قامت الدولة المسيحية الفتاة ، تحيي آثار النصرانية المضطهدة وتجدِّد معالمها ، وتحيي ذكرى أبطالها وشهدائها ، وتفكِّر في تخليد ذكرهم وبناء تذكارهم ، وفي مقدِّمة هؤلاء الأبطال « أصحاب الكهف والرقيم » .

## طرداء الأمس أبطال اليوم :

وكانت قصة « أصحاب الكهف » حديث البلد ، إذ خرج رائدهم متستِّراً ، متلطِّفاً خائفاً يترقَّب ، يبحث عن طعام لذيذ ، ويرجع به سريعاً إلى أصحابه ، ويقنع من الغنيمة بالإياب ، فإذا هو بُغْيَة البلد ، وإذا هو وأصحابه من الأبطال الذين تتغنَّى البلاد ـ حكومة وشعباً ـ بمجدهم وجهادهم ، وبطولتهم .

يُعثر عليه ـ عن طريق العملة القديمة التي كان يحملها ، أو اللهجة التي كان يتكلَّم بها ، أو الزي الذي كان يلبسه ، فالقرآن لا يُعنى بهذه التفاصيل التي هي موضوع الرواية ، لا الهداية ـ ويشيع الخبر في البلد ، وأنحاء المملكة ، ويصبح الشغل الشاغل للناس ، ويُقبِل الناس زرافات ووحداناً إلى هذا الكهف الذي آواهم ، ويسعدون بزيارتهم ، ويمسك القرآن ـ على عادته ـ عن ذكر تفاصيل احتفاء الناس بهم ، وإجلالهم وتقديرهم لهم ، ولكنه يقول في قوَّة وتأكيد : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ ﴾ [ الكهف : ٢١ ] . فقد كان هذا الانقلاب الذي حَدَث في الحكومة والشعب ، وعثور الناس عليهم بعد هذه الغيبة الطويلة إنجازاً لوعده في رفع منارهم ، وتخليد آثارهم ، وقهر عدوّهم ، ودليلاً على أنَّ الله يقلِّب الليل والنهار ، ﴿ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي ٱلْقُبُورِ ﴾ [ الحج : ٧ ] .

وهل كان يُرجى أن تزول هذه الدولة القاهرة ، وتنهض المسيحية المقهورة ، ويخرج أصحاب الكهف بعد هذه المدة الطويلة من كهف يشبه

المقبرة الواسعة ، فتحيط بهم هالة التقديس والإكبار ، وتفتح لهم الدولة ذراعيها ، ويبسط لهم البلد أحضانه ، ويوطّىء لهم أكنافه ؟! أليس في ذلك عبرة لسادة قريش وعظماء مكّة ، وتسلية للمسلمين المستضعفين ؟

ومكثوا ما شاء الله أن يمكثوا ، ثم وافاهم الأجل المحتوم ، فأصبحوا في محبّيهم ، والمعجبين بهم موضوع خلاف ونزاع ، وذهب الناس فيهم مذاهب ، وذلك في أسلوب تخليد ذكرهم وبناء تذكارهم ، ﴿ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴾[1] [ الكهف : ٢١ ] . ولم يقتصر الأمر على الاحتفاء بشأنهم في عصرهم ، والحرص على تخليد ذكرهم ، بل أصبح هؤلاء من رجال التاريخ والديانة ، الذين ظلّ الناس يختلفون فيهم ويتباحثون ، وتتكوّن مذاهب وطوائف ، لكلّ أنصار ، ﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ ۖ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ۬ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴾ [ الكهف : ٢٢ ] .

---

(١) قال العلاّمة الآلوسي في تفسيره : « استدلّ بالآية على جواز البقاء على قبور الصلحاء ، واتّخاذ مسجد عليها ، وجواز الصلاة في ذلك وهو قول باطل عاطل ، فاسد كاسد ، وقد روى الشيخان ، والنسائي ، عن عائشة رضي الله عنها ، ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه : « لعن الله تعالى اليهود والنصارى ، اتّخذوا قبور أنبيائهم مساجد » ، وأحمد ، والشيخان ، والنسائي : « إن أولئك شرار الخلق يوم القيامة » .
وليس في الآية أكثر من حكاية قول طائفة من الناس ، وعزمهم على فعل ذلك ، وليست خارجة مخرج المدح لهم ، والحض على التأسّي بهم ، فمتى لم يثبت أنّ فيهم معصوماً لا يدلّ فعلهم فضلاً عن عزمهم على مشروعية ما كانوا بصدده ، وما يقوّي قلة الوثوق بفعلهم القول بأنّ المراد بهم الأمراء والسلاطين ، كما روي عن قتادة ، ( روح المعاني ج٥ ـ ص٢١ ، ٣٢ ) .

## انتصار الإيمان على المادية :

وهكذا تنتهي هذه القصة الخالدة الأولى من قصص سورة الكهف الأربع ، قصة الصراع بين الإيمان والمادية ، أو قصة الصراع بين الاعتماد على الأسباب ، وبين الاعتماد على خالق الأسباب ، تنتهي بانتصار الإيمان على المادية ، وصِدْق الاعتماد على خالق الأسباب .

لقد آثر الفتية المؤمنون الإيمان على المادة ، وآثروا الآجل على العاجل ، وآثروا أن يعيشوا فقراء غرباء وهم مؤمنون ، على أن يعيشوا أغنياء أو أمراء وهم كافرون ، وآثروا أن يعيشوا بعيداً عن الوطن والأقارب والأحباب ، لا حظَّ لهم في متعة الحياة ولذة العيش وعز الحكومة ، على أن يُشرِكوا بالله ، ويرضوا شهواتهم ، ويتعاونوا على الإثم والعدوان . . لقد فرُّوا من مقتضى النفس إلى مقتضى الروح ، ومن مقتضى العقل إلى مقتضى الإيمان ، فتحقق أنَّهم كانوا أعمق عقلاً وأبعد نظراً ، وأن العاقبة للمتَّقين . . لقد فرُّوا من الأسباب إلى خالق الأسباب ، فلم ينتقلوا من هذا العالم ، حتى خضعت لهم الأسباب ، وخضعت لهم حكومة فروا من خوفها وعقابها بالأمس .

وقصَّة « أصحاب الكهف والرقيم » هي قصة الإيمان والفتوَّة والثبات ، والتضحية والجهاد ، التي تتكرر في تاريخ الإنسانية ، وفي تاريخ الحق والعقيدة ، وبرهان على أنَّ الأسباب خاضعة للإرادة الإلهية ، صديقة للإيمان والعمل الصالح ؛ فسبيل المؤمن أن يستميل هذه الإرادة بالإيمان والعمل الصالح ، ويستحق نصر الله وتأييده .

وقبل أن يبدأ القرآن بالقصة الثانية ، وهي قصة صاحب الجنَّتين ، يوصي النبي ﷺ ، بالتمسُّك بحبل الله ، والتمسُّك بالسبب الأكبر الأقوى ، أو العروة الوثقى ، وهو سبيل الإيمان وسبيل القرآن ، ويوصيه بلزوم أولئك المؤمنين الذين سعدوا بالإيمان والمعرفة واليقين ، والذكر والدعاء ، وإن كان حظُّهم قليلاً من الأسباب ، ومن متع الدنيا وزخارفها ، ويوصيه بمجانبة أولئك الجُهَّال الغافلين الذين حُرموا الإيمان والمعرفة واليقين ، وما يتبع ذلك الذكر

والدعاء ، وملكوا مقداراً كبيراً من الأسباب والقوى والخيرات ، وإنَّما هي وصية عامة لقرَّاء القرآن وأتباعه ، والمؤمنين به ، بل هم أحوج إلى تنفيذها والعمل بها ، ﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴾ [ الكهف : ٢٨ ] .

لقد كانت هذه خطَّة أصحاب الكهف وأصحاب الإيمان والمعرفة في كلِّ عصر ، وهي إيثار الإيمان والعمل الصالح ، والصلة الروحية بالله على المظاهر والظواهر ، والأسباب والقوى ، والتمرُّد على المادة وأصحابها ، والاستهانة بزخارف الدنيا ومتعها ، وهي دعوة سورة الكهف ، ودعوة القرآن ، ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾ [ طه : ١٣١ ] . وسورة الكهف تدور حول هذه النقطة ، وتشير إليها بكل مناسبة .

## تقديس المادَّة ورجالها في الحضارة الداجلة :

وقد عارضت الحضارة المادية ـ وصورتها المكبَّرة الواضحة هي المدنية الداجلة العصرية ـ هذه الروح ، وهذا الاتِّجاه بخط مستقيم ، فقد قامت على تقديس المادة ورجالها ، وإجلالهم والخضوع لهم ، وقد لهجت فلسفتها وأدبها ـ بجميع أنواعه من شعر ونثر ، ورواية وصحافة ، وتمثيل وتاريخ ـ بإطراء أصحاب رؤوس الأموال ، وأصحاب الملايين وأصحاب النفوذ المادي ، والسيطرة السياسية أو الاقتصادية ، وذهبت إلى تأليههم ، وحثَّت على تقليدهم ، والتمثيل بهم .

## الغلوّ والتطرُّف سمة هذه الحضارة :

لا أجمل في وصف هذه الحضارة المتهوِّرة ، ووصف صاحبها الذي يتشبَّع بروحها ، ويُحْسِن تمثيلها من قوله تعالى : ﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴾ [ الكهف : ٢٨ ] . وقد أصبح الإسراف والإجحاف ، والغلوُّ والتطرُّف سِمةً لهذه الحضارة وشعاراً تُعرف به ، ويُعرف به صاحبها ؛ إسراف

في التكسُّب والإنتاج ، وإسراف في التلهِّي والتسلية ، وإسراف في البذل ، وإسراف في النظريات السياسية ، وإسراف في النظريات الاقتصادية ، فإمَّا غلوٌّ في الديمقراطية ، وإمَّا غلوٌّ في الديكتاتورية ، وإما تطرُّف في الشيوعية ، وإما تقديس للأعراف والمثل ، والنظم والقوانين ، التي هي من وضعه أو وضع بني جِنْسه ، حتى لا يتخلَّى عنها قيد شعرة ، ويرى العدول عنها جريمة تحرم صاحبها كل شرف وتقدير ؛ وإما ثورة جامحة هوجاء عليها حتى ينافي في ذلك العقل المستقيم والذوق السليم ، والفِطرة التي فُطِر الناس عليها ، فيخرج بذلك عن صف الإنسان المتمدِّن إلى صف الوحوش والدواب[١] ؛ وإما تطرُّف في الرأسمالية . . لقد كان أمره فُرُطاً في كل ما يختاره ويؤثره ، وفي كل ما يدين به ويدعو إليه ، أما السداد والقَصْد ، والتوسُّط في الأمرين ، فهو من أبعد خَلْق الله منه ، وأقلُّهم نصيباً من ذلك .

## العدل والسداد ميزة هذا الدين وحضارته :

أمَّا الحياة التي تنبثق من تعاليم النبوَّة ، فهي الموصوفة بالاعتدال والسداد ، ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴾ [ الفرقان : ٦٧ ] . وقد وصف الله هذه الأمة القرآنية بالتوسُّط والاعتدال ، فقال : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾[٢] [ البقرة : ١٤٣ ] وكان رسول الله ﷺ المثل الكامل في التوسُّط

---

(١) وقد تجلَّى هذا الاتجاه في حركات الدعوة إلى الحرية الحيوانية والعُري ، والاختلاط غير المقيَّد في « أمريكا » و« أوربة » وتجلَّى أخيراً في الشباب الأوروبي الذي يسميه بعض الكتَّاب بالخنافس Hippies وهي ظاهرة في كل مدنية أصيبت بالتخمة المادية ، والضجر الفكري ، والقلق النفسي ، وظهر ذلك في « يونان » و« رومة » ، اقرأ ما جاء في كتاب « الجمهورية » لأفلاطون من تصوير الشاب اليوناني في عهده ، واقرأ ترجمته في « ماذا خسر العالم . . . » للعلامة الندوي ص١٧٧ ، الطبعة الثامنة .

(٢) في المدارك : أي كما جعلنا قبلتكم متوسطة بين المشرق والمغرب ، جعلناكم وسطاً بين الغُلوّ والتقصير ص٤٧ ، وفي الخازن : والمعنى أهل دين وسط بين الغلو والتقصير ، ج١ ، ص١٠٨ .

والاعتدال[١] .

وقد وصف الله دين الإسلام بالاستقامة والاعتدال ، والبعد عن الإفراط والتفريط ، ونعَتَه بلفظ « القيّم » و « القِيَم » فقال مخاطباً نبيه ﷺ : ﴿ قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [ الأنعام : ١٦١ ] وقال : ﴿ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ﴾ [ التوبة : ٣٦ ] وقال : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ ﴾ [ الروم : ٤٣ ] ، وكذلك وصف كتابه بالقيّم ، ونَفَى عنه العوج والزَّيغ ، فقال في مفتتح سورة الكهف التي نتكلم عنها : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴾ [ الكهف : ١ ـ ٣ ] وقال : ﴿ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴾ [ البينة : ٢ ـ ٣ ] ، وقال : ﴿ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ [ الزمر : ٢٨ ] .

ولا شكَّ أنَّ روح الاستقامة والسَّداد سارية في هذا الدين ، متغلغلة في أحشائه ، مسيطرة على نظمه وشرائعه ، وحضارته وثقافته ، وبالعكس من ذلك ، فالحضارة المادية ، التي ولّدتها أوربة في عصرها الموتور الثائر على الدين والأخلاق والنظم ، فاقدة الاتِّزان من أول يومها ، متَّصفة بالغلوِّ والتطرُّف في نظمها ومناهج حياتها ، والزَّيغ والعِوَج في فلسفتها وتفكيرها ، والتطويل والتهويل في علومها وثقافتها ، وإيثار العسير والطويل في جميع اتِّجاهاتها ، وفي مثل هذه الحضارة ، تفقد الطبائع سلامتها ، والعقول استقامتها ، والحياة بساطتها وسهولتها والأمم وحدتها وأُلفَتَها .

* * *

(١) اقرأ صفته عليه الصلاة والسلام في كتب الحديث والسيرة ، واقرأ تعليماته ووصاياه لإيثار التوسُّط والقصد في كلِّ شيء في كتب السنة ، وقد قال علي بن أبي طالب وغيره : « كان معتدل الأمر غير مختلف لا يقصِّر عن الحق ولا يجاوزه » وقال : « ما خُيِّر بين أمرين إلا اختار أيسرهما » ( جزء الشمائل للترمذي ) .

# (٢)
# قصّة صَاحب الجَنَّتين

ويبدأ القرآن بقصة صاحب الجنَّتين ، وهي قصَّة أكثر وقوعاً في الحياة اليومية والحياة العادية من القصَّة الأولى ، فإذا تمثَّلت قصَّة أصحاب الكهف في عقود من السنين ، فقصَّة صاحب الجنَّتين تتمثَّل في كلِّ مكان وحين ، إنَّها قصَّة رجل حالفته السعادة ، وتوفَّرت له أسباب الهناء والرخاء ، له جنَّتان من أعناب ـ الثمر الكريم الحبيب ـ محفوفتان بنخل ـ الشجر الكريم الحبيب ـ يتخلَّلهما الزرع الكريم الحبيب ، إنَّها غاية السعادة والغبطة في الحياة المتوسِّطة ، وإنَّ الحياة المتوسِّطة هي المقياس في أكثر شؤون الدنيا .

ولم تقتصر سعادة السريِّ الثريّ على وجود الجنَّتين فحسب ، بل واتته الأسباب وجاءت الجنَّتان بخير حاصل ونتيجة ، ﴿ كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا وَفَجَّرْنَا خِلَـٰلَهُمَا نَهَرًا ﴾ [ الكهف : ٣٣ ] . وهكذا تمَّت له السعادة ، وتجمَّعت له أسباب الهناء والرخاء .

## الطبيعة المادية ، وقِصَر نظرها :

هنالك تثور الطبيعة المادية في هذا الرجل السريّ الثريّ ـ نفس الطبيعة التي تثور في أصحاب الحكومات والولايات ، وأصحاب رؤوس الأموال والعقارات ، وأصحاب الزعامة والوزارات ، وأصحاب الصناعات والاختراعات ، وأصحاب البوارج والمدمِّرات ـ تثور هذه الطبيعة التي لا يقهرها الإيمان ، ولا تضبطها المعرفة الصحيحة ، والتربية الصالحة ، فينسب سعادته وجَدَّه إلى علمه ولباقته ، وجهوده وذكائه ، كما فعل قارون من قبل ، فقال : ﴿ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ﴾ [ القصص : ٧٨ ] ، ويفاخر صديقاً له

لا يعادله في هذه السعادة فيقول في صراحة بل وقاحة : ﴿ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴾ [ الكهف : ٣٤ ] .

ويدخل في مركز رخائه وثرائه ، ومركز نفوذه وسلطانه جاهلاً لنفسه ، جاهلاً بالأسباب الخفية ، والإرادة الإلهية التي تحكم من فوق سبع سموات ، وتحول بين الإنسان وملكه ، وبين الإنسان وقلبه . . ظالماً لنفسه ظلماً علمياً وعملياً، وخلقياً وعقلياً ، فتنطق هذه الطبيعة الماديّة العمياء على لسان صاحبها الجاهل ، فيعلن خلوده وخلود جنتيه ، ويجحد بالبعث ، ويعلن سعادته الدائمة ـ في الدنيا والآخرة ، إن كانت آخرة ـ في صَلَف وخَرَق : ﴿ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً ﴾ [ الكهف : ٣٥ ـ ٣٦ ] . ويعتقد أنَّه من الرجال المجدودين السعداء ، الذين لا يخونهم الحظ ، ولا يَعْثُر بهم الجدّ ، ويكونون في كل مكان وزمان في أوج السعادة والسيادة ﴿ وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴾ [ الكهف : ٣٦ ] . ويعتقد أمثال هذا أن لا حاجة إلى الإيمان والعمل الصالح والكدح ، إنَّما هي سعادتهم الفطرية ، التي تهيىء لهم الهناء والرَّخاء في كلِّ وقت .

## التفكير الإيماني :

وكان صديقه قد فتح الله بصيرته للحق والإيمان ، وسعد بمعرفة الله وصفاته وأفعاله ، وأنه هو المصرّف لهذا الكون ، والخالق للأسباب ، والمغيِّر للشؤون ، فعارضه في مقالته وتفكيره الماديّ ، ونبَّهه إلى أصله وحقيقته وبدايته ، وهي الحقيقة القاسية التي يتناساها المَجْدُودون المخدوعون ، ويفرُّون من تذكرها ﴿ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا ﴾ [ الكهف : ٣٧ ] ، وما أشقَّ سماعه على المتكبِّرين الجبَّارين !! وذكر له أنَّه سائر في اتجاه معارض ، وهو الاتجاه الإيماني : ﴿ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ﴾ [ الكهف : ٣٨ ] .

ثمَّ ذكَّره بالحقيقة الأساسية التي تدور حولها سورة الكهف ، والوتر الحسَّاس الذي تضرب عليه ، وهو أنَّه ليس الشأن في الأسباب ، إنما الشأن في

خالق الأسباب ومالكها ، وكل ما يراه السري الثري من أسباب السعادة والهناء ، ويغتبط بها ، ليس من صنع الأسباب وليس من كسب يده وذكائه ، إنَّما هو صنع الله الذي أتقن كلَّ شيء ، ويلفته ـ في حكمة ورفق ـ إلى الاعتراف بصنع الله وقدرته ، وإسداء كلمة الشكر والحمد ، ﴿ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾ [ الكهف : ٣٩ ] .

## روح السورة ومفتاح القصّة :

و ﴿ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾ [ الكهف : ٣٩ ] هي روح هذه السورة ومفتاح القصة ، وقد أوصَى الله تعالى نبيَّه ـ وكل قارىء للقرآن ـ قبل آيات بتفويض الأمر والقوَّة إلى الله تعالى في المستقبل ، وفيما ينويه ويريده في المستقبل ، وأن يشترط كل إرادة وعزم بمشيئة الله تعالى ، فقال : ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴾ [ الكهف : ٢٣ ـ ٢٤ ] .

وكيف يخضع للأسباب وعبادتها ، والمادة وأصحابها ، ويؤمن بالنفس وإرادتها ، من ينسب الفضل في كل ما حصل ، والفضل في كل ما ينوي إلى الله وحده ، ويقول : « ما شاء الله لا قوَّة إلا بالله » ، ويستثني في كلِّ ما يقصد ويعتد به ، فيقول : « إن شاء الله » ، وهاتان ـ ما شاء الله ، وإن شاء الله ـ كلمتان خفيفتان على اللسان يكثر النطق بهما من غير شعور وتعقُّل ، ولكنهما كلمتان ثقيلتان عميقتان ، زاخرتان بالمعاني ، حاسمتان للماديَّة الرعناء ، والاعتماد على النفس والإرادة .

## اعتماد الحضارة المادية على وسائلها وقواها :

وقد امتازت الحضارة الماديَّة بشدَّة الاعتماد على وسائلها وقواها وطاقاتها ، فتعلن حكوماتها تحقُّق مشاريعها[1] العمرانية والاقتصادية ، حتى

---

(١) لا يعني ذلك طبعاً أن لا توضع المشروعات ، وتتَّسع الدراسات القائمة على وسائل العلم في الإنتاج ، وإنّما المهم أن لا تطغينا مظاهر القوة والعلم ، فنغفل عن جلال الله الذي خلق الأسباب ومسبباتها .

ما يتوقَّف منها على موافقة الطبيعة ، واعتدال المواسم والفصول ، في المدة المحدودة من غير استثناء وشك ، وتعلن أنَّها ستنتج كذا وكذا في كذا وكذا من الأعوام ، وتصبح بلادها كافلة لنفسها ، مستغنية عن الخارج ، وتسخر منها الإرادة الإلٰهية ، فتصاب بنقص من الأموال والأنفس والثمرات ، وبالمجاعات والمفاجئات التي لم تكن في الحساب ، وتتخلَّف عنها الأمطار في حين أو مكان ، وتصاب بالفيضان ، والسيل العَرِم في حين أو مكان آخر ، فيخطىء التقدير ، وتخفق المشاريع .

## الإيمان بالإرادة الإلٰهية والاعتماد عليها :

ليست كلمة « إن شاء الله » والوصيَّة بالتكلُّم بها محدودة في الأعمال الفردية التافهة ، أو الحوادث اليومية « البسيطة » من مقابلات وزيارات ، ومواعيد شخصية وأسفار ، بل هي الشاملة للأعمال الاجتماعية الكبيرة ، والعزائم والمشاريع العظيمة ، التي تؤثِّر في حياة الأمة ومصيرها ، فيجب أن يكون كل ذلك ـ مع السعي ، والجدّ والجهاد ، والأخذ بالتدابير اللازمة ، الذي حثَّ عليه القرآن والسنَّة ، وجرى عليه النبي ﷺ وأصحابه في حياتهم ـ خاضعاً للإيمان بأنَّ الإرادة الإلهيَّة هي القاضية الحاكمة ، وهي الفاصلة الحاسمة ، وليس الفرد هو المخاطب الوحيد بقوله : ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ [ الكهف : ٢٣ ـ ٢٤ ] ، بل المجتمعات ، والحكومات ، والمنظَّمات ، والمؤسَّسات كلُّها معنية مكلَّفة بها ، وهي روح المجتمع الإسلامي الذي يتغلغل فيه الإيمان ، وروح الحضارة التي تقوم على أساس الإيمان بالغيب ، وهي الفارقة بين الحضارة المادية والحضارة الإيمانية .

وينبّهه صديقه المؤمن إلى أنَّ هذا الاختلاف في الحظوظ والجُدُود ، وأنَّ هذا التوزيع ليس أبديّاً ، لا يزول ولا يحول ، وأنَّ زمام الأسباب والتصرُّف في العالم لم يفلت من يد خالق الكون ، فلا يزال يملكه ، والشقي قد يسعد ، والسعيد قد يَشقى ، والغني ربَّما يفقر ، والفقير ربما يَغْنى ، فلا غرابة إذا

انقلبت الأوضاع : ﴿ إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا ﴾ [ الكهف : ٣٩ ـ ٤١ ] ، وهكذا كان !! فطاف على الجنّتين طائف من الله ، وأصبح كل ذلك صعيداً جُرُزاً .

هنالك أفاق الرجل السكران : ﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴾ [ الكهف : ٤٢ ـ ٤٤ ] .

## إشراك صاحب الجنّتين :

إنَّ صاحب الجنّتين لم يكن مشركاً بالله كعامة المشركين ، فليس في القرآن ما ينصُّ على ذلك ، أو يشير إليه ، بل العكس يشعر أسلوب القرآن بأنه كان يعرف الله ويؤمن به ، فقد قال : ﴿ وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴾ [ الكهف : ٣٦ ] .

فما كان شركه الذي تأسَّف عليه ، وقَرَع عليه سنَّ الندم : ﴿ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا ﴾ [ الكهف : ٤٢ ] الظاهر الذي لا خفاء فيه ، أنَّه كان أشرك بالله الأسباب ، فاعتقدها المصرِّفة المؤثِّرة ، التي يرجع إليها الفضل في رخائه وثرائه ، وازدهار ماله ، واعتمد عليها ، ونسي الله ، وكفر بتأثيره وتصرُّفه .

## وثنية هذا العصر :

وهذا هو الشرك الذي اتَّجهت إليه الحضارة العصرية الماديَّة ، فقد اتَّخذت الأسباب الطبيعيَّة والماديّة والفنية ، وأصحاب الاختصاص فيها ، الذين نسميهم « الأخصَّائيين » أرباباً وأولياء من دون الله ، ووضع الرجل العصري حياته تحت تصرفهم ، واعتقد أنَّ بيدهم الحياة والموت ، والسعادة والشقاء ، لقد أصبحت عبادة الأسباب والماديّات والقوى الكونية ، وعبادة الطبيعة ، والاعتماد الكليّ على أصحاب الاختصاص ، واتخاذهم أرباباً من دون الله وثنية جديدة ، مضافة إلى الوثنيَّة القديمة التي لا تزال لها آثار وأنصار ، ودُعاة

وأتباع ، وهو نوع من الشِّرك ، الذي ينافس الإيمان والعبودية ، وهي الوثنية التي تتحدَّاها سورة الكهف وتحاربها وتَنْعي عليها .

يمثِّل القرآن هذه الحياة الدنيا بالزرع الذي لا يلبث أن يكون هشيماً : ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴾ [ الكهف : ٤٥ ] .

وهذا هو تصوير القرآن لهذه الحياة القصيرة الفانية في مواضع كثيرة ، ففي سورة يونس : ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [ يونس : ٢٤ ] .

وهكذا يصوِّر القرآن الحياة التي يؤمن بخلودها الماديُّون ، ويعكف على عبادتها ( إلنفعيُّون ) و ( الأبيقوريُّون ) ويزيِّف مكاييلها وموازينها التي يعتمد عليها قصار النظر وعُبَّاد الأسباب والمظاهر ، ويمجِّدونها ، ويعقدون بها الآمال الكثيرة ، ويفضِّل عليها المكاييل الإيمانية : ﴿ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴾ [ الكهف : ٤٦ ] .

## نظرة القرآن إلى الحياة الدنيا :

وهنا نقف وِقفة قصيرة ، ونتساءل : ما هي نظرة القرآن إلى الحياة الدنيا ؟ ويَحْسُنُ بنا أن نستعرض القرآن في هذا الموضوع ، ونستوحيه ، فقد اضطربت عقول المسلمين ونظراتهم ، وأقوال الباحثين واتِّجاهاتهم في هذه الحياة ، وقيمتها ومنزلتها .

إنَّ القرآن يقرِّر ـ بكل وضوح وقوة وصراحة ـ قِصَر هذه الحياة الدنيا وتفاهتها ، وتضاؤلها في جنب الآخرة ، فيقول مثلاً ﴿ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ [ التوبة : ٣٨ ] . ويقول : ﴿ وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾ [ العنكبوت : ٦٤ ] . ويقول : ﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ

وَٱلْأَوْلَٰدِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾ [ الحديد : ٢٠ ] .

ويقرِّر كذلك في وضوح وقوة أنَّها قنْطرة إلى الآخرة ، وفرصة للعمل ، فيقول : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [ الكهف : ٧ ] ويقول : ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴾ [ الملك : ٢ ] .

ويقرِّر أنَّ الآخرة هي خير وأبقى ، فيقول : ﴿ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۖ وَلَلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [ الأنعام : ٣٢ ] . ويقول : ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [ القصص : ٦٠ ] .

إذاً هو يذمُّ ويشنِّع على من يؤْثِر الدنيا ـ هذه الفانية العارضة ، السقيمة الناقصة ـ على الآخرة ـ الباقية الخالدة الواسعة ، الصافية من الأكدار ، الخالية من الأخطار ـ فيقول : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ۝٧ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ [ يونس : ٧ ـ ٨ ] ، ويقول : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ۝١٥ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [ هود : ١٥ ـ ١٦ ] ، ويقول : ﴿ وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ۝٢ ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴾ [ إبراهيم : ٢ ـ ٣ ] ، ويقول : ﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴾ [ الروم : ٧ ] ، ويقول : ﴿ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝٢٩ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴾ [ النجم : ٢٩ ـ ٣٠ ] ، ويقول : ﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴾ [ الإنسان : ٢٧ ] ، ويقول : ﴿ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ۝٣٧ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝٣٨ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾ [ النازعات : ٣٧ ـ ٣٩ ] .

ويمدح من يجمع بين الدنيا والآخرة مع إيثار جانب الآخرة على جانب الدنيا ، ومعرفة قيمتها وفضلها ، والحرص عليها ، فيقول : ﴿ فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ۝٢٠٠ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ

ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ [ البقرة : ٢٠٠ - ٢٠١ ] ، ويقول على لسان نبي الله موسى : ﴿ ۞ وَٱكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ﴾ [ الأعراف : ١٥٦ ] ، ويمدح خليله إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، فيقول : ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُۥ فِي ٱلْآخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [ النحل : ١٢٢ ] .

## بين الأديان السماوية والفلسفات المادية :

وهنا تتعارض الأديان السماوية ، وتعاليم النبوَّة ، أو مدرسة النبوة ـ إن صحَّ هذا التعبير ـ مع الفلسفات المادية والتفكير المادي ، الذي يلحُّ على أنَّ هذه الحياة هي كل شيء ، وهي المنتهى ، ويبالغ في تمجيدها وتقديسها ، والاحتفاء بها ، والحرص على ترفيهها وتحسينها وتزيينها .

وقد تجلَّت هذه النفسية القرآنية ، أو النظرة القرآنية إلى الحياة في كلام النبي ﷺ ، وكثيراً ما كان يقول : « اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة »[١] ، وكان دعاؤه ﷺ : « اللهم اجعل رزق آل محمد قوتاً ـ وفي رواية : كفافاً »[٢] .

وعن المُسْتَورد بن شدَّاد قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « والله ما الدنيا في الآخرة إلَّا مثل ما يجعل أحدكم أصبعه في اليمِّ ، فلينظر بمَ يرجع »[٣] ، وقد كانت حياته الطيبة مرآة صادقة لهذه العقيدة والنفسيّة . فعن ابن مسعود رضي الله عنه : أنَّ رسول الله ﷺ نام على حصير وقد أثَّر في جسده ، فقال ابن مسعود : يا رسول الله لو أمرتنا أن نبسط لك ونعمل ، فقال : « ما لي وللدنيا ، ما أنا والدنيا إلَّا كراكبٍ استظلَّ تحت شجرة ثم راح وتركها »[٤] .

ويقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه في حديث الإيلاء : « فدخلت على

---

(١) رواه البخاري في كتاب ( الرقاق ) .
(٢) رواه مسلم في كتاب ( الزهد ) .
(٣) رواه مسلم .
(٤) رواه أحمد ، والترمذي ، وابن ماجه .

رسول الله ﷺ فإذا هو مضطجع على رمال[١] حصير ، ليس بينه وبينه فراش ، قد أثَّر الرِّمال بجنبه ، متَّكئاً على وسادة من أدَم حَشْوها ليف ، فسلَّمت عليه . . ( إلى أن قال ) فرفعت بصري في بيته فوالله ما رأيت فيه شيئاً يراه البصر غير أُهبة ثلاثة[٢] ، فقلت : يا رسول الله أُدْعُ الله فليوسِّع على أمَّتك ، فإنَّ فارساً والروم قد وسَّع لهم وأُعطوا الدنيا ،وهم لا يعبدون الله ؛ فجلس النبي ﷺ وكان متَّكئاً ، فقال : « أَوَفي هذا أنت يا بن الخطَّاب ؟ إنَّ أولئك قومٌ عُجِّلوا طيباتهم في الحياة الدنيا »[٣] .

## تلاميذ مدرسة النبوّة وسيرتهم :

وقد انصبغ كل من تلقَّى التربية في هذه المدرسة أو تخرَّج فيها ، أو كان تلميذاً من تلاميذها بهذه الصبغة ، وسيطرت عليه فكرة الآخرة ، وجرت منه مَجْرى الروح والدم ، وتغلغلت في أحشائه ، فأصبح لا يذهل عن الآخرة ولا يبغي بها بدلًا ، ولا يؤثر عليها شيئاً ، فيكفيك إذا أردت أن تتمثَّل هذه الروح المسيطرة على تلاميذ هذه المدرسة ، أن تقرأ صفة علي بن أبي طالب ، وهي صورة ناطقة للطراز الإنساني الذي تخرَّج في هذه المدرسة ، ونشأ في أحضان الرسول ﷺ .

عن أبي صالح قال : قال معاوية بن أبي سفيان لضرار بن ضمرة : صِفْ لي عليّاً ، فقال : أَوَ تعفيني ؟ قال : بل صفه ، قال : أَوَ تعفيني ؟ قال : لا أعفيك ، قال : أما إذاً فإنَّه والله كان بعيد المدى ، شديد القوى ، يقول فصْلاً ويحكم عَدْلًا ، ويتفجَّر العلم من جوانبه ، وينطق بالحكمة من نواحيه ، يستوحش من الدنيا وزهرتها ، ويستأنس بالليل وظلمته ، كان ـ والله ـ غزير الدَّمعة ، طويل الفِكْرة ، يقلِّب كفَّه ويخاطب نفسه ، ويعجبه من اللباس ما خَشن ، ومن الطعام ما جَشُب ، كان ـ والله ـ كأحدنا يجيبنا إذا سألناه ،

---

(١) المراد به : النسج .
(٢) جمع إهاب وهو الجلد .
(٣) البخاري ج ـ ٢ كتاب ( النكاح ) .

ويبتدئنا إذا أتيناه ، ويأتينا إذا دعَوْناه ، ونحن ـ والله ـ مع تقريبه لنا وقربه منا لا نكلِّمه هيبة ، ولا نبتديه لِعِظمه ، فإن تبسَّم فعن مثل اللؤلؤ المنظوم ، يعظِّم أهل الدين ويحب المساكين ، لا يطمع القوي في باطله ، ولا ييأس الضعيف من عَدْلِه ، وأشهد بالله لقد رأيته في بعض مواقفه ، وقد أرْخى الليل سُجوفه وغارت نجومه ، وقد مَثُل في محرابه قابضاً على لحيته ، يتململ تململ السَّليم ، ويبكي بكاء الحزين ، وكأنِّي أسمعه وهو يقول : يا دنيا أبي تَعَرَّضْتِ ، أم لي تَشَوَّفتِ ؟ هَيْهاتَ هَيْهاتَ ! غُرِّي غيْري ، قد بتتُّكِ ثلاثاً لا رجعة لي فيكِ ، فعُمرك قصير ، وعَيْشُكِ حقير ، وخَطَرُكِ كبير ، آه من قلَّة الزاد ، وبُعْد السفر ، ووَحْشة الطريق »[١] .

وإليك مثال ثانٍ ، وهو خطبة رجل من أصحاب النبي ﷺ يُلقيها أمير على عاصمة كبيرة من عواصم الدولة الإسلامية الكبرى :

« عن خالد بن عُمَيْر العدوي ، قال : خطبنا عُتْبة بن غزوان ـ وكان أميراً على البصرة ـ فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أما بعْدُ فإنَّ الدنيا قد آذنت بصَرْم ، وولَّت حذَّاء[٢] ، ولم يَبْقَ منها إلَّا صبابة[٣] ، كصُبابة الإناء يتصابُّها صاحبها ، وإنَّكم منتقلون منها إلى دار لا زوال لها ، فانتقلوا بخيرِ ما بحضرتكم ، فإنَّه قد ذُكر لنا أنَّ الحَجَر يُلقَى من شفة جهنم فيهوي فيها سبعين عاماً لا يُدرك لها قعراً ، والله لتُملأنَّ ، أفعجبتم ؟ ولقد ذُكِرَ لنا أنَّ ما بين مصراعين من مصاريع الجنة مسيرة أربعين سنة ، وليأتينَّ عليها يوم ، وهي كظيظ من الزحام ، ولقد رأيتني سابع سَبْعة مع رسول الله ﷺ ما لنا طعام إلا وَرَق الشجر ، حتى قَرِحَتْ أشداقنا ، فالتقطتُ بُرْدة فشققتها بيني وبين سعد بن مالك[٤] فاتَّزرت بنصفها واتَّزر سعد بنصفها ، فما أصبح اليوم منَّا أحد إلا أصبح أميراً على مِصْر من الأمصار ، وإنِّي أعوذ بالله أن أكون في نفسي

---

(١) صفة الصفوة لابن الجوزي .
(٢) أي مسرعة الانقطاع .
(٣) البقية اليسيرة من الشراب ، تبقى في أسفل الإناء .
(٤) هو : سعد بن أبي وقاص أحد العشرة المبشرين بالجنة .

عظيماً وعند الله صغيراً ، وإنَّها لم تكن نبوَّة قط إلَّا تناسخت ، حتى تكون آخر عاقبتها مُلكاً ، فستخبرون وتجرِّبون الأمراء بعدنا »[١] .

## تحرج العقليات وبعض الدعوات من عقيدة الآخرة :

ولا تستطيع العقليَّات والدعوات التي لم تتشبَّع بروح الإيمان ، ولم تتلقَّ التوجية والتربية من مدرسة الرسول ﷺ مباشرة أن تهضم هذه الفكرة أو العقيدة ، أو الاتِّجاه ولا تسيغه ، ولا تزال في صراع منها أو في حرج من ذلك ، وتحاول الفرار منه أو تعليله بأنَّه كان في عصر خاص ، وفي بيئة خاصة ، وبظروف وأسباب خاصة ، ولكن الذي لا غموض فيه أنَّ القرآن وسيرة الرسول ، والحديث النبوي ممتلىء بهذه الروح ، وأنَّ هذا هو المزاج الإسلامي ، أو النفسية الإسلامية ، التي تتكوَّن تحت تأثير التربية الإسلامية النبويَّة ، وكلَّما استطاع القرآن ، وكلَّما استطاعت السيرة النبويَّة ، أن تعمل عملها بحُرِّية وتنشىء جيلاً خاصاً يخلق في الإسلام خلقاً جديداً ، ولم تساوره العوامل الأجنبية ، كان ذلك مزاجه أو طبيعته ، أو نفسيته ، زُهْدٌ في الدنيا وزخارفها وفضولها ، وقناعة بالقَدَر الكافي ، واهتمام بالآخرة وما ينفع فيها ، وحنين إلى لقاء الرَّب ، وإيثار ما عند الله على ما في هذه الحياة ، واستقبال للموت على الإيمان وفي سبيل الله ، وقد تفيض على شَفَة هذا الطراز المؤمن كلمة السابقين من أصحاب الرسول ﷺ : « غداً ألقى الأحبَّة ، محمداً وحِزْبه »[٢] .

## اختلاف في منهج الدعوات النبوية والدعوات الإصلاحية :

وقد تفي بعض الدعوات الإسلامية بعقيدة الإيمان بالآخرة ، وتشرحها شرحاً جميلاً ، وتذكر ـ في توسُّع وبلاغة ـ حكمتها وتأثيرها في الحياة ،

---

(١) مسلم ج ـ ٢ ، كتاب ( الزهد ) .

(٢) من قول سيدنا بلال بن رباح الحبشي رضي الله عنه ـ الغزالي في الإحياء عن ابن أبي الدنيا .

وأهميتها في النظام الخلقي ، ولكن القارىء الذكي يلاحظ أنَّه إيمان بالآخرة كضرورة خلقية ، وكحاجة إصلاحية لا يقوم بغيرها مجتمع فاضل ، ومدنية صالحة ، فَضْلاً عن المجتمع الإسلامي ، وهذا وإن كان يستحق التقدير والإعجاب ، ولكنه يختلف عن منهج الأنبياء وسيرتهم ، ومنهج خلفائهم اختلافاً واضحاً ، والفَرْق بينهما ، أنَّ الأول ـ منهج الأنبياء ـ إيمان ووجدان ، وشعور وعاطفة ، وعقيدة تملك على الإنسان مشاعره ، وتفكيره ، وتصرُّفاته ؛ والثاني اعتراف وتقدير ، وقانون مرسوم . . وأنَّ الأوَّلين يتكلَّمون عن « الآخرة » باندفاع والتذاذ ، ويدعون إليها بحماسة وقوَّة ، والآخرون يتكلَّمون عنها بقدر الضرورة الخلقية ، أو الحاجة الاجتماعية ، وبدافع من الإصلاح والتنظيم الخلقي ؛ وشتَّان ما بين الوجدان والعاطفة ، وبين الخضوع للمنطق والمصالح الاجتماعية .

## من عوامل القوَّة والإقدام :

ولكن هذا الإيمان العميق القوي بالآخرة وإيثارها على الدنيا ، والزهد في زخارف الحياة وفضول المعيشة ، لم يحمل أصحابه على الاعتزال عن قيادة العالم وتوجيه الإنسانية ، والعيش في عزلة عن الحياة ، ولم يحملهم على رفض أسباب المعيشة ، والقعود عن الكفاح للحق والخير ، ولم يكن عاملاً من عوامل الضعف والاستسلام ـ كما شوهد ذلك في بعض القرون المتأخِّرة ـ بل كان عاملاً من عوامل القوَّة والإقدام ، والتمرُّد على قوى الشر ، ومن أعظم أسباب الشجاعة ، والقوَّة والانتصار ، وقد كان أشجع الناس وأنشطهم في الكفاح للحق ، وأعظمهم نصيباً في الجهاد والفتح الإسلامي ، وأزهدهم في هذه الحياة الدنيا ، وأحرصهم على الآخرة ، وأقواهم إيماناً بها ، وأعظمهم شوقاً إلى لقاء الرب والشهادة في سبيل الله ، وهذه طبيعة هذه العقيدة ، فإنَّها تبعث في صاحبها الشجاعة والنَّجدة والإقدام ، والاستهانة بالحياة والتغلُّب على الشهوات ، ولا شكَّ أنَّ الإسلام يدين لهذه العقيدة في انتشاره وانتصاره وفتوحه .

## لا صلة بين هذه العقيدة والرهبانية :

إذاً ليست هذه العقيدة « الإيمان بالآخرة » وهذه النظرة القرآنية إلى هذه الحياة الدنيا في شيء من « الرهبانية » الممقوتة ، التي ينكر عليها القرآن ، ويكفر بها الإسلام ، والتي ظهرت في العالم الإسلامي بعد ضعف التعاليم الإسلامية ، وبعد القرون المشهود لها بالخير ، وبتأثير النزعات العَجَميَّة ، والفلسفات « الأجنبية » المسيحية والبوذية ، والبرهمية ، والأفلاطونية الجديدة . . إنَّها عقيدة تقوم على إيثار الآخرة على الدنيا من غير تخريبٍ لها ، وإنكار لقيمتها الصحيحة ، وعلى الكفاح في سبيل الآخرة ، وفي سبيل الحق والخير والتغلب على الشهوات الفانية في سبيل البقاء والخلود ، وابتغاء رضوان الله .

ولا شكَّ أنَّ المسلمين لم يضعفوا إلَّا بضعف هذه العقيدة ، وأن الجيل الحاضر منهم الذي ـ أصبح فريسة أهوائه وشهواته ـ في حاجة ملحَّة إلى تجديد هذه العقيدة وإثارتها في كثير من الناس ، وإعادتها من جديد في كثير منهم ، وإنَّ المسلمين لا يستقيم ميزانهم ، ولا يكمل إيمانهم حتى ينظروا إلى هذه الحياة بمنظار القرآن ، وهو الذي يأباه التفكير المادي ، وتعارضه الفلسفات المادية التي تعبد الحياة عبادة ، وتهيم بشهواتها ولذّاتها وتقتصر على ترفيهها وتوسيعها وتكفر بما وراءها .

وقد تكفَّلت سورة الكهف الردَّ على هذا التفكير ، وعلى هذه العقيدة وزعمائها ، وألحَّت على تصوير هذه الحياة الدنيا التصوير الصحيح المطابق ، وإن لم يُرض كثيراً من الناس .

* * *

# ( ٣ )
# قصّة موسى والخضر

ونبدأ بالقصَّة الثالثة : قصة موسى والخضر ، إنَّها قصَّة هذه الحياة ، وقصة هذا الكون ، الذي نعيش فيه ، إنَّها قصة تثبت في صورة عملية ، واضحة رائعة ، أنَّ وراء المعلومات والمكشوفات في هذا العالم ، وفي هذه الحياة مجهولات كثيرة ، وأنَّ ما يجهله الإنسان ـ وأعظم إنسان في عصره ـ أكثر مما يعلمه ، وأنَّه دائماً يبني حكمه على ما يشاهده ، ويشعر به ، ولذلك يخطىء كثيراً ، ويتعثَّر كثيراً ، وأنَّه لو انكشفت له حقائق الحياة ، وبواطن الأمور وعواقبها ، لتغيَّر حكمه كثيراً ، ونَقَضَ ما أبرم ، وتثبت أنه لا ثقة بأحكامه وأقضيته ، وميوله وانطباعاته ، وأنْ لا إحاطة بهذا الكون الواسع ، ولا يصح الإسراع في الحكم ، والإلحاح على سوانح الآراء ، فإنَّ الحياة غامضة ملتوية ، وأنَّ الكون واسع فسيح ، وكثيراً ما يختلف الباطن عن الظاهر ، والآخر عن الأوَّل ، وأنَّ في هذه الحياة ألغازاً ، لم يستطيع الإنسان ـ على ذكائه وعلمه وحرصه ـ أن يحلّها ، وأنَّ في هذا الكون عُقَداً وغوامض لم يستطع العلم البشري مهما اتَّسع وارتفع أن يكشفها ، وأنَّ حياتنا اليومية العامة مليئة بالأخطاء الفاحشة ، والأحكام السريعة ، والخطوات المتهوِّرة ، والآراء المرتجلة وأنَّه لو أُسندت إليه إدارة هذا العالم الفسيح ومُنِح الحرية التامَّة ، والتصرُّف المطلق ، لأفسد العالم ، وأهلك الحرث والنَّسْل ، لأنَّ نظره قاصر ، وعمله محدود ، وقد خُلق من عَجَل ، وفطر على السرعة وقلَّة البصر .

## بين موسى والخضر :

لقد اختار الله لتقرير هذه الحقيقة العظيمة ـ التي هي أساس الأديان أو

الإيمان بالغيب ـ أعظم شخصية في عصره ، والذي أوتي علماً كثيراً ، وخيراً كثيراً ، هو موسى عليه الصلاة والسلام أحد أولي العزم من الرسل ، « قام خطيباً في بني إسرائيل ، فسئل : أيُّ الناس أعلم ؟ قال : أنا ، فعتب الله عليه إذ لم يَرُدَّ العلم إليه ، فأوحى الله إليه أنَّ عبداً بمجمع البحرين هو أعلم منك »[١] .

## تصرُّفات غريبة :

وتبدأ رحلته مع الرجل الذي آتاه الله من عنده رحمة ، وعلَّمه من لَدُنْه علماً ، فيصطدم علمه وفهمه بالحقيقة الراهنة ، ويتعارض حكمه ورأيه واتِّجاهه ـ وهو الاتِّجاه الذي يقرِّره الظاهر ـ مع واقع الأمر الذي يجهله ، ثلاث مرَّات : إنَّ الخضر يخرق السفينة التي حملتهما ، وأركبهما صاحبها من غير نَوْل[٢] ، ولكن الخضر يكافىء يده بضدِّها ويتسبَّب ـ على ما كان يظهر لموسى ـ في غرق ركابها الوادعين !! ويقتل غلاماً زكيَّاً لم يسىء إليهما ، ولم يسىء أبواه ، وبالعكس من ذلك يقيم جداراً يريد أن ينقضَّ من غير أُجرة يتقاضاها ، وذلك في قرية لم يضيّفهما أهلها ، ولم يعرفوا حقَّهما ، هذه كلُّها تصرُّفات غريبة من الخضر تثير في موسى الاستغراب والدَّهشة ، وتحمله على الإنكار والسؤال مرة بعد مرة .

فقد كان من حقِّ السفينة التي حملتهما أن يحتفظ بها ويحرص عليها ، وقد كان من حق صاحب السفينة الذي أسدى إليهما المعروف أن ينصح له ويعرف له الفضل ، وقد كان من حقِّ الغلام الزكي الوسيم أن يُحَبَّ ويُحْرَس ، وقد كان من حقِّ القرية التي تنكَّرت لهما وجفتهما ، وقسا عليهما أهلها ، وشحُّوا بفُضُول طعامهم وأزوادهم ، أن لا يُحْسن إليهم ، ولا يُحرص على أموالهم ، ولكن الخضر يعاكس المعقول ، المعروف المنتظر ، ويتَّخذ في جميع هذه القضايا الثلاث موقفاً لا يقرُّه العقل ، ولا يؤيِّده المنطق ، ولا يسيغه

---

(١) الجامع الصحيح للبخاري ج ـ ٢ ، « كتاب التفسير » .
(٢) أجرة الركوب .

الذوق ، ولا يملك موسى نفسه ـ وهو المؤمن الغيور والنبي المرسل ـ أمام هذه التصرفات الغريبة ، فينسى وعده ، ويسرع إلى الإنكار والتساؤل ، ويقول : ﴿ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا ﴾ [ الكهف : ٧٤ ] .

## ما أعجب الحقائق إذا ظهرت !!:

ويؤجل الخضر الإجابة عن أسئلة موسى وإقناعه ، ويمضي في خِطَّته بتؤدة وأناة ، حتى تنتهي هذه الرحلة إلى غايتها المقدَّرة ، فيكشف القناع عن هذه القضايا الثلاث ، التي كانت موضع دهشة واستغراب من موسى ـ ومن كل من يقرأ هذه القصة في القرآن ـ مرة واحدة ، فيتجلَّى أنَّ الخضِر كان مصيباً محسناً ، حكيماً في تصرُّفاته الثلاثة ، وأنَّه لم يكن مسيئاً في موضع إحسان ، ولا محسناً في موضع إساءة ، وقد أحسن لصاحب السفينة بخرْقها إذ حفظها من الاغتصاب ، فقد كان وراءها ملك يأخذ كل سفينة ـ صالحة سليمة ـ غَصْباً ، فكافأه بذلك على إحسانة ومعروفه ، وقد أحسن إلى أبوي الغلام بقتله إذ كان هذا الغلام فتنة لهما ، كان يخْشى أن يرهقهما طُغياناً وكُفراً ، فرأى أنَّ بكاء ساعة أفضل من بكاء طول الحياة وبعد الحياة ، ورأى أنَّ الغلام عنه عوض ، ولا عوض عن الدين والعافية ، ﴿ وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴾ [ الكهف : ٨٠ ـ ٨١ ] .

وقد أصلح الجدار وأقامه ، لأنَّه كان ليتيمين من أبوين صالحين ، وكان تحته كَنْزٌ لهما لو تهدَّم وانقضَّ هذا الجدار لانكشف هذا الكنز الدفين ، واختطفه السُّرَّاق والناهبون ، وبقي الغلامان من غير مال ولا رصيد ، وهكذا ظهر أنَّ صلاح العمل ينفع في الحياة وبعد الممات ، وأنَّ الله لم يُرِدْ أن يضيِّع أولاد الرجل الصالح ، فكيف يضيع الرجل الصالح ، ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [ يوسف : ٩٠ ] ، ﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ﴾ [ آل عمران : ١٩٥ ] . وأنَّ البذور الصالحة تظهر نتيجتها ، كما أنَّ البذور الفاسدة تظهر نتيجتها : ﴿ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي

﴿ ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾ [ الكهف : ٨٢ ] .

## العلم البشري لم يبلغ الكمال والغاية :

ما أعجب الحقائق إذا ظهرت !! وما أبعد الشُّقَّة بين الصورة والحقيقة ، والظاهر والباطن ، وما أعقد هذه الحياة ، وما أغمض هذا الكون ، وما أكثر ألغاز الحياة ، وما أجرأ الإنسان في ادِّعائه أنَّه أحاط بكلِّ شيءٍ علماً ، ووصل إلى الحقيقة في كلِّ قضيَّة !! ما أبعد الخَضِر عن الصواب ، وسبيل الرشاد في أوائل الأمور ، وما أقربه إليه وما أرشده في عواقب الأمور !! لقد تحقَّق أنَّ هذه الحياة لا تزال تطلع بكلِّ جديد ، وتهجم بكلِّ غريب ، وتحقق أنَّ العلم البشري لم ينتهِ إلى الحد الأخير، ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ [ يوسف : ٧٦ ] .

## تحدّ للتفكير المادي :

إنَّ هذه القصَّة وما تشتمل عليه من روح ومغزى ، تتحدَّى التفكير المادي الذي يلحُّ على أنَّ الحياة هي التي فهمها الإنسان ، وعلى أنَّ هذا الكون هو الذي أحاط به علماً ، وأن ليست الحقيقة إلَّا ما تتراءى للعيون ، وأنَّ الظواهر هي التي يصحُّ عليها الحُكْم ، وأنَّ الإنسان يستحق أن تُسنَد إليه إدارة هذا العالم ، ويخوّل حق التشريع ، فقد اكتمل عقلاً وعلماً ودراسة ، وبلغ إلى أغوار الحقيقة ، وأعماق العلم ، وحقائق الكون .

لقد قامت الفلسفات الماديّة على هذا الأساس ، وقد قامت الحضارة العصرية على هذا التفكير والعقيدة ؛ وسورة الكهف ـ بعامة محتوياتها ومختلف آياتها ـ وقصة موسى والخضر بصفة خاصة تنقض هذا الأساس ، وتهدم هذا البناء ، وتنتهي القصَّة بقول الخضر لموسى : ﴿ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾ [ الكهف : ٨٢ ] ، والتأويل في اصطلاح القرآن هو

الحقيقة[١] . . وهكذا يتعجَّل الإنسان وينكر ويخطىء حتى تتجلَّى له الحقيقة ، ويأتي التأويل[٢] .

* * *

(١) راجع تفسير سورة الإخلاص لشيخ الإسلام ابن تيمية .
(٢) نُشر هذا المقال في مجلة « البعث الإسلامي » في عددها العاشر ، المجلد الخامس عشر ، عام ١٩٧١م .

# ( ٤ )
# قصّة ذي القَرْنين

**القصة الرابعة وهي الأخيرة :** قصة رجل جمع بين الإيمان والصلاح ، والقوّة الفائقة ، وتسخير القوى والطاقات المهيَّأة للإنسان ، واستخدم الوسائل الموجودة في عصره ، فاستخدم كلّ ذلك ـ بعكس الطُّغاة المفسدين ، والفاتحين الظالمين ـ في صالح الإنسان ، وفي خدمة البشرية ، وبناء المدينة الصالحة .

اختلف المفسِّرون في شخصية هذا الرجل ، والقول الشائع المشهور ، أنه الإسكندر المقدوني ، وهو القول الذي انتصر له الإمام الرازي ، وذهب إليه عامة علماء الإسلام ، ولكنه قول لا وجه له ، لأنَّ الإسكندر المقدوني لا تتحقَّق فيه الصفات التي ذكرها القرآن في وصف ذي القرنين ، من اتِّصافه بالإيمان بالله وخشيته ، والعدل والرأفة بالمفتوحين ، وبناء السد العظيم ، وأرجِّح أنَّ هذا القول نشأ من عدم الاطلاع على تاريخ الإسكندر وسيرته في الحروب ، وذهب بعض الفضلاء المعاصرين[١] إلى أنَّه الشخص الذي يسمِّيه

---

(١) أشهرهم المرحوم مولانا أبو الكلام آزاد ، الزعيم المسلم ، والكاتب الإسلامي ، ووزير المعارف سابقاً في الجمهورية الهندية ، له بحث طويل في هذا الموضوع ، دعَّمه بالوثائق التاريخية ، وشواهد من كتب اليهود في المجلَّد الثاني من كتاب « ترجمان القرآن » في تفسير سورة الكهف ، وهنا خلاصة للقارىء العربي باختصار :

« ظهر سائرس في سنة ٥٥٩ق.م . وقد جمع بين مملكتين فارسيتين عظيمتين ، كانتا قد انفصلتا منذ زمان ، وهما ( ميديا ) الجزء الشمالي الذي قد يعبِّر عنه المؤرخون العرب بـ« ماهات » ، وفارس الجزء الجنوبي ، فكوَّن منها إمبراطورية فارسية عظمى ، ثم امتدت فتوحه ومغامراته التي اتسمت بالعدل والكرم ، والانتصار =

اليونان « سائرس Syrus » ، وتسميه اليهود « خورس » ، ويذكره المؤرخون العرب بـ « كيخسرو » .

ونحن نوافق على ما كتبه الأستاذ الشهيد سيد قطب في هذا المقام ، ويَحْسُن بنا أن ننقله حرفياً ، قال رحمه الله : « إن النص لا يذكر شيئاً عن شخصية ذي القرنين ، ولا عن زمانه أو مكانه ، وهذه هي السِّمات المطَّردة في

---

= للضعيف المظلوم ، فلم ينقضِ اثنا عشر عاماً حتى خضعت له البلاد والدول ما بين البحر الأسود إلى باختر Bactria ، وقد ثبت تاريخياً أنه غزا الغرب مرة ، فأوغل فيه إلى غرب آسيا الصغرى وفتح دولة ليديا التي كانت عاصمتها ساردس Sarids حتى وصل إلى البحر في أقصى الغرب ، فوجده يموج ، وتراءت له الشمس تغرب فيه ، فتوقف هناك لعدم وجود البوارج الحربية ، ولا يستغرب إذا كان قد وصل إلى ساحل من سواحل بحر إيجه Agean Sea الواقع في جوار « سمرنا » والبحر يتراءى هناك بحيرة ، وقد تمثلت له الشمس في الأصيل تغيب في الوحل الذي نشأ على ساحلها ، وهو الذي يصوره القرآن بقوله : ﴿ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ ﴾ .

وغزا ثانية الشرق ، فوصل في هذه الغزوة إلى مكران وبلخ ، وأخضع القبائل الهمجية التي ليست لها وقاية من الشمس لبعدها من المدنية ، ﴿ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴾ ، ثم ذهب إلى بابل العاصمة المنيعة ، فأنقذ اليهود « بني إسرائيل » من الذل والأسر ، والاضطهاد الذي سلَّطه عليهم ملك بابل « بخت نصر » فأصبح بذلك منقذ اليهود .

ولهجوا بذكره والثناء عليه ، والتساؤل عنه ، وبذلك حقق نبوءات بني إسرائيل الواردة في التوراة .

وكانت له غزوة ثالثة في الشمال ، وقد ترك بحر خزر Caspian Sea عن يمينه ، حتى وصل إلى جبال القفقاس ، فوجد فجوة واقعة في هذه الجبال كان يدخل منها يأجوج ومأجوج ويعيشون في البلاد ، وهنا أقام السد ، وقد مات سائرس سنة ٥٢٩ق.م .

فوجد في سنة ١٨٣٨م تمثال من رخام في أنقاض إصطخر Passar Cadae ظهر في رأسه قرنان مثل قرني الكبش ، يمثلان مملكتي ميديا وفارس اللتين جمع بينهما سائرس ، وبذلك سمي ذا القرنين ، وقد شهد المؤرخون العصريون بكرم سائرس ، وشخصيته العادلة الفاضلة . ومن أراد التوسع في ذلك فليقرأ مقالة البروفسور B.Grundi راجع المجلد الثاني من Universal History of the World لمؤلفه « J.A.Hammerton » .

قَصصَ القرآن ، فالتسجيل التاريخي ليس هو المقصود ، إنما المقصود هو العِبْرة المستفادة من القصة ، والعبرة تتحقق بدون حاجة إلى تحديد الزمان والمكان في أغلب الأحيان .

والتاريخ المدوَّن يعرف ملكاً اسمه الإسكندر ذو القرنين ، ومن المقطوع به ، أنه ليس ذا القرنين المذكور في القرآن ، فالإسكندر الإغريقي كان وثنياً ، وهذا الذي يتحدَّث عنه القرآن مؤمن بالله ، موحِّد معتقد بالبعث والآخرة .

ويقول أبو الريحان البيروني المنجِّم في كتاب ( الآثار الباقية عن القرون الخالية ) : « إن ذا القرنين المذكور في القرآن ، كان من حِمْير ، مستدلًّا باسمه ، فملوك حِمْير كانوا يلقبون بذي ، كذي نواس ، وذي نيرن ، وكان اسمه أبو بكر ابن إفريقش ، وأنه رحل بجيوشه إلى ساحل البحر الأبيض المتوسط ، فمر بتونس ، ومراكش وغيرهما ، وبنى مدينة إفريقية ، فسمِّيت القارة كلها باسمه ، وسمي ذا القرنين لأنه بلغ قرني الشمس » .

وقد يكون هذا القول صحيحاً ، ولكننا لا نملك وسائل تمحيصه ، ذلك أنه لا يمكن البحث في التاريخ المدوّن عن ذي القرنين ، الذي يقص القرآن طرفاً من سيرته ، شأنه شأن كثير من القصص الوارد في القرآن كقصص قوم نوح وقوم هود ، وقوم صالح وغيرهم ، فالتاريخ مولود حديث العهد جداً بالقياس إلى عمر البشرية ، وقد جرت قبل هذا التاريخ المدون أحداث كثيرة ، لا يَعْرف عنها شيئاً ، فليس هو الذي يُسْتَفْتى فيها .

ولو قد سلمت التوراة من التحريف والزيادات ، لكانت مرجعاً يعتمد عليه في شيء من تلك الأحداث ، ولكن التوراة أُحيطت بالأساطير التي لا شكَّ في كونها أساطير ، وشُحنت كذلك بالروايات التي لا شك في أنها مزيدة على الأصل الموحَى به من الله ، فلم تعد التوراة مصدراً مستيقناً لما ورد فيها من القصص التاريخي .

وإذاً فلم يَبْقَ إلّا القرآن ، الذي حُفظ من التحريف والتبديل ، هو المصدر الوحيد لما ورد فيه من القصص التاريخي ، ومن البديهي أنه لا تجوز

محاكمة القرآن الكريم إلى التاريخ لسببين واضحين :

**أولهما** : أن التاريخ مولود حديث العهد ، فاتته أحداث لا تحصى في تاريخ البشرية لم يعلم عنها شيئاً ، والقرآن يروي هذه الأحداث التي ليس لدى التاريخ علم عنها !!

**وثانيهما** : أن التاريخ ـ وإن وَعَى بعض هذه الأحداث ـ هو عمل من أعمال البشر القاصرة ، يصيبه ما يصيب جميع أعمال البشر من القصور والخطأ والتحريف ، ونحن نشهد في زماننا هذا ـ الذي تيسرت فيه أسباب الاتِّصال ووسائل الفحص ـ أن الخبر الواحد ، أو الحادث الواحد ، يُرْوى على أوجه شتى ، وينظر إليه من زوايا مختلفة ، ويفسَّر تفسيرات متناقضة ، ومن مثل هذا الركام يُصْنع التاريخ ، مهما قيل بعد ذلك في التمحيص والتدقيق !!

فمجرد الكلام عن استفْتاء التاريخ بما جاء به القرآن الكريم من القصص ، كلام تنكره القواعد العلمية المقررة التي ارتضاها البشر ، قبل أن تنكره العقيدة التي تقرر أن القرآن هو القول الفصل ، وهو كلام لا يقول به مؤمن بالقرآن ، ولا مؤمن بوسائل البحث العلمي على السواء ، إنما هو مراء !! .

لقد سأل سائلون عن ذي القرنين ، سألوا الرسول ﷺ فأوحى إليه الله بما هو وارد هنا من سيرته ، وليس أمامنا مصدر آخر غير القرآن في هذه السيرة ، فنحن لا نملك التوسع فيها بغير علم ، وقد وردت في التفاسير أقوال كثيرة ، ولكنها لا تعتمد على يقين وينبغي أن تؤخذ بحذر ، لما فيها من إسرائيليات وأساطير[1] .

## مثل للملك الصالح المصلح :

وسواء اهتدينا إلى شخصية معينة مؤكدة نطلق عليها اسم ذي القرنين ، ونطبِّق عليها التفاصيل التي جاءت في القرآن ، أو لم نهتد إليها في ضوء

---

(١) ( في ظلال القرآن ) الجزء السادس عشر ، الطبعة الخامسة . لسيد قطب ، ص٨ ، ٩ ، ١٠ .

التاريخ الذي لا نملك منه إلا القليل الناقص الذي تأخر تدوينه ، وتعسر الجزم به ، والاعتماد عليه ، فإن ذلك لا يضر قارىء القرآن ولا ينقصه ، فهو رجل آتاه الله القوة والأسباب ، وعلوَّ الهمة والطموح المحمود ، ﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴾ [ الكهف : ٨٤ ـ ٨٥ ] . لقد اتَّسعت فتوحاته ، وامتدت إلى أقصى الشرق ( مطلع الشمسِ ) ، وإلى أقصى الغرب ( مغربَ الشمسِ ) ، فكان في كل فتوحه ومغامراته ، صالحاً ومصلحاً ، منتصراً للحق ، ناصراً للضعفاء ، قاهراً للطُّغاة الأقوياء ، وكان من مبدئه وخطته ﴿ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴾ [ الكهف : ٨٧ ـ ٨٨ ] وما أفضله من مبدأ ، وما أعدله من خِطَّة ، وما أقومه من خُلُق وسيرة .

وواصل فتوحه ومغامراته حتى وصل إلى أمة تعيش في فَجْوة من جبلين ، تعيش في خطر دائم ، وفي قلق دائم ، من أمة همجية وَحْشيَّة ، وراء الجبال ، يذكرها القرآن ، وتذكرها الصحف السماوية بيأجوج ومأجوج[1] ، تعيش في

---

(١) ونحن نؤيد الأستاذ سيد قطب فيما قال في تفسير هذه المجالات ، إذ قال : « ونحن لا نستطيع أن نجزم بشيء عن المكان الذي بلغ إليه ذو القرنين ( بين السدَّين ) ولا ما هما هذان السدَّان ، كل ما يؤخذ من النص أنه وصل إلى منطقة بين حاجزين طبيعيين ، أو بين سدَّين صناعيين ، تفصلهما فجوة أو ممر ، فوجد هنالك قوماً متخلفين : ﴿ لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴾ ( ج١٦ ، ص١٣ ) .
أما يأجوج ومأجوج ، وتحديد جنسيتهم ومكانهم ، وزمن خروجهم ، وأوان فتح السدِّ ، فكل ذلك يطول البحث فيه في ضوء التفسير ، وما ورد في الأحاديث من أشراط الساعة ، والفتن والملاحم ؛ ويصعب الجزم بشيء على طريق التعيين والتأكيد ، والإطلاق والتطبيق ، فنحيل القارىء إلى كتاباتِ مَنْ توسَّعوا في هذا الموضوع من المتقدِّمين والمتأخِّرين على قلَّة عددهم وندرة كتاباتهم ، ولا تزال أبواب الفتن والملاحم والأحاديث التي جاءت فيها أشراط الساعة ، وما كان ، ويكون بين يدي الساعة ، تنتظر باحثاً عالي الهمة ، راسخ القدم في العلوم الدينية ، عالي الكعب في التاريخ ، صبوراً دؤوباً في الدراسة والبحث ، سليم العقيدة ، حسن القصد ، فإنها من أدق العلوم وأوسعها بحثاً ، ولعل الله يُحدِث بعد ذلك أمراً .

حياة مضطربة دائماً ، متصارعة دائماً ، ﴿ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ ﴾ [ الكهف : ٩٩ ] . ورأوا أنَّ الفرصة سانحة ، وأن الله قد قيَّض لهم ، وساق إليهم ملكاً صالحاً قوياً ، فطلبوا منه أن يحفظهم من هؤلاء الوحوش المفسدين ، ويستعمل وسائله الكثيرة ، وجيشه الكثيف في بناء السدِّ الذي يحول بينهم وبين يأجوج ومأجوج ، وعرضوا عليه أموالهم .

وقَبِلَ الرجل الصالح طلبهم ، ووعدهم ببناء السد ، واستغنى بما آتاه الله من الخير الكثير عن أموالهم ، بخلاف الملوك الطامعين ، وطلب منهم أن يساعدوه بالسواعد ، وما يوجد في بلادهم من الحديد والفولاذ : ﴿ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ ﴾ [ الكهف : ٩٥ - ٩٦ ] . وتعاون الجميع في بناء هذا السدِّ المبارك ، الملك الصالح بحكمته وصُنَّاعه ، وأهل البلاد بأيديهم وحديدهم : ﴿ آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴾ [ الكهف : ٩٦ ] .

وتهيَّأ السدُّ وتم المشروع ، وأَمِنَ القوم الأعداء وراء الجبلين الشامخين ، والسدِّ المنيع ﴿ فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا ﴾ [ الكهف : ٩٧ ] .

## فقه المؤمن العليم :

وهنا تجلَّى الإيمان في الملك القوي الغني ، القاهر للأمم ، الفاتح للعالم ، فما زَهَا ، وما سَهَا ، وما تكبَّر ، ولم يقل : ﴿ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي ﴾ [ القصص : ٧٨ ] ، بل ردَّ الفضل في كل ذلك إلى الله تعالى ، ولم يعتقد أن عمله دائم خالد ، وأن السدَّ لا سبيل إليه ، بل قال في فقه المؤمن العليم ، المؤمن بالآخرة ، والعليم بضعف الإنسان ، وتقلُّبات الزمان ، ﴿ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴾ [ الكهف : ٩٨ ] .

هذه سيرة الإنسان القويِّ العليم الذي يسخِّر القِوَى الكونية والماديَّة ، ويملك أعظم مقدار من الأسباب والوسائل ، ويوسِّع فتوحه ومغامراته ، وهو في كل ذلك وفي أوج قوته وسلطته وسيادته ، وتسخيره للقوى والأسباب ، مؤمن بربِّه خاضع له ، مؤمن بالآخرة ساعٍ لها ، مُقِرٌّ بضعفه ، رحيم بالإنسانية

وبالأمم الضعيفة ، حامٍ للحق ، يستخدم كل قوَّته وجهده ومواهبه ، وجميع وسائله وذخائره ، لخدمة الإنسانية وتكوين المجتمع الصالح ، وإعلاء كلمة الله ، وإخراج الناس من الظلمات إلى النور ، ومن عبادة الناس والمادة إلى عبادة الله ؛ سيرةٌ مثَّلها سليمان بن داود عليهما السلام في عصره ، ومثَّلها ذو القرنين في عصره ، ومثَّلها الخلفاء الراشدون ، والأئمة المهديون في عصورهم[١] .

## طابع الحضارة الغربية ، الثورة على فاطر الكون :

وقد كان من المصادفات الأليمة المحزنة ، والمآسي الفاجعة للبشرية أن الحضارة الغربية قد ولدت وترعرعت في عصر ، قد ثار على الدين وأسسه ، من الإيمان بالغيب وغير ذلك ، وفي أمة قد ثارت على الذين تزعَّموا الدين واستغلُّوه لشهواتهم وأنانياتهم ، واشتدَّ غضبها عليهم لسوء سيرتهم ، وهمجيتهم ، ووقوفهم في سبيل التقدم ، وحرية العقل والعلم[٢] ، فرافق نشوء الحضارة والصناعة ، والاتجاه المادي العنيف ـ الاتجاه إلى تنظيم الحياة ـ على أسس ماديَّة خالصة ، وقطع صلة المجتمع والبشرية عن فاطرها ، ومصرِّف هذا الكون . . وكل ذلك اقتضته سلسلة الأسباب ، وطبائع الأشياء ، ووضع أوربة الخاص ، فشبّت هذه الحضارة واختمرت مع الإلحاد والإفساد ، وقد أصبحت المسيطرة على القوى والأسباب ، وبلغت الغاية في التقدم والصناعة ، وعلوم الطبيعة ، حتى استطاعت أن تعدم المساحات والأبعاد ، وتجاوز الكرة الهوائية ، واستطاع الإنسان أخيراً أن يصل إلى القمر ، إلى غير ذلك من الفتوح في دائرة العلوم الطبيعية والفلكية .

فالجمع بين القوة الهائلة ، وتسخير القوى والأسباب ، والاستيلاء على

---

(١) نُشر هذا المقال في مجلة « البعث الإسلامي » في عددها الثالث ، المجلد السادس عشر ، عام ١٩٧١م .

(٢) اقرأ تفصيل ذلك في كتاب العلامة الندوي « ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين » الفصل الأول من الباب الرابع .

الكون ، وبين الكفر والمادية ، طابع الحضارة الغربية ، وسِمَتها وشعارها ، فلم نعرف حضارة بلغت من القوة والتقدم ، وإخضاع القوى والأسباب ، ومن محاربة الأديان والأخلاق ، والثورة على فاطر الكون وشرائعه ، والدعوة إلى عبادة المادة ، والنفس والشهوات ، وادّعاء الربوبية ما بلغت هذه الحضارة .

## منتهى الحضارة المادية :

لقد شبَّت هذه الحضارة كما قلنا مسيطرة على الكون ، كافرة بالله مؤمنة بالمادة ، ونشأ رجالها لا يؤمنون إلَّا بقوتهم وصناعتهم ، ولا ينظرون إلَّا إلى فائدتهم ومصلحتهم ، وأصبحت مراكزها الكبرى ـ أمريكا ، وأوربة بما فيها روسيا ـ حرباً ـ بإعلان وغير إعلان ـ على الغَيْب والروح والأخلاق ، والنُّظُم السماوية ، وقَرُب الزمان الذي تبلغ فيه هذه الحضارة غايتها المادية والصناعية ، ويظهر زعيمها الأكبر الذي ينعته لسان النبوة ، ويلقبه بـ ( الدجال )[1] . وهو في ذروة التقدُّم المادي ، والصناعي ، وأوج الكفر بالله ، والدعوة إلى المادية والإلحاد وعبادة الطبيعة والأسباب ، ومن يسخِّرها ويسيطر عليها ، تلك فتنة العصر الأخير ، وداهية العالم ومنتهى الحضارة المادية ، التي ظهرت قبل قرون في أوربة .

---

(١) قد بلغت الأحاديث التي ورد فيها ذكر الدجَّال وكثير من صفاته حدَّ التواتر المعنوي ، ونصَّت على أنه شخص معيَّن بصفات معينة ، يظهر في زمن معين لم يحدّ بالتاريخ والتوقيت ، في شعب معين هم اليهود ، فلا سبيل إلى إنكاره ، ولا ضرورة في ذلك ، وفي ظهوره وعلو كلمته في فلسطين ، وهو المسرح العالمي الأخير الذي تتمثل عليه أروع قصة للصراع بين الإيمان والمادية وبين الحق والباطل ، وبين أهل الحق الشرعي والطبيعي ، الذين أكبر سلاحهم وحجتهم ، أنهم حَمَلة الدين والحق ، والدعوة إلى الله ، وإلى إسعاد الإنسانية والمساواة البشرية وبين أولئك الذين يؤمنون بقدس عنصر واحد ، ودم واحد ، ويكافحون لإخضاع العالم ووسائل الإنسانية لسيطرة هذا العنصر وسيادته ، ويملكون أعظم الوسائل العلمية ، والطاقات الفنية ، وقد بَدَت طلائع هذا الصراع الحاسم في مصير الإنسانية على أفق الشرق العربي الإسلامي ، وبدأت الحوادث والظروف تُهيىء الجو المناسب والبيئة الصالحة التي تتمثل فيها هذه القصة على يد أبطالها الحقيقيين .

## سِمَة الدجال الكفر والإفساد :

إن ذلك كلَّه تصوير للحضارة المادية ، والصناعية الميكانيكية والعلوم الطبيعية ، التي غايتها ونهايتها ، ويتزعَّمها الدجال ، ولكن ذلك لا يكفي ليجعله الدجال ، ويلهج لسان النبوة بذمِّه وتشنيعه ، والتحذير من فتنته ، فقد مَلَكَ هذه الأسباب والقوى سليمان في عصره ، وذو القرنين في عصره ، وتحدَّث القرآن عن قوتهما وسرعتهما وكثرة الأسباب والقوى التي كانا يملكانها ، فما هي النقطة الفارقة بينهما وبين الدجال ، وما هو الخط الفاصل بين الملِك الصالح ، والرجل القوي العليم ، الذي يمدحه الله تعالى ويقول : ﴿ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ [ ص : ٣٠ ] ، وبين الشخصية الفتَّانة التي حذّر منها الرسول ، وخافها على أمته واهتم بها هذا الاهتمام الكبير ؟ .

إنَّ النقطة الفارقة ، والخط الفاصل ، أنَّ سليمان وذا القرنين ومن أشبههما من الأفراد والجماعات من المسلمين في القرون الأولى ، قد جمعوا إلى القوة الفائقة ، والملك الواسع والحكمة المدهشة ، وتسخير القوى الطبيعية والأسباب المادية : الإيمان الراسخ ، والعمل الصالح ، والسيرة الفاضلة ، والمقاصد الخيِّرة ، والدعوة إلى الله وإلى الحق ، واستخدام كل ما أوتوه من علم وحكمة وسبب وقوة في إسعاد البشرية ، وخدمة الإنسانية ، والرحمة والعدل ، فقد وصفهم القرآن بقوله : ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾ [ الحج : ٤١ ] وبقوله : ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [ القصص : ٨٣ ] .

أما الدجَّال فَسَمْتُهُ وطابعه الذي عرَّف الرسول به أمته ، فهو ( الكفر ) بمعانيه الواسعة الكثيرة ، فقد جاء في حديث صحيح : « أنه مكتوب بين عينيه ك ف ر يقرؤه كل مؤمن كاتب أو غير كاتب »[1] .

---

(١) رواه البخاري .

## تأثير الدجال في الحياة والمجتمع :

ويظهر من الأحاديث أنه داعٍ متحمس ، نشيط مؤثِّر يدعو إلى الكفر والثورة على الأديان والأخلاق ، فقد جاء في حديث آخر : « فوالله إنَّ الرجل ليأتيه وهو يحسب أنَّه مؤمن فيتبعه ، ممَّا يبعث به الشُّبُهات »[١] ، ويستفحل أمره ودعوته حتى يستشري الفساد على مرّ الأيام ، في النساء والبنات ، ويتغلغل في الأسر والبيوتات ، ويفقد ربُّ البيت سلطانه ونفوذه على أفراد الأسرة ، وعلى الزوج وربّات الحجال والأمهات والأخوات والبنات ، وقد جاء في حديث : « ينزل الدجَّال بهذه السبخة بمرِّ قناة ، فيكون آخر من يخرج إليه النساء ، حتى أن الرجل ليرجع إلى أمه وابنته وأخته وعمته فيوثقها رباطاً مخافة أن تخرج إليه »[٢] .

ويستمر فساد المجتمع ، والتحلل الخلقي : « فيبقى شرار الناس في خِفَّة الطير وأحلام السباع ، لا يعرفون معروفاً ، ولا ينكرون منكراً »[٣] ، ولا أبلغ من هذا التعبير ، ولا أصدق من هذا التصوير ، للحضارة الكافرة المادية في أوج تقدُّمها وازدهارها ، وفي أعظم مراكزها ، وأمصارها ، وهي معجزة من معجزات النبوة الخالدة، ومن جوامع الكَلِم التي لا تنقضي عجائبها، ولا تَخْلَقُ جِدَّتها ، فقد جمعت هذه الحضارة بين خِفَّة الطير التي تطير بها في الفضاء ، وسخَّرت بها الهواء ، وأصبح بها الإنسان العصري أسرع وأخف من الطائر ، وبين الهمجية السَّبْعيّة التي تدمر بها البلاد والعباد وتُهْلِك بها الحَرْثَ والنَّسْل في قسوة وهمجية ، لا نظير لها في التاريخ ، وهذا كلُّه في خفضٍ من العيش ، وَسعَةِ الرزق ، وتوفرٍ من الأسباب التي تكفل الهناء والراحة ، التي لم تعرف في دور من أدوار التاريخ ، « وهم في ذلك دارٌّ رزقهم حسن عيشهم »[٤] .

---

(١) أبو داود .
(٢) رواه الطبراني عن ابن عمر .
(٣) رواه مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما .
(٤) رواه مسلم عن عبد الله بن عمرو .

## يحسبون أنّهم يحسنون صنعاً :

إنَّ هذه الحضارة ، كما قدَّمنا تكفر بكل ما وراء هذا العالم المادي ، والحياة الدنيا ، وتركِّز الجهود والمواهب ، وتكرِّسها على ترقية هذه الحياة وترفيهها ، لذلك يقول الله في ضمن الآيات الأخيرة من هذه السورة الكريمة في صراحة ووضوح ، كأنَّه يخاطب رجال هذه الحضارة المادية وقادتها ، وتلاميذهم النجباء الأوفياء في العالم الإسلامي ، وفي الشعوب المسلمة بالتعيين ، ويصوِّرهم تصويراً دقيقاً تتجسَّم فيه ملامحهم وقَسَمات وجوههم ، وما أبلغ هذه الآيات التي تكفَّلت الردَّ على المادِّيّة الملحدة وزعمائها الدجَّالين الذين ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴾ [ البقرة : ١١ ] ، وما أصدقها انطباقاً على اليهود الذين أعرضوا عن الآخرة وتناسَوها في تاريخهم الطويل المليء بالحوادث ، وفي نشاطهم الباهر ، الذي لعب دوراً حاسماً في مجال العقل والحكمة ، والصناعة والسياسة ، وفي انقلاب الحكومات والنُّظم وحدوث الثورات ، وفي توجيه عبقريَّتهم ومواهبهم ، وذكائهم إلى الأعمال السلبية الهدَّامة ، ونشر القلق والفوضى ، والسَّعي وراء كسب القوَّة والسيادة لعنصر واحد ، هو العنصر الإسرائيلي المقدَّس ، وشعب واحد ، هو شعب الله المختار .

﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴾ [ الكهف : ١٠٣ ـ ١٠٥ ] .

## قصور العلم والعقل البشري وعدم الإحاطة ( بكلمات ) الله :

ثم عاد فعارض النظرة المحدودة إلى الكون والعلم القاصر ، الذي يزعم الإحاطة بهذا الكون الواسع ، بما فيه الأرض والسموات ، والمخلوقات والموجودات ، والنجوم والكواكب ، وما اشتمل عليه البر والبحر ، والفضاء والخَلاء ، وما حواه علم الله وقدرته ، ويتيه به أصحابه ، ويتطاولون بعلمهم ومعلوماتهم ، ودراستهم لهذا الكون ، مع أنَّ كل ذلك لا تبلغ قطرة من

البحر ، ولا ذرَّة من صحراء واسعة .

وهذا التِّيه والإعجاب ، والاعتماد الزائد على المعلومات والدراسات ، وما وصل إليه العلم البشري في عصر من العصور ، وإنكار كل ما وراءه ، وهذا الصَّلَف والغرور ، وضيق الفكر وقصر النظر ، هي الجرثومة التي ولَّدت الماديَّة بجميع معانيها ، أو بجميع مفاسدها وشرورها ، وهي النَّفسية البشرية المنحرفة ، التي حَمَلت مرة على الظلم والطغيان ، وادِّعاء الألوهية والربوبيَّة ، واضطهاد من أكرمهم الله بالمعرفة الحقيقية ، والنظرة العميقة الواسعة ، كما جاء في قصَّة أصحاب الكهف . ومرَّة أخرى على الاقتصاد الموجود المحدود ، والمتعة الزائلة ، والسراب الخادع ، واعتقاد الخلود ، وبقاء أسباب الرفاهية والهناء وتحقير من كان قليل الحظ من هذه الأسباب ، كما جاء في قصَّة صاحب الجنَّتين .

وقد يحمل العلم البشري المحدود على استغراب كل ما ينافي بادي الرأي ، ومقتضى العقل ، وظاهر المحسوس ، كما جاء في قصَّة موسى والخضر . وقد تخطىء العين القصيرة النظر ، فتخيِّل البعيد قريباً ، والمجاز حقيقة ، فخيَّلت لذي القرنين أنَّ الشمس تغرب في عين حمئة ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغۡرِبَ ٱلشَّمۡسِ وَجَدَهَا تَغۡرُبُ فِي عَيۡنٍ حَمِئَةٖ ﴾ [ الكهف : ٨٦ ] ، وخيَّلت لملكة سبأ الصرح الممرَّد من قوارير لُجَّةَ ماء ، فعاملتها معاملة ماء وكشفت عن ساقيها : ﴿ قِيلَ لَهَا ٱدۡخُلِي ٱلصَّرۡحَۖ فَلَمَّا رَأَتۡهُ حَسِبَتۡهُ لُجَّةٗ وَكَشَفَتۡ عَن سَاقَيۡهَاۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرۡحٞ مُّمَرَّدٞ مِّن قَوَارِيرَۗ ﴾[1] [ النمل : ٤٤ ] . فجاءت خاتمة هذه السورة قرينة بمقدِّمتها تبرهن على أنَّ علم الله أعظم من علم البشر ، وعلى أنَّ الكون أوسع مما عرفه الإنسان ، وعلى أنَّ كلمات الله ـ بمعناها الواسع[2] ـ لا يحيط بها علم إنسان ، ولا يكفي لتسطيرها الأشجار ، إذا تحوَّلت أقلاماً ، والبحار إذا أصبحت

---

(١) القصة بطولها في سورة النمل .

(٢) جاء في روح المعاني للعلاَّمة الآلوسي : « والمراد بكلماته تعالى كلمات علمه سبحانه وتعالى وحكمته ، وقيل المراد بها مقدوراته جل وعلا ، وعجائبه عزَّ وجلَّ ، التي أراد الله سبحانه شيئاً منها ، قال تبارك وتعالى : ﴿ كُن فَيَكُونُ ﴾ .

مـداداً[1] ، ﴿ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴾ [ الكهف : ١٠٩ ] ، وقال في سورة لقمان : ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [ لقمان : ٢٧ ] .

## الحاجة إلى النبوّة ، وسرّ اختصاص النبيّ :

وهنا ينشأ سؤال ، إذا كان هذا الكون بسَعَة أرجائه ، وكثرة موجوداته ، وإذا كانت كلمات الله لا تكفي لها الأشجار أقلاماً ، والبحار مداداً ، وإذا كان كل ذلك فوق الطاقة البشريَّة ، ووراء العقل البشري ، والعلم البشري ، فما السبيل إلى معرفة خالقه ، ومعرفة صفاته وآياته ، وحلِّ لُغْزِ الحياة ، والاهتداء إلى سبيل السعادة والنجاة ، وما فضل نبي على غيره ، إذا كان بشراً ؟ والبشر ، عقله قاصر ، وعلمه محدود . . وعن كل ذلك تجيب الآية الكريمة ، فتقول عن لسان محمَّد ﷺ : ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾ [ الكهف : ١١٠ ] .

فالسرُّ في هذا الامتياز والاختصاص ، ومصدر هذه المعرفة الصحيحة التي

---

(١) ألقى العلم الحديث أضواءً لم تكن تخطر بالبال على سَعَة الكون وعالم الوجود ، والأبعاد الهائلة بين النجوم والكواكب ، وبينها والأرض ، والمسافات التي يقطعها الضوء ، وعدد النجوم المقدَّر بمليارات في مجرَّة واحدة ، وكثرة عوالم السُّدُم ، وعدد السُّدُم فيها ، وكثرة الشموس ، وأحجام النجوم والشموس وأوزانها ، والنواميس والقوانين الدقيقة العجيبة التي تنظم هذه الكائنات الهائلة ، وتضبط التناسب والتوازن بينها في الفضاء ، وتحافظ على الحياة في الأرض ، وأسرار نسبة البحر من البر ، ووضعه الحكيم ، وما اشتمل عليه علم الفلك الحديث من العلوم والحقائق ، وهذا ما عدا علم الأحياء ، و علم التشريح ، وعلم النبات والحيوان ، وغير ذلك من العلوم التي دقَّت وتوسَّعت توسُّعاً لم يكن الإنسان في الماضي يحلم به ويتخيَّله ، وتكوَّنت فيها مكتبات ، وقامت مختبرات لم تكن بالحساب ، وهذا كلُّه غير الموجودات المجهولات للإنسان التي تربى على معلوماته بنسبة بعيدة ، وصدق الله العظيم : ﴿ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى . . . ﴾ [ الكهف : ١٠٩ ] .

لا سعادة للبشر بغيرها ، هو ( الوحي ) : ﴿ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ ﴾ [ الكهف : ١١٠ ] .

## والآخرة أخيراً :

ويختم الله السورة بالحديث عن الآخرة ، وتفخيم شأنها ، والدعوة إلى جعلها أساساً لهذه الحياة ، ولكل عمل ، فجعل النهاية مقرونة بالبداية ، منسجمة مع الروح السارية في السورة كلِّها ، فيقول : ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾ [ الكهف : ١١٠ ] .

* * *

# آيات من سورة مريم :

## مظهر الإنسانية الحساسة الضعيفة والنبوة الكريمة القوية[١]

قصة تجلت فيها معاني الإعجاز والبلاغة القرآنية وجمال البيان والتعبير ودقة الوصف والتصوير في أروع مظاهرها ، قصة تجلت فيها رقة العاطفة الإنسانية وخلجات النفس البشرية التي تشفق على الحياة وتحرص على بقاء الذكر ووجود الوارث واستمرار النسل ـ الذي لا يستغرب من الإنسان ولا يلام عليه ـ حتى كأنك تسمع في هذه الآيات دقات القلب وهواجس الضمير ، قصة تجلت فيها الإنسانية الحساسة الضعيفة والنبوة الكريمة القوية جواراً بجوار وجنباً بجنب ، فجاءت تصويراً صادقاً ناطقاً لنبي إنسان ، أو إنسان نبي ، وأصبحت قطعة أدبية لا نظير لها في آداب الأمم ، وفيما عرفه الإنسان من بلاغة وبيان لأنه ﴿ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ وجاءت حلاوة الجرس وجمال النغمة ورقة الألفاظ فزادت جمالاً إلى جمال وطابقت روح القصة وموضوعها .

إنسان أكرمه الله بالنبوة وحمله أمانة الحياة أمانة الشرف الذي ورثه كابراً عن كابر وأمانة الرسالة الكريمة ، وابتلي بجفاء الأقران وظلم الإخوان ، ولم يزل يتحمل كل ذلك في قوة وجلد وصرامة حتى طعن في السن ودخل في المرحلة التي لا يطمع فيها الإنسان في حياة طويلة ويلتجىء فيها إلى مؤنس ورفيق وإلى خليفة يبقى به ذكره وتعيش به رسالته ، وقد شاهد النبي زكريا ـ الذي نقرأ قصته في هذه الآيات ـ في حياته ما ينذره بقرب الرحيل وانقطاع

---

(١) نُشر هذا المقال في مجلة « البعث الإسلامي » في عددها السادس ، المجلد الثامن والعشرون ، عام ١٩٨٣م .

العمر وهو نذير الشيب الذي أوهن العظم وبيض الشعر ، هناك هاجت العاطفة الإنسانية التي يقودها الإشفاق على الرسالة والخوف من ضياع ، وهو رجل وحيد فريد ليس له ولد يأنس إليه ولا خليفة يعتمد عليه ـ وكم ضاعت الأمانة بموت أصحابها وفقدان من يقوم بها ويحدب عليها ـ فدعا ربه أن يرزقه ولداً يقر عينه ويحمل رسالته ، ولكنه ـ لما أراد أن يدعو ـ خاف ، أن يسخر منه أقاربه ومن حوله ممن لا يخافون الله ولا يعرفون قدرته ولا يعرفون سمو عاطفته وشرف غرضه ، يضحكون لأنه يدعو للولد في هذه السن العالية التي لا يولد فيها عادة ، إنه خاف السفاهة والشماتة وقديماً خافها الأنبياء الكرام والرجال العظام ، وقد قال النبي هارون ﴿ فَلَا تُشْمِتْ بِيَ ٱلْأَعْدَآءَ ﴾ [ الأعراف : ١٥٠ ] فدعا ربه في احتراس وإسرار ، ولكن في جد وإصرار : ﴿ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴾ [ مريم : ٣ ] ، إنه كان يشعر أنه تقدم في السن ودلت القرائن والآثار على أنه سيغادر الدنيا من غير عقب وخليفة ، ولكنه واثق بقدرة الله ، مؤمن بأن الله على كل شيء قدير . إنه قرأ قصة إبراهيم في التوراة وكيف رزق الولد في سن أعلى من سنه وكيف قال لما بشر بالولد ﴿ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴾ [ الحجر : ٥٤ ] وهكذا قال زكريا ﴿ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴾ [ مريم : ٤ ] لقد تجلت فيها العاطفة مع العقل والعلم ، والحب مع الإيمان واليقين ، فكان خير دعاء يدعو به عبد يؤمن بقدرة ربه .

ولم يكن مجرد دعاء رجل لا هم له إلا في الولد ، بل هو دعاء نبي يحب أن يكون له ولد يحمل أعباء دعوته ووراثة آبائه الصالحين ﴿ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴾ [ مريم : ٦ ] .

ولما بشر بإجابة الدعاء هاجت فيه الإنسانية وتجاربها ﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ﴾ [ مريم : ٨ ] .

وطلب على هذا الحادث الغريب آية يعرف بها قرب وقوعه ويزداد بها إيماناً ، فمنح آية عدم القدرة على الكلام ثلاثة أيام ، ومن قدر على سلب قوة يملكها الإنسان قدر على منح قوة لا يملكها الإنسان .

وهكذا كان حتى احتاج إلى الحديث إلى قومه بالإشارة .

وجاء يحيى الولد البار الرشيد الذي أكرمه الله بالعلم والحكم في الصبا ، والحنان والزكاة والتقوى والبرِّ في الكبر .

وهكذا تنتهي هذه القصة الجميلة البليغة لتبتدىء قصة أخرى وليؤمن الإنسان بقدر الله وفضله .

* * *

# آيات من سورة « المؤمنون » :
# مجتمع في فرد وأمة في نفس واحدة[١]

﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۝٤ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ۝٧ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ۝٨ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٩ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [ المؤمنون : ١ ـ ١١ ].

قد مرَّت بكم في الآيات صورة إنسانية ، صورة تزخر بالحياة وتزهو بالصفات ، وتفتن بالملامح والقسمات ، فبالله هل رأيتم صورة في التاريخ وفي الشعر والأدب وفيما حولكم أجمل وأكمل من هذه الصورة التي مرت بكم آنفاً ؟!. إنها صورة إنسانية تجمع بين الفضائل الخلقية والمكارم الفردية والاجتماعية التي لا تجتمع في إنسان أو في جماعة ـ إلا في النادر حتى اعتقد كثير من الناس حتى من علماء النفس والأخلاق أنها أضداد وضرائر ، قوة في إيمان ، وخشوع في العبادة ، وإعراض عن اللغو ، ومواساة للفقراء ، وعطف على الضعفاء ، وعفة عن المحارم ، واقتصار على التمتع المباح ، ووقوف عند الحدود ، ورعاية للعهد ، وحفظ للأمانة ، ومحافظة على العبادات والواجبات فياله من فرد يتصف بهذه الأوصاف كلها ، إنه مجتمع في فرد ، وأمة في نفس واحدة .

وتصوروا الفرد الذي يتصف بهذه الصفات في واقع الحياة ، وتصوروا

---

(١) نشر هذا المقال في مجلة « البعث الإسلامي » في عددها السابع ، المجلد الثاني والعشرون عام ١٩٨٤م .

رجلاً إذا قام أمام ربه خشع ورق قلبه ، فعيناه تهطلان دمعاً ، ولسانه يفيض ذكراً وشكراً ، وإذا خرج من المسجد وصادف في طريقه لغواً ـ وما أكثره في الحياة ـ أعرض عنه في حياء وكبر نفس ، سخياً بذات يده على الفقراء ، ضنيناً بنفسه وشهوته على ما لا تحل له من النساء ، ثابتاً راسخاً في فتنة المال والجمال ، إذا وسدت إليه الأمانة في الأموال والأعراض والحكم والولاية ـ فكلها أمانات ـ لم يخن في أمانته ، وإذا وعد أو عاهد لم يغدر بذمته ، وإذا هتف هاتف ربه أسرع إلى إجابته ، فكان في كل حق من حقوق الله وحقوق العباد ، قوياً ، أميناً ، نشيطاً .

وتصوروا مجتمعاً يتكون من هؤلاء الأفراد ، يتكون من أصحاب الإيمان واليقين من العباد الخاشعين ، والأغنياء المحسنين ، والأقوياء الزاهدين ، والقضاة العادلين ، والولاة الصالحين ، كل فرد فيه قائم بحقه واقف عند حده ، خاشع أمام ربه ، ناصح لأخوانه ، ألا يسعد هذا المجتمع ، ألا يسود عليه السلام والهدوء والسكينة ، ألا ينجو من مهالك الدنيا والآخرة ؟ إنه مجتمع مثالي قد بلغ ذروة السعادة والفلاح في الدنيا والآخرة ، وإن من يتصف بهذه الصفات الكريمة التي تجمع بين الإيمان والعمل يدخل الجنة بسلام ويحل منها المحل الأعلى ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [ المؤمنون : ١٠ ـ ١١ ] .

ثم ذكر الله مبدأ خلق الإنسان ، وما مر به في وجوده ونشأته من أدوار وأطوار من الطين إلى الجنين ومن ماء مهين ، وإلى إنسان كامل مبين ، ثم ما ينتهي إليه بعد إتمام دورة الحياة ثم البعث بعد الممات ، كل ذلك مما يدل على عجز الإنسان وضعفه وفقره وضآلته ، وقدرة الله وقوته ، وحكمته ، وعجائب صنعه ، حتى لا يغتر بنفسه وفضائله ويعلم أن كل ذلك صدقة من ربه ، وجود منه على عبده ، فلو شاء جرده من هذه الفضائل كلها كما فعل بكثير من عباده ، ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴾ [ التين : ٤ ـ ٥ ] .

وأضاف إلى ذلك ما ذكر من بدائع خلقه ولطائف صنعه من إنزال

الأمطار ، وإنشاء الجنات والأشجار ، وخلق الدواب والأنعام ، وما وضع فيها من منافع ، ليكون أدعى للشكر وأدعى لمعرفة الله سبحانه وتعالى ، والخضوع أمامه .

* * *

# حِكَمُ الله في فترة الوَحي ، ونِعَمه على رسُوله العظيم
## دراسةٌ لسورة ( الضحى )

﴿ وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ۝٥ أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَآئِلٗا فَأَغۡنَىٰ ۝٨ فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ ۝٩ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ ۝١٠ وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ ﴾ [ الضحى : ١ ـ ١١ ] .

إن أسلوب هذه السورة يرشد إلى أنها نزلت في فترة الوحي تسلِّي النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وتذكر سابق منن الله سبحانه عليه ، وقديم عنايته به ، من الإيواء والهداية والإغناء ، ما يصعب معها الترك البتّة والغفلة . وهو الذي تؤيده روايات سبب النزول ، فقد اتفقت على أنه حصلت للنبي صلى الله عليه وآله وسلم فترة في توالي الوحي فظن أو قيل : إن الله قد تركه وقلاه ، مع اختلاف في الظانّ أو القائل ، وليس يَهُمّنا التعيين والتسمية ، ولا يبعد أن النبي ﷺ ظن بنفسه أو خاف ، فقد كان للنبي ﷺ شوق زائد وتطلُّع إلى الوحي ، كما قال تعالى : ﴿ قَدۡ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجۡهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِۖ ﴾ [ البقرة : ١٤٤ ] .

وكلُّ شوق ـ كما قال الشيخ محمد عبده ـ يصحبه قلق ، وكلُّ قلق يشوبه خوف .

وقد جاء في الصحيح أن النبي ﷺ حزن لفترة الوحي حزناً ، غدا منه مراراً كي يتردّى من شواهق الجبال ، ولكن كان يتمثل له الملَك ويخبره بأنه رسول الله حقاً . وقع له ذلك بعد نزول سورة ﴿ اقرأ ﴾ . وقد كانت تطول هذه المدة ، فلا عجب أنه خاف انقطاع هذه النعمة الجليلة ، فالعبد إذا أنعم عليه السيد أو ملِك جليل بنعمة جليلة : خاف في كل لحظة أن تُقطع عنه أو تسلب ، إذا كان المُنعِم قادراً عليه ، والله سبحانه قادر ، وقد قال :

﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴾ [ الإسراء : ٨٦ ـ ٨٧ ] ، فآتاه الله رحمة من عنده كان يشتاق إليه ، ووعده ببقائه في المستقبل أيضاً ، وأذهب عنه ما كان يجده ويخافه ، وأقسم عليه بالضحى ، وهو ضوء الشمس في شباب النهار ، ثم بالليل إذا سجى ، أي سكن ، وأشار به إلى أن الوحي بمنزلة النهار ، تقوى فيه الحياة الروحانية وتنمو وتشتغل ، كما تقوى في النهار الحياة الجسمانية ، وقد تعقُبه الفترة كما يعقب النهارَ الليلُ ، تستريح فيه القوى وتستعدُّ النفوس لما يستقبلها من العمل وتتوق له .

وفي ذلك حكمة بالغة وأصل عظيم من أصول التربية وتشويق لتلقّي العلم ، وإعداد له . وفي الحديث : كان النبي ﷺ يتخوَّلنا بالموعظة ( أي يعظنا غِبّاً ) ، كراهة السآمة علينا . وإلى هذه الحكمة أشار الله سبحانه وتعالى في قوله : ﴿ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلًا ﴾ [ الإسراء : ١٠٦ ] . وقد حكى الله سبحانه عن الكفار قولهم وردَّ عليهم : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ﴾ [ الفرقان : ٣٢ ] .

﴿ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ﴾ [ الضحى : ٩٣ ] أي : إن الكرَّة من الوحي خيرٌ لك من المرَّة الأولى ، فسيكمل بها الدين ، وأين بدء الوحي من عوده ؟ وأين الإجمال من التفصيل ؟ حتى أعلن : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ [ المائدة : ٣ ] .

﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴾ [ الضحى : ٥ ] : في الدنيا والآخرة ، وقد أعطاه فرضي . فقد أكمل له الدين ، ولم يكمُل لأحد قبله من النبيين ، وجعل له لسان صدق في الآخرين ، وفتح له الفتح المبين ، وأنجز له في حياته كل ما وعده ، وقرّ عينَه ، وأنعم باله برؤية ألوف من أتباعه الموحّدين الراسخين وعباد الله الصالحين ، والجنود المجنّدة من المجاهدين المخلصين ، ولهذا لما قال له أصحابه في قيامه بالليل حتى كانت تتورم رجلاه : ألم يغفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ قال : « أفلا أكون عبداً شكوراً ؟ » .

﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ﴾ : معلوم أن النبي ﷺ توفي والده وهو في بطن

أمه ، فلما أرضعت له كفاها الله المؤنة ، ونشأه أحسن ما ينشأ الولد في حِجْر أبيه ، وصنعه على عينه ، وتقبَّله بقبول حسن ، وأنبته نباتاً حسناً وكفله جدّه ، وما أدراك ما جدُّه ؟ ثم عمّه ، وما أدراك ما عمّه ؟

وما ظنك بطفل يموت والده وهو حمل ، ثم تموت أمه وهو ابن ست ، ثم يموت جده وهو ابن ثمان ، ولكن مع ذلك لا يجد من البؤس والشقاء وما يتحمل الأيتام من ظلم وجفاء شيئاً ؟! أليس هذا من فضل الله سبحانه ولطفه وإيوائه وولايته وكفالته ؟

﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴾ [ الضحى : ٧ ] ، هذه المِنة أكبر الثلاث التي منّ الله سبحانه بها على النبي ﷺ ، إذ المِنتان تتعلّقان بالجسم والدنيا ، وهذه تتعلق بالدين والروح ، بل بالعلم ، لأن هدايته كانت موقوفة على هدايته ، كنور العالم على طلوع الشمس كما قال : ﴿ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [ الشورى : ٥٢ ] .

والضلال أنواع : منها الحيرة والتردد ، وقسط الأنبياء عليهم الصلاة والسلام منهما قبل أن تشرق عليهم شمس النبوة والحقيقة : أوفر من قسط غيرهم ، كقسطهم من الهداية .

وقد حكى الله سبحانه عن خليله الموحّد الأكبر في محاجَّته لقومه وإبطال شركهم ما يدلّ على رسوخه في الهداية ، فقال : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ ﴾ إلى قوله : ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ [ الأنعام : ٧٥ ـ ٧٨ ] .

وقد نشأ ﷺ موحّداً وكان من طبيعته ، غير مقتنع بما عليه قومه وموقناً بفساده ، ولم تكن بين يديه شريعة كاملة محفوظة ، أو كتاب يصحُّ أن يُسمَّى كتاباً إلهياً ، لكثرة التحريف كالتوراة والإنجيل . وكان يختلي بغار حراء ، يتحنّث فيه ـ أي يتعبد ـ كما قالت عائشة رضي الله عنها ، ويتفكر ويتدبر ، فكان يحتاج إلى تأييد من الله سبحانه وإرشاد وبيان ، وكان عَطِشاً إلى الوحي ،

وإذا نزل المطر والأرض عطشى تكون أقبل له وأكثر انتفاعاً به .

وقد أشار الله سبحانه إلى هذا الدور ، بقوله : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [ الشورى : ٥٢ ] . فانظر كيف سمّى الوحي نوراً وهداية ، وكيف قال : ﴿ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ ﴾ [ الشورى : ٥٢ ] وهو الضلال الذي ذكّره به في سورة الضحى . وليس ما ذكره الله سبحانه نقصاً أو عاراً للنبي ﷺ ، بل هو فخر له ، وإكليل مجده ، كما قال الشيخ محمد عبده[1] .

ولا ينبغي أن نقيس الأنبياء علينا ، فقد ورثْنا الإسلام عن آبائنا وسلفنا كما يورث المتاع والمال ، وانتقل إلينا كالعوايد والتقاليد والبضائع ، وجاءنا عفواً بدون تعب ، ولم ندفع له ثمناً ولم نتجشَّم فيه عناءً ولم نُعمل فيه فكراً ، ولم نسهر فيه ليلة ، ولم نُشَك فيه شوكة ، ولم نُسِل فيه قطرة من عرق فضلاً عن دم . أما الكُمَّل من الرجال ، والفحول والأبطال ، وفي مقدمتهم وعلى رأسهم الأنبياء والمرسلون ، فهم يجاهدون فيه حق الجهاد ، ويُبْلَوْن كل البلاء ويأتيهم على سنة الله وعادته ، وكذلك أصحابهم .

﴿ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ﴾ [ الضحى : ٨ ] الظاهر أنه على ظاهره فقد كان النبي ﷺ فقيراً ، لم يترك له والده إلّا ناقة وجارية ، فوهبه الله من الملك والقوة والأصحاب الذين كانوا يفدونه بأنفسهم ونفائسهم ومهجتهم ما لم يرزق نبي قبله ولا يرزق رجل بعده . أما سليمان عليه السلام فقد سخّر الله له الجن دون الإنس . ولا يناقضه أنه كان ـ خصوصاً في المدينة ـ يرى هلالًا وهلالين وأكثر ، ولا توقد في بيته نار ولا يجد لعياله قوتاً ، فقد كان هذا فقراً اختيارياً ، لا اضطرارياً ، ففي حديث الترمذي عن النبي ﷺ : « عَرَضَ عَلَيَّ ربّي ليجعل لي بطحاء مكة ذهباً ، قلت : لا يا رب ، ولكن أشبع يوماً وأجوع يوماً ـ أو قال

---

(١) وقد تكلم هاهنا وفي سائر سورة الضحى بكلام المتفقّهين للقرآن العارفين بالنبي ﷺ وسيرته .

ثلاثاً ، أو نحو هذا ـ فإذا جعتُ تضرّعتُ إليك وذكرتك ، فإذا شبعت شكرتك وحمدتك » ، وكان النبي ﷺ أغنى العالمين قلباً ، والغِنَى غنى القلب .

والمقصود أن من آواك في اليتم ، وهداك من الضلال ، وأغناك من الفقر : لا يتركك البتة في مستقبل الأمر ، والعاقل يغرس الغرس ويسقيه ويخدمه ، ويسهر عليه ويُعنى به ، فإذا آن أن يثمر ، ويُؤتِي أُكُلَه لا يهمله . فلهذا اليوم ربّاه الله وغذّاه ، وأغناه وآواه ، وكان ضالًّا فهداه ، فكيف اليوم ينساه ؟!

﴿ فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴾ [ الضحى : ٩ ] ، ما أجمل موقعه بعد قوله : ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ﴾ [ الضحى : ٦ ] ، فمن ذاق مرارة اليتم بنفسه ، فأخلِقْ به إذا كان ذا شعور ومروءة أن يستشعرها في غيره ، فاليتيم أعرف خلق الله بحال اليتيم ، وأعرف بما يذوقه ويتحمله ، فإنه قد اجتاز هذه المرحلة أيضاً ، فأراد الله سبحانه أن لا ينسى يتمه مهما طال عهده به ، وأن يستحضره عند رؤية اليتيم .

ولعله لهذه الحكمة وُلد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يتيماً ، ونشأ يتيماً ، ورعى الغنم في بني سعد ، ليكون للأيتام والبؤساء أباً شفيقاً ووالداً بَرّاً ، ويرقّ قلبه وتنشأ فيه عاطفة الشفقة والحنان ، شأن الأيتام .

كما أن موسى عليه السلام رعى لشعيب غنمه عشر حِجَج ، ليعلم حقيقة ما يكابده بنو إسرائيل من خدمة فرعون ومعاناة الأعمال الشاقة ، ويشعر بألَمِهم وبؤسهم وشقائهم ، ويعلم أنه إذا كانت هذه خدمة نبيّ خير عباد الله ، فكيف بخدمة جبّار شر عباد الله وأقساهم ، فتسمو نفسه إلى تخليصهم وتحريرهم ، لأنه نشأ في أكبر نعمة ورفاهة وراحة ، في قصر فرعون وحجره ، لا يعرف ما يكون عليه العبيد والأرقّاء والمستضعفون ، وما يعانون من آلام الحياة .

﴿ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴾ [ الضحى : ١٠ ] ، فقد كنت سائلاً ولم ينهرك الله سبحانه ، وقد شق عليك تأخير الوحي وتأخير الإجابة دون نَهْرٍ ولا يأس ، فاستشعر بمثل هذا في غيرك أيضاً .

﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ [ الضحى : ١١ ] فمن عادة البخلاء أنهم يكتمون ما آتاهم الله ليكون لهم عذر وسلامة ، وقد قال النبي ﷺ للذي رأى عليه ثياباً رثة وقد علم غناه : « إن الله يحب أن يَرَى أثر نعمته على عبده » .

* * *

# خلاصَةٌ وَافيةٌ وَعرضٌ جميلٌ للسِّيرة النبويّة الطَّاهِرة في سُورة ( الانشراح )

﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝٣ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ﴾ [ الانشراح : ١ ـ ٨ ] .

يظهر أن هذه السورة كسورة الضحى ، نزلت في عسر وضيق ، وكان النبي ﷺ مهموماً ، ولم يكن هذا نادراً ولا غريباً لمثله عليه الصلاة والسلام ، ولمُهمَّته ، ومقاصده ، وعظمته . وقد حدّث القرآن عن همه كثيراً ، فقال : ﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾ [ الكهف : ٦ ] ، ﴿ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴾ [ الشعراء : ٣ ] ، وقال : ﴿ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ... ﴾ [ الأنعام : ٣٥ ] الآية ، وقال ﷺ : « لو كنتم تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً » ، وكان يقول : « شيَّبني قومك يا عائشة » . فنزلت السورة تخفف عنه بعض ما يجده وتنفّس عنه كربته ، وتذكّره من نعم الله سبحانه عليه الدائمة الباقية إلى يوم القيامة العظيمة الجليلة ما ينسيه بعض همومه العارضة الزائلة ، وإليه إشارة في قوله : ﴿ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ [ الشرح : ٥ ـ ٦ ] وفي الاستفهام الذي للتقرير .

ويظهر أنها نزلت بعد نجاح وتوفيق وإعانه من الله سبحانه ، فقد قال : ﴿ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾ شرح الصدر : بسطه وتوسيعه وتفسيحه وترحيبه ، وهو من الكلمات البالغة الوجدانية الذوقية التي يصعب ترجمتها وتفسيرها ، قال الله تعالى : ﴿ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ

مِّن رَّبِّهِۦ ﴾ [ الزمر : ٢٢ ] ، وقال : ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ [ الأنعام : ١٢٥ ] .

وقد أورد بعض المفسرين في تفسير هذه الآية قصة شقّ الملائكة صدر النبي ﷺ وغسلهم إياه وحشوه إيماناً وحكمة ونوراً وطمأنينة ثم خيطه ، ولكن ظاهر الآية لا يشير إليها ، فقد صرح بذلك بعض المحدثين ، إلا أنه لا يبعد عقلاً أن يكون شرحاً حِسّياً أخص بالنبي ﷺ .

وقد أكمل الله لنبيه ﷺ شرح الصدر إذ لا يتأتّى عمل جليل في الدنيا بدون انشراح الصدر والإيمان الراسخ والاعتقاد الجازم واليقين الكامل وقوة القلب والثقة بالمبدأ ، وما عمل في الدنيا متشكك ومرتاب شيئاً ، بل المتشككون أكسل الناس وأقعدهم وأبخسهم ، ليس لهم همٌّ في الحياة ولا سرور ، ولِذا تراهم يقتلون أنفسهم وينتحرون ، ويعيشون ـ إن عاشوا ـ مهمومين متضايقين متضجّرين . فشرح صدره أوّلاً للنبوة والرسالة ، وأخرج حظّ الشيطان منه ، ثم أكمل له الأسباب التي يحصل بها انشراح الصدر واتساع القلب ، ورباطة الجأش وطمأنينة النفس ونعومة البال وقرة العين وحياة الروح .

وقد ذكر أكثر هذه الأسباب الإمامُ ابن القيم في كتابه النفيس ( زاد المعاد ) بكلام كله حكمة وتجربة ننقله بلفظه ، قال رحمه الله :

( **وأعظم أسباب شرح الصدر** : التوحيد وعلى حسب كماله وقوته وزيادته يكون انشراح صدر صاحبه ، قال تعالى : ﴿ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ ، فالهدى والتوحيد من أعظم أسباب شرح الصدر ، والشرك والضلال من أعظم أسباب ضيق الصدر وانحراجه .

**ومنها** : النور الذي يقذفه الله في قلب العبد وهو نور الإيمان ، فإنه يشرح الصدر ويوسّعه ويفرح القلب ، فإذا فُقِدَ هذا النور من قلب العبد ضاق وحرج في أضيق سجن وأصعبه . وقد روى الترمذي في جامعه عن النبي ﷺ ، أنه

قال : « إذا دخل النور القلب انفتح وانشرح » ، قالوا : وما علامة ذلك يا رسول الله ؟! قال : « الإنابة إلى دار الخلود ، والتجافي عن دار الغرور ، والاستعداد للموت قبل نزوله » ، فيصيب العبد من انشراح صدره بحسب نصيبه من هذا النور ، وكذلك النور الحسّي ، والظلمة الحسّيّة ، ذلك يشرح الصدر وهذه تضيقه .

**ومنها** : العلم فإنه يشرح الصدر ويوسّعه حتى يكون أوسع من الدنيا ، وليس هذا لكل علم ، بل العلم الموروث عن النبي ﷺ ، وهو العلم النافع ، فأهله أشرح الناس صدراً وأوسعهم قلوباً وأحسنهم أخلاقاً وأطيبهم عيشاً .

**ومنها** : الإنابة إلى الله سبحانه وتعالى ومحبته بكل القلب والإقبال عليه والتنعم بعبادته ، فلا شيء أشرح لصدر العبد من ذلك ، حتى يقول أحياناً : ليتني كنت في الجنة في مثل هذه الحالة فإني إذاً في عيش طيب . وللمحبة تأثير عجيب في انشراح الصدر وطيب النفس ونعيم القلب ، ولا يعرفه إلّا من أحسّ به ، وكلما كانت المحبة أقوى وأشد كان الصدر أفسح وأشرح ، ولا يضيق إلّا عند رؤية البطّالين الفارغين من هذا الشأن ، فرؤيتهم قذى عينه ، ومخالطتهم حُمَّى روحه . . . ) . ثم قال :

( **ومن أعظم أسباب شرح الصدر** : دوام ذكره على كل حال ، وفي كل موطن ، فللذكر تأثير عجيب في انشراح الصدر ونعيم القلب ، وللغفلة تأثير عجيب في ضيقه وحبسه وعذابه .

**ومنها** : الإحسان إلى الخلق ونفعه بما يمكنه من المال والجاه والنفع بالبدن وأنواع الإحسان ، فإن الكريم المحسن أشرح الناس صدراً وأطيبهم نفساً وأنعمهم قلباً ، والبخيل الذي ليس فيه إحسان أضيق الناس صدراً وأنكدهم عيشاً وأعظمهم همّاً وغمّاً ، وقد ضرب رسول الله ﷺ مثلاً للبخيل والمتصدق ، مثل رجلين عليهما جُنّتان من حديد ، كلما هَمَّ المتصدق بصدقة اتسعت عليه وانبسطت حتى يجر ثيابه ويعفى أثره ، وكلما هَمّ البخيل بالصدقة لزمت كلُّ حَلْقةٍ مكانَها ولم تتسع عليه ، فهذا مثل انشراح صدر المؤمن المتصدق وانفساح قلبه ، ومثل ضيق صدر البخيل وانحصار قلبه .

**ومنها** : الشجاعة ، فإن الشجاع منشرح الصدر واسع البطان ، متسع القلب ، والجبان أضيق الناس صدراً وأحصرهم قلباً ، لا فرحة له ولا سرور ، ولا لذة له ولا نعيم إلّا من جنس ما للحيوان البهيمي ، وأما سرور الروح ولذتها وابتهاجها فمحرم على كل جبان كما هو محرم على كل بخيل وعلى كل مُعرِض عن الله سبحانه ، غافل عن ذكره ، جاهل به وبأسمائه تعالى وصفاته ودينه متعلق القلب بغيره .

**ومنها** : بل أعظمها : إخراج دَغَل القلب والصفات المذمومة التي توجب ضيقه وعذابه وتحول بينه وبين حصول البرء ، فإن الإنسان إذا أتى الأسباب التي تشرح صدره ولم يُخرِج تلك الأوصاف المذمومة من قلبه لم يحظ من انشراح صدره بطائل ، وغايته أن يكون له مادتان تعتوران على قلبه .

**ومنها** : ترك فضول النظر ، والكلام ، والاستماع ، والمخالطة ، والأكل ، والنوم ، فإن هذه الفضول تستحيل آلاماً وغموماً وهموماً في القلب تحسره وتحبسه وتضيقه ويتعذَّب بها ، بل غالب عذاب الدنيا والآخرة منها ) .

ثم قال :

( والمقصود أن رسول الله ﷺ أكمل الخلق في كل صفة يحصل بها انشراح الصدر واتساع القلب وقرة العين وحياة الروح ، فهو أكمل الخلق في هذا الشرح وقرة العين ، مع ما هو أخص به من الشرح الحسّي ، وأكمل الخلق متابعة له أكملهم انشراحاً ولذة وقرة عين ، وعلى حسب متابعته ينال العبد من انشراح صدره وقرة عينه ، ولذّة روحه ما ينال ، فهو في ذروة الكمال من شرح الصدر ، ورفع الذكر ، ووضع الوزر ، ولأتباعه من ذلك بحسب نصيبهم من اتّباعه ، والله المستعان ) . انتهى .

وتفقّد بعد ذلك سيرته في القرآن والحديث والتاريخ ، تجدْ هذه الأشراط والصفات فيه بكمالها وتمامها ، فهو الموحّد الأول والموحّد الأكبر ، وهو القائل : ﴿ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [ الأنعام : ١٦٢ ـ ١٦٣ ] .

وهو السائل المستجاب : « اللهم اجعل في قلبي نوراً ، وفي بصري نوراً ، وفي سمعي نوراً ، وعن يميني نوراً ، وعن شمالي نوراً ، ومن خلفي نوراً ، ومن أمامي نوراً ، واجعل من فوقي نوراً ، ومن تحتي نوراً . اللهم أعطني نوراً ، واجعل لي نوراً ، وفي عصبي نوراً ، وفي لحمي نوراً ، وفي دمي نوراً ، وفي شعري نوراً ، وفي بشري نوراً ، وفي لساني نوراً ، واجعل في نفسي نوراً ، وأعظم لي نوراً ، واجعلني نوراً » .

وكان له من العلم النافع النصيبُ الأكبر والحظ الأوفر ، وكان يقول في بعض أدعيته : « اللهم زدني علماً ، ولا تُزغ قلبي بعد إذ هديتني ، وهب لي من لدنك رحمة ، إنك أنت الوهاب ، اللهم إني أسألك علماً نافعاً ورزقاً طيباً وعملاً متقبلاً ، اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع ، ومن قلب لا يخشع ، ومن نفس لا تشبع ، ومن دعاء لا يُسمَع » .

وأما الإنابة إلى الله ومحبته بكل القلب والإقبال عليه والتنعم بعبادته ، فقد كان نبي الله ﷺ مثلاً وأمة فيها ، والعُبّاد فيها إلى يوم القيامة متمسكون بأهدابه ومتطفّلون على مائدته . فقد كان أوّاباً منيباً رجّاعاً إلى الله ، مقبلاً عليه بقلبه وقالبه ، محبّاً له بكل القلب ، ما تركتْ فيه المحبة موضعاً ومساغاً لغيرها ، وجرت منه مجرى الروح والدم ، واختلطت باللحم والعظم ، متنعّماً بعبادته متغذّياً متسلّياً متلذّذاً ، يقول : « أَبِيتُ عند ربي ، يطعمني ويسقيني » ، ويقول : « جُعِلتْ قرة عيني في الصلاة » ، ويقول : « أرحنا بالصلاة يا بلال » .

وكان دائم الذكر ، يذكر الله قائماً وقاعداً وعلى جنبه ، وكان لا يزال لسانه رطباً بذكر الله ، وكانوا يعدُّون له في مجلس واحد مئة مرة : « رب اغفر لي وتب عليّ إنك أنت التواب الرحيم » ، ويقول : « تنام عيني ولا ينام قلبي » .

وأما الإحسان فحسبك به أنه هو المنقذ الأكبر والمحسن الأعظم للنوع الإنساني كافة ، وسفينة نوح له إلى يوم القيامة . وقد كان أعظم الأنبياء

والمصلحين والمنقذين والفاتحين : قرة عين وطمأنينة نفس وراحة بال وسرور من هذا الوجه ، فقد حصل له من النجاح والتوفيق ، ما لم يُقَدّر لأحد منهم ، ولم يحلم به ، وما أدهش العالمين . فلا تسأل عن قرة عينه وطمأنينة نفسه وسرور قلبه ، ولم يلحق بربه حتى رأى غرسه قد أينع وأثمر وآتى أُكُلَه ، وطَهَّرَ أرض الجزيرة فصارت لا يُعبد فيها إلّا الله وحده ، وطأطأت الرؤوس بين يدي الله . وخرج في يومه الذي توفي فيه إلى المسجد ، فكشف ستر حجرته ، والمسلمون صفوف في صلواتهم ، فتبسَّم يضحك ، وما أجمل هذه البسمة الطاهرة لمعاني سرور القلب والروح ، والطمأنينة والارتياح والاستبشار ، وما أحقَّه بذلك من كل نبي ومصلح ، وملك وفاتح ! فما أعظم الانقلاب وما أعجبه ! وما أحكمه !

وأما جوده وسخاؤه وإحسانه إلى الناس ، فقد كان أعلن أن من مات من المسلمين وعليه دَينٌ فهو عليه يقضيه عنه ، ومن مات وترك مالًا فهو لورثته . وقال أنس بن مالك : ( ما سئل رسول الله ﷺ شيئاً قط فقال : لا ، وجاءه رجل فأعطاه غنماً بين جبلين ، فرجع إلى قومه ، فقال : يا قوم أسلموا فإن محمداً ﷺ يعطي عطاءَ مَنْ لا يخشى الفاقة )[١] . وعن ابن عباس قال : ( كان رسول الله ﷺ أجود الناس بالخير )[٢] .

وأما الشجاعة فعن أنس بن مالك قال : ( كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أحسن الناس وكان أجود الناس وكان أشجع الناس ، ولقد فزع أهل المدينة ذات ليلة فانطلق ناس قِبَلَ الصوت ، فتلقّاهم رسول الله ﷺ راجعاً ، وقد سبقهم إلى الصوت وهو على فرس لأبي طلحة عُرْيٍ ، في عنقه السيف ، وهو يقول : لم تُرَاعُوا . قال : وجدناه بحراً ، وإنه لبحر ، قال : وكان فرساً يبطأ )[٣] . وناهيك بالشجاعة أنّ مِثلَ عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه يقول :

---

(١) رواه أبو داود والترمذي .
(٢) رواه البخاري .
(٣) مسلم عن أنس رضي الله عنه .

( كنا إذا اشتدَّ البأس نتقي برسول الله ﷺ )[١] . وقد ثبت ﷺ يوم حنين وقد تزعزعت الجبال الراسيات وهو يقول : « أنا النبي لا كذب ، أنا ابن عبد المطلب »[٢] . ووقعة الشجرة يوم غطفان خير شاهد عليها .

وكان رسول الله ﷺ قد غسل الله صدره حقيقة ، وأخرج حظّ الشيطان منه ، وحشاه نوراً وإيماناً وحكمة ، ووقع ذلك بيد الملائكة أو لم يقع ، فهو متواتر في سيرته في مكة والمدينة ، وقد شهد به الأعداء ، فما أضمر لابن آدم سوءاً ، وما ترقب له فرصة ينتقم منه فيها ، ولما منحت له قال : « لا تثريب عليكم اليوم » .

ويقول ناعتوه : إنه كان طويل السكوت لا يتكلم في غير حاجة ، ويتكلم بجوامع الكلم ، فصل لا فصول ولا تقصير ، وكان لا يتكلم فيما لا يعنيه ، ولا يتكلم إلّا فيما يرجو ثوابه ، وهو القائل : « من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت » ، وكان يقول : « أمرني ربّي بتسع أوصيكم بها ـ وفيه ـ : وأن يكون صمتي فكراً ، ونطقي ذكراً ، ونظري عبراً »[٣] ، و « كان جل ضحكه التبسم بل كله التبسم »[٤] ، فأين الضحك الذي يميت القلب ؟ وكان يقول : « لو كنتم تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً »[٥] .

﴿ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴾ معلوم أن مهمة النبي ﷺ في هذا العالم ـ لا في شبه جزيرة العرب خاصة ـ كانت مهمة لم يعرف الإنسان وتاريخ الإصلاح مهمة أجلَّ وأكثر خطباً ومؤونة منها ، فإنه كان يقصد تبديل الأرض غير الأرض ، وأهلها غير أهلها .

وإننا إذا أردنا أن نصلح فرداً من الأفراد أو نغير عقيدة من عقائده ، أو عادة

---

(١) متفق عليه .
(٢) اللفظ لمسلم .
(٣) اللفظ للبخاري .
(٤) اللفظ للبخاري .
(٥) اللفظ للبخاري .

من عاداته ، كم نلقى منه عَرَق القِربة ، وربما لا نستطيعه في سنين ، فما ظنك بإصلاح أمة بل أمم ، بل المجتمع الإنساني عامة ، والهيئةِ البشرية كافة ، خُلُقها ، وعقيدتها ، واجتماعها ، ودينها ، ودنياها ، وحياتها ، ومماتها ؟!

بل نَقْلُ الجبال من مكانها ، وصرف البحار عن مجاريها لأهون بكثير من زعزعة الأمم من عقائدها ، وعوائدها ، وتقاليدها التي ورثتها عن آبائها ، ونشأت عليها وتربَّت ، وتعضُّ عليها بالنواجذ ، وتقاتل دونها موصدةً باب التفكير ، وقالت : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴾ [ الزخرف : ٢٢ ] ، ﴿ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ﴾ [ البقرة : ١٧٠ ] ، ﴿ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [ الأعراف : ١٣٢ ] ، ﴿ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾ [ فصلت : ٢٦ ] . فوالله لإنشاء أمة بأسرها وتربيتها أهون من تقويم هذه الجذوع اليابسة المعوجّة .

وما ظنك وقد كانت الأمة التي بدأ بها رسول الله ﷺ عمله أصلبَ أمم الأرض عوداً ، وأبطأها وقوداً ، وأشدَّها تقليداً وجموداً ، إن تحرَّجتُ أن أقول : أقلها استعداداً لقبول الحق ، وأكثرها عناداً للإصلاح .

ولم تكن مهمة النبي ﷺ الهدم فقط بل كانت مهمته البناء أيضاً ، فكان يهدم من الأساس ويبني إلى الرأس ، هدمَاً حفيّاً وبناءً قوياً ، فغسلهم أولًا ثم صبغهم ، وكانوا في نشأتهم الثانية ( الإسلام ) أشد تصلُّباً وأكثر رسوخاً منهم في الأولى ( الجاهلية ) .

والذي يعرف عدد المسلمين اليوم وهو يبلغ خمس عمران العالم لا يكاد يتصور ما كان يعاني الرسول عليه الصلاة والسلام في إسلام فرد من المشقة ، وما كان يلقى من المطاردة والجفاء : ما تتزعزع له الجبال وتفتر له عزائم الأبطال .

فذلك هو الحمل الذي أنقض ظهره ، وأكثر همه ، ونغَّص عيشه ، ومنعه نومه وطعامه وشرابه ، ويتجلى لك هذا في دعائه المشهور الذي هو آية في الرقة والتأثير ، وهو خير تصوير لما كان عليه ﷺ في ذلك الوقت من التأثر

والتألم . وقد دعا به وشكا فيه بثّه وحزنه إلى الله وهو راجع من الطائف وقد عامله أهلها شرّ ما عامل به قوم منقذهم : أقاموا له السماطين وأغروا به الأوباش والأطفال فرمَوه بالحجارة حتى أدمَوا كعبيه ، فما كادتا تخرجان من نعليه ، وحمله زيد بن حارثة ، ولم يجد أذناً صاغية ولا رجلاً رشيداً ، فقال :

« اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس ، يا أرحم الراحمين ، أنت ربّ المستضعفين وأنت ربّي ، إلى مَن تكلني ، إلى بعيد يتجهّمني أو إلى عدوّ ملّكتَه أمري ، إن لم يكن بك عليّ غضب فلا أبالي ، ولكن عافيتك هي أوسع لي ، أعوذ بنور وجهك الكريم الذي أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن ينزل بي غضبك أو يحلّ عليّ سخطك ، لك العُتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك » .

فأطْبِقِ العين وأنت تراه راجعاً من الطائف ، ضعيف القوة ، قليل الحيلة ، هيناً على الناس ، ثم افتحها . وهل المدة التي بين الطائف والمدينة في التاريخ : إلا قدر ما تطبق عينك وتفتحها ، تلك المدة القصيرة التي أدهشت العقلاء وحيرت العالمين ولا تزال . افتح عينك ، تراه يتلقّى الوفود في المدينة ، وفيها وفد ثقيف من الطائف شدّ إليه الرحال يعرض نفسه على الإسلام ، وقد كان الرسول ﷺ شدَّ إليهم الرحل وعرض عليهم الإسلام ، فأبَوا وجرحوه وأهانوه .

وإذا رأيته يمشي وحيداً في أسواق مكة : فانظر إليه في حجة الوداع ، في طريقه إلى مكة ، وفي عرفات خطيباً ، وفي تلك الأسواق التي تعودت أن لا تراه فيها إلا وحيداً : لا تقدر أن تراه لكثرة من حوله من الناس الذين يكادون يكونون عليه لِبداً .

ولو رأيته في آخر يوم في الدنيا ، وقد خرج من حجرته إلى المسجد ، والمسلمون صفوف في صلواتهم ناكسو رؤوسهم أمام ربهم : لرأيت العجب العُجاب ، أفلا تصدق قوله تعالى : ﴿ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴾ ؟ .

﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾ هذه نبوءة من نبوءات القرآن الباهرة المعجزة التي تدعو كل منصف ومطّلع على التاريخ وسيرة عظماء البشر إلى الإيمان به . فقد اتفق المنصفون ولا يكابر الجاحدون في أن هذه ميزة لنبي الإنسانية ﷺ ، لا يشاركه فيها أحد ولا يدانيه فيها غيره ، لا من إخوانه الأنبياء والمرسلين ، ولا من تلاميذه المصلحين والمنقذين ، ولا من عبيده الملوك والفاتحين . فما من ساعة من ساعات الليل والنهار إلا ويصلي فيها ألوف من عباد الله ، وغيره لا يخطر على البال في ذلك الوقت ، وأنه يشاطر اسمُه والشهادةُ برسالته كلمةَ الإسلام ، ويعلَن باسمه ويجهر عشر مرات ( مرتين في كلّ أذان ) رفيعاً عالياً على أرفع المآذن ، في أكثر بقعة من بقاع المعمورة كل يوم .

وهو مخدوم بالألسنة والأقلام ، مُدوَّنة سيرتُه ووقائعه من أول عهده بالدنيا إلى آخر عهده بها تدويناً لا يخطر على قلب بشر ، وهنالك أقلام لا يؤمن أصحابها به ، تجرَّدت لتدوين سيرته وتقييد وقائعه وفضائله ، وكُتّاب ومؤرخون وشعراء من اليهود والنصارى والمشركين ، انبرَوا لإظهار نواحي العظمة الإنسانية فيه وإطلاع أممهم على أحواله والإنصاف له .

وقد جاء في مجلة ( المقتبس ) العربية أن عدد ما كُتِبَ عن نبيّ الإسلام في مختلف لغات أوربة يبلغ ١٣٠٠ كتاباً ، ولا شك أنه قد زيد في هذا العدد زيادة كبيرة ، فيقع في كل سنة من بعد الهجرة إلى المدينة أكثر من كتاب .

ويقول جان ديونبورت ، أحد الكُتّاب الإنكليز المعروفين : ( ليس هنالك أحد لا من المشترعين ولا من الفاتحين من يبلغ وقائع عمره في التفصيل والثبوت : وقائعَ محمد ) .

ويقول مرغليوث ، وهو من الكاشحين لنبي الرحمة ﷺ : ( المؤرخون لمحمد سلسلة لا يمكن أن تنتهي ، والدخول فيها مفخرة ) .

وقال اسمث في كتابه : ( محمد والمحمدية ) بعدما تكلم على الأديان الأخرى ، وتاريخ أصحابها ، وصفة معرفة العالم بهم : ( ولكن في الإسلام يمتاز كل شيء ، ليس هاهنا ظلام ، ولا سرّ ، عندنا تاريخ نعرف به محمداً

مثل ما نعرف لوتهر ، وملتن ) ، إلى أن قال : ( لا يمكن لأحد هاهنا أن يخدع نفسه أو يخدع غيره ، هاهنا نور النهار الذي يسطع على كل شيء ويصل إلى كل أحد ) .

وقارن بعد ذلك بين نبيّ الإسلام ﷺ وبين أصحاب الديانات الأخرى ، والأنبياء الآخرين ، ومعاذ الله أن نريد انتقاصاً لهم أو حطّاً من شأنهم ، ولكن نريد أن نبيّن مزية النبي ﷺ ، فكثير من هؤلاء تاريخهم وسيرتهم عيال على قصص وروايات منظومة وأساطير متناقلة ، وكثير منهم شُهرتُهم مَدِينة للقرآن والإسلام .

والأناجيل إنما هي تاريخ عيسى عليه السلام وهي أشبه بكتب السير عندنا ، ولكن ( لا في التفصيل والاستيعاب والاستقصاء ) ، ويا ليتها تبلغ كتب الحديث عند المسلمين ( في اتصال السند والتنقيح ) . فالمعتبر المقبول من هذه الأناجيل أربعة كتب لا غير ، وهذه الكتب الأربعة ما اشتملت إلّا على وقائع الثلاث سنين الأخيرة فقط ، ثم اتفقوا على أنه لم ير عيسى عليه السلام أحد من أصحابها ، ويشكُّون بعد ذلك كله في صحة نسبة هذه الصحف الأربعة إلى جامعيها .

وقد دارت مناظرة في صحيفة شيكاغو الشهيرة ( روبنكورت ) ، في موضوع أن وجود عيسى فرضي محض ، جرت شهوراً عديدة ، وكانت الحرب فيها سجالاً .

ويقول SMITH ( اسمث ) : الذي يصح عن الدين ـ يعني كون أصله وبدايته مجهولة ـ يصح أيضاً من سوء الحظ عن هذه الديانات الثلاثة ومؤسسيها الذين نسميهم ( تاريخيين ) ، لأنا لا نجد اسماً أحسن منه ، نحن نعرف عن رجال الدين الأولين والأقدمين أقل ولعلنا نعرف عن الذين ضمُّوا جهودهم إلى جهودهم أكثر ، نحن نعرف عن زردشت وكنفوشيوس أقل مما نعرف عن سولن وسقراط ، وعن موسى وبوذه أقل مما نعرف عن إيمبروس وسيزر ، في الحقيقة نعرف جزءاً من أجزاء حياة المسيح عليه السلام ، من ذا الذي يستطيع أن يرفع الحجاب عن هذه الثلاثين سنة التي مهدت السبيل لثلاث سنين ؟) ،

إلى أن قال : ( ماذا نعرف عن أمّ المسيح وعن حياته البيتية ، وعن أصدقائه الأولين وأواصره بهم ، وعن ظهور مُهِمّته الروحانية التدريجي ، أو طلوعها ؟ كم تنشأ في أذهاننا أسئلة عن هذه الأمور التي لا تزال أسئلة ، ولكن في الإسلام يمتاز كل شيء . . . ) إلى آخر ما قرأت .

والحقيقة أن هذا لم يكن إلّا بقدر ونظام ، فالله سبحانه لم يحفظ إلّا ما كان مفيداً ومهماً ولم يكن ولا يكون عنه للعالم غنى ، فسيرة الرسول عليه الصلاة والسلام بعد القرآن ، لا يستغني عنها العالم دقيقة واحدة ، وهو دليل على كون محمد ﷺ هو خاتم النبيين ، والقدوة للعالم ، فيجب أن تبقى آثاره محفوظة وسيرته مضبوطة ومشهورة ، وأن يبقى هو حيّاً يُقتَدى به .

هذا كل ما قلناه في الكمية ، أما الكيفية فهي أدهش منها ، فلا يمكن أن نعرف عن آبائنا الأقربين وعن رجال الأمس ، بل وعن إخواننا الذين عاشرناهم وعرفناهم ، وعن أترابنا : ما يمكن لنا بكل سهولة أن نعرف عن نبي التاريخ محمد ﷺ الذي مضى عليه أكثر من ثلاثة عشر قرناً : قيامه وقعوده ، وانتباهه ورقوده ، وليله ونهاره ، وصبحه ومسائه وضحكه وبكائه ، وكلامه ومشيه ، وأكله وشربه ، ورضاه وغضبه ، وصلحه وحربه ، وسفره وحضره ، وحديثه وسمره .

وهل إذا سئلت عن مثل هذا وأكثر وأدق وأخفى من هذا ، مما حفظته لنا كتب الحديث وكتب الشمائل ، عن أبيك أو شيخك تجيب بسهولة ؟!

فالكتب التي وضعت في أحواله تشتمل على كتب الحديث ، وهي خير مرآة لحياته وخير ما يسمونه مذكرة و ( الوقائع اليومية ) ، وكأنك بقراءتها تجالسه وتعاشره وتراه وتسمعه .

أما تنقيحها ، وضبطها وبذل الطاقة البشرية فيها ، وما أوتي الإنسان من مواهبه الفطرية ، من حفظ وأمانة ، و « دقّة » ، فعن البحر حدّث ولا حرج ، وهو مما تفردت به هذه الأمة واعترف لها به الحاسدون ، والجاحدون ، ومجنون من يبحث له عن نظير في أدب أمة ، أو في خدمة أمة لنبيّها .

وليس النبي فحسب ، فهو النبي الخالد ، بل كل من وقع في سبيله ، أو تعلق بذيله أو تعلق بذيل المتعلق بذيله وهلمّ جرّا : صار من حق التاريخ وموضوع الدرس والعناية ، وخرج من ظلمات الخمول ، كالنور إذا أشرق أضاء السهل والجبل والأشجار والأحجار ، وهذا الفن هو الفن الإسلامي المشهور ، فن أسماء الرجال . وإليك قول العلامة الألماني المشهور الدكتور اسبرنجر في مقدمة كتاب ( الإصابة ) الإنكليزية : ( ما كان في الدنيا أمة ، ولا توجد الآن ، أبدعت لنا فنّاً عظيماً ، مثل فن أسماء الرجال : كالمسلمين ، الذي من فضله يمكننا اليوم أن نطَّلعَ على ترجمة خمسمئة ألف رجل )[1] .

وهؤلاء هم الذين وقعوا في إسناد ، وحديث ، وإن كان بينهم وبين النبي ﷺ مفاوز ، ولكن ما وسع خَدَمة الدين والحقيقة الأَمَنَة إغفالُهم وجهلهم ، فرفعوا اللثام عن وجوههم وأظهروهم بعجزهم وعلاتهم ومحاسنهم ، وما راعَوا في ذلك قرابة ولا صداقة ، وما منعتهم هيبة ولا أضلَّتهم شهرة .

وبعد كتب الحديث : كتب المغازي وكتب السير وكتب الدلائل وكتب الشمائل . ويكفيك أن تجول نظرة في محتويات كتب الشمائل فترى من الاستقصاء ما لا تتصوره ، وترى ـ فيما ذكرنا من الكتب ـ آثار قدمه وخطواته محفوظة معلومة في أسفاره ومَقيله ومبيته ومنزله ومصلاّه ، وإن شئت فانظر في أحاديث حجة الوداع ، لا تجد مثله في أسفار العظماء .

والحاصل أن المسلمين لم يصوروا نبيهم ﷺ ، ولم ينحتوا له تمثالاً من حجر كما فعل غيرهم من الأمم ، لأن نبيهم نهاهم عن ذلك أشد النهي ، ولكنهم صوّروه بالكلام ، ووصفوه باللسان والأقلام ، وضبطوا شمائله ومخايله ضبطاً يغني عن كل تصوير يُعبد .

فمن نظر في البَوْن الشاسع بين سيرة نبيّ ونبيّ ، مع توفُّر الدواعي ، رأى

---

(١) مما لا بد من ذكره ، أن هذه الاقتباسات كلها منقولة من كتاب ( خطبات مدارس ) للأستاذ العلاّمة السيد سليمان الندوي ، وهو المترجم بالعربية بعنوان « الرسالة المحمدية » .

أنه لم يكن صدفة ، ولكن تقديراً من الله سبحانه وإنجازاً لوعده .

﴿ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ ، فَمَنْ مَنَّ عليك بهذه النعم الجليلة من شرح الصدر ، ووضع الوزر ، ورفع الذكر ، سيكشف هذه الغُمَّة ، ويأتي اليسرُ بعد العسر .

﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ﴾ ، أي اجتهد في العبادة ، والقيام بحقوقه ، وإلى ربّك فارغب .

* * *

# الإنسَان بَيْن السموّ والانتكاس
# في ضَوْء سُورة ( التين )

﴿ وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ۝٣ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝٥ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٦ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ ۝٧ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾ [ التين : ١ ـ ٨ ] .

سلك المفسرون في وجه اختيار هذه الأشياء من ثمر وشجر ، وجبل وبلد ، والحَلِف بها : مسلكهم المعروف في سائر أقسام القرآن ، فعدُّوا للأولين منافع غذائية وطبّية ، وآيات الله فيهما ، وللآخرين فضائل ومناقب ، ولا حاجة لربط قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ . . . ﴾ وما بعده : بالأول ، على قولهم .

أما أنا فلا أرى ـ والله أعلم بأسرار كتابه ـ إلا أن الله أقسم بهذه الأشياء استشهاداً ، ومن التين والزيتون إشارة إلى منبتهما وأرضهما التي يكثران فيها ، وهي أرض الشام ، وهي مهد النبوة والأنبياء ومنبتهم ، ومهبط الوحي والملائكة ، وموطىء أقدام أولي العزم من الأنبياء فضلاً عن البشر ، ومنهم عيسى ابن مريم عليهما السلام ، ومشهد مِنن الله سبحانه ونِعَمه على الإنسان ، واصطفائه إياه ، وشاهد عين وسمع بما خصَّ الله الإنسان من نِعَم ، وخلَقه في أحسن تقويم خُلقاً وخَلقاً .

وليس هذا القول ببدع من التفسير وإلحاد ، بل سبقنا إليه من قبلُ حبر الأمة ، فقال : التين : بلاد الشام ، وربما قال : بلاد فلسطين ، وقال أيضاً : بيت المقدس .

وقد عدل كثير من أئمة التفسير ومراجعه من كونهما من المأكول إلى كونهما من المواضع والأمكنة ، قال الضحاك : التين مسجد دمشق ، والزيتون

مسجد بيت المقدس ، وقال قتادة : التين الجبل الذي عليه دمشق ، والزيتون الجبل الذي عليه بيت المقدس ، وقال عكرمة وكعب الأحبار : التين دمشق ، والزيتون بيت المقدس ، واختاره ابن جرير . وقال محمد بن كعب : التين مسجد أصحاب الكهف ، والزيتون مسجد إيليا ، وقال بعضهم : جبل الجودي ، وقد يروى عن بعض السلف أيضاً واختاره الشيخ حميد الدين الفراهي . وبعض هذه الأقوال لا دليل له البتة .

أما كونهما من المواضع فقد دلَّ عليه السياق لأنه تعالى قرن التين والزيتون بطور سينين والبلد الأمين ، فدلَّ النظم على كونهما اسمين لموضعين .

أما كون المراد المنبت ، فالعرب يسمون الموضع باسم ما ينبت فيه كثيراً ، كالغضا والشجر والنخلة ، وليس ذلك خروجاً عن أصل المعنى ، وإنما هو استعمالها في بعض وجوهها بطريق تسمية الظرف بالمظروف ، قال النابغة الذبياني :

وهبّت الريح من تلقاء ذي أرل تزجي مع الليل في صرّادها صرما
صحب الظلال أتين التين عن عرض يزجين غيماً قليلاً ماءه شبما

وكذلك طور سنين والبلد الأمين ، وهما معروفان .

فالطور هو الجبل الذي نال عليه إنسان ـ وهو موسى عليه السلام ـ النبوَّة ، وتشرف بكلام الله سبحانه وشهد تجليات الله . والبلد الأمين مكة ، التي تشرف فيها إنسان آخر ـ وهو الآخِرُ ـ بالرسالة والنبوّة .

فكل هذه الأمكنة الطاهرة تشهد بمزية الإنسان واعتدال طبيعته واستعداده لأكبر مهمة وحمل أمانة النبوة ، والنبوة لا يليق لها إلّا المعتدلون في الخَلق والخُلق[1] .

والأنبياء يكونون أحسن الناس وأعدلهم وأوسطهم خَلقاً وخُلقاً ، وهم من هذا النوع الذي يقال له الإنسان ، فتشهد هذه المواضع بلسان حالها بصدق

---

(١) راجع ( حجة الله البالغة ) للإمام أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي .

قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ .

قال الراغب : تقويم شيء تثقيفه ، قال : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ وذلك إشارة إلى ما خُصّ به الإنسان من بين الحيوان من العقل والفهم وانتصاب القامة الدالة على استيلائه على كل ما في هذا العالم ، وإلى هذا ينظر قوله تعالى : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ . . . ﴾ الآية .

﴿ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴾ أي : صيَّرناه أسفل من كل سافل ، وأسفل إما أن يكون ظرفاً أو مفعولاً به ، أو حالاً . فهذا الجنس الذي كان منه محمد وموسى وعيسى والنبيون والصديقون والشهداء والصالحون : انحط بعض أفراده بأعمالهم حتى صاروا أرذل من الحيوانات والعجماوات والحشرات والجمادات ، فكان منهم من ادعى الألوهية كفرعون ، ومنهم من قلب الفطرة ، ومنهم من مسخ الإنسانية ، ومنهم من اخترع الجرائم وابتدع من المآثم ما لا يخطر على قلب بهيمة وسبع ، ولا يزال منهم من يبتكر أنواعاً وبدعاً من أساليب القتل والفتك بالإنسان ، وآلات الدمار والهلاك ، والغازات السامة ، والسموم القاتلة ، وأنواعاً من الخلاعة والعري والتهتك ما تخجل منه البهائم .

وقد بلغ هذا الإنسان في القساوة والضراوة بالدم ـ خصوصاً إنسان القرن العشرين ـ ما لم يبلغه سبع ولا حشرة ، ولا يصدق هذه الآية ولا يؤمن بها عن بصيرة : إلّا من قرأ تاريخ بني جنسه أو شهده بأوربة ، ويعلم أن لم يبق الحيوان مضرب المثل فيما ننسب إليه ونستقبحه[1] .

فالإنسان إذا انحرف عن فطرته وانحط من مقامه فمعاذ الله من شره ، فلا تكون الحية والعقرب أشد إيذاءً وخطراً منه ، ولا الذئب في الغنم بأخوف وأفسد منه ، ولا القردة والخنازير أشد خلاعة وفجوراً منه . وهذه الأنواع التي ضربناها مثلاً لا تحط عن مقامها ، ولا تخرج عن فطرتها ، وإنما هي تفعل كل

---

(١) راجع رسالة ( الحضارة الوافدة وأثرها في الجيل المُثقَّف ) للعلامة الندوي طبع دار الصحوة بالقاهرة .

ما تفعل بسائق الفطرة التي فُطِرَت عليها ، ولا عذل ولا عتاب على الفطرة ، ولكن الإنسان يمسخ فطرته ويقلب طبيعته .

وما ظنك بجنس لم يزل ولا يزال منه قوم ممسوخو الفطرة ، منكوسو الطبيعة ، وهل سمعت بأن صنفاً من الحيوان غير الإنسان يكتسب ويرتزق بعرضه وفرجه[1] .

ثم استثنى الله ـ إنصافاً ـ منه الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، أي : حافظوا على ما رزقهم الله من فطرة طاهرة زكية ، وزكّوا أنفسهم بالإيمان والعمل الصالح : ﴿ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ غير مقطوع .

﴿ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ ﴾ أي : ما يحملك على التكذيب بالجزاء مع أنك شاهدت مظاهره في هذه الحياة ، فرأيت كيف يبلغ هذا الإنسان منزلة لا يبلغها الملائكة ، ثم كيف ينحط بأعماله حتى يصير أسفل سافلين .

---

(١) ومما يناسب ذكره ، ولا يبعد في تفسير هذه الآيات ويدل على فقه العلماء الربانيين لهذه النكتة التي أشرت إليها ، وعلى نشاطهم وحكمتهم في الدعوة والإصلاح والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر : أن الشيخ العالم العامل إسماعيل الشهيد رحمه الله ، حفيد شيخ الإسلام ولي الله بن عبد الرحيم الدهلوي دخل يوماً في سوق المومسات ( النساء المجاهرات بالفجور اللاتي يأخذن الأجرة ) ، فرآه رجل ممن يعرفه ويعرف صلاحه وعفافه وبيته ، فتبعه يتفقد أمره ، فإذا هو يقف على باب مومسة كبيرة وينادي بصوت المتسوّلين الطوّافين ، فخرجت بنت ودفعت إليه دريهمات ، فقال : لا ، حتى تخبري صاحبة البيت أن الشيخ لا يبرح حتى يُسمَع نشيده . وكان في البيت عرس أو مأتم آخر ، اجتمعت فيه زميلاتها ونساء السوق وأصدقاؤهنّ وزبائنهن من أهل المدينة ، فأذنت له ودعته في المجلس ليتفرجن عليه ، وقالت : هات يا أخا الترهات ، فقرأ سورة والتين ثم جعل يفسرها ، وكان رحمه الله قد أوتي حظاً كبيراً من التأثير وسحر الكلام ، وفوق ذلك الإخلاص والنية . ولا بد أنه يكون قد فسر قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴾ وطبقها عليهن . فما أحسن اختياره ! وما أكثر فقهه ! فأجهشن بكاءً وكاد يُغشى على بعضهن ، فأخذ يحضّ على التوبة ويعدُّ فضائلها ، فتُبنَ ، وتابوا ، ولم يبرح المجلس حتى زوَّج النساء بالرجال بعضهم ببعض .

﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾ : في معاملته مع الإنسان حسب أعماله وإيتاء كل ذي حقٍّ حقّه ، من الدرجات العليا ، أو الدركات السفلى ؟ بلى ! إنا على ذلك لمن الشاهدين . ويشهد معنا تاريخ الإنسانية ، الماضي والحاضر ، وقد شهدت قبلنا هذه الأمكنة ، ولا تزال تشهد .

* * *

# كُنود الإنسان وَسببُه ، وعبرةٌ من الحيَوان الأعجم ، تأمُّلٌ في سُورة ( العاديات )

﴿ وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ۝١ فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ۝٢ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ۝٣ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ۝٤ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ۝٥ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ۝٦ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ۝٧ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ۝٨ ۞ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ۝٩ وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ ۝١٠ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ﴾[1] [ العاديات : ١ ـ ١١ ] .

للمفسرين رحمهم الله أقوال في وجه الأقسام بالخيل ووصفها بصفات مخصوصة ، كأقوالهم في سائر أقسام القرآن في غير هذا المقام ، أحسنها : أن الله سبحانه أقسم بها متصفة بصفاتها التي ذكرها ، آتية بالأعمال التي سردها ، لينوّه بشأنها ويعلي من قدرها في نفوس المؤمنين أهل العلم والجِدّ ليُعنَوا بقيمتها وتدريبها على الكرّ والفرّ ، وليحمل أنفسهم على العناية بالفروسية والتدرب على ركوب الخيل والإغارة بها كقوله تعالى : ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾[2] [ الأنفال : ٦٠ ] .

---

(١) اللغات :
العَدو : هو الجري ، والضَّبح : صوت أنفاس الخيل عند جريها ، وضبحاً : يجوز أن يكون مصدراً في موضع الحال ، أي : ضابحات أو ذوات ضبح ، أو مصدراً بفعل محذوف ، أي : تضبح ضبحاً ، الإيراء : إخراج النار بنحو الزناد ، والقدح : الصك وهو ضرب الخيل بحوافرها كالقدح بالزناد ، أثرن به نقعاً : أي هيّجن غباراً في الضبح ، لَكنود : لكفور ، الخير : المال ، وهو في القرآن كثير ، بُعثر : نُثر وبُعث .

(٢) من تفسير الشيخ محمد عبده ملخّصاً .

وهذا كلام حكيم ومعنى شريف ، مطابق لروح الدين الإسلامي دين الرجولة الكاملة ، والبطولة والفروسية والحماية ، والأمان والسلام والجهاد النزيه الفاضل ، جدّ مطابق ، تعاضده الآيات العديدة ، والأحاديث الكثيرة . بيد أنه مستقل لا يُفهم من ظاهر الكلام المبين ولا من سياق الآيات خصوصاً ، ولا يرتبط بقوله : ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴾ الذي يظهر أنه عمود السورة وقطب الرَّحى ، والذي من أجله سيقت الآيات التي وصف فيها الخيل .

وها أنا ذاكر بإذن الله وتوفيقه وجهاً آخر أرجو أن يشرح الصدر ويقر العين ويزيد في اللذة والحلاوة ويفتح عليك باباً جديداً من العلم والحكمة والفكر والعبرة ، ولا غروَ فإنه قبس من هذا النور لا غير :

اقرأ هذه الآيات التي وصف الله فيها الخيل مع قوله : ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴾ مراراً مع خلو الذهن من كل ما قيل فيها : تتنبه سريعاً إلى نكتة كلما حمدت الله عليها كان قليلاً .

ترى أن الله سبحانه يصف الخيل في هذه السوة بأوصاف ويذكر لها أعمالاً ، كلها ترجع إلى نقطة ، وهي الوفاء والفداء والإيثار لسيّدها .

فهي التي تفديه بنفسها ، وتشقى لنعيمه ، وتموت لحياته ، ولا تعرف لنفسها ولا لحياتها حقاً ، ترمي بنفسها في الخطر ، وفي النار والبحر ، وتصبر على الجوع والعطش ، وتتحمل المشاق : تعدو ضبحاً ، وتوري قدحاً ، وتُغير صبحاً ، فتثير به نقعاً ، وتوسط به جمعاً ، ولا تصوير أبلغ من تصوير الله سبحانه .

تفعل كل هذا مع ربها ، وهو ليس لها برب ، والذي هو من غير جنسها ، والذي يستخدمها أكثر مما يخدمها ، وهو الحيوان غير الناطق غير العاقل .

فكيف الإنسان العاقل الشريف مع ربه الحقيقي وولي نِعَمه ، إن الإنسان لربه لكنود ! فللإنسان عبرة في دواجنه وفي عبيده المسخرة .

﴿ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴾ يشهد به لسان الحال ولا يجحد به بلسان المقال ، وإن كذب اللسان فأحوال الإنسان وسيرته تصرخ بذلك وتنادي .

﴿ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾ والعلة الطبيعية لذلك أن الإنسان لا يقدر أن يجمع بين الربَّيْن يعبدهما ويخدمهما : ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ﴾ [ الأحزاب : ٤ ] ، ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [ الزمر : ٢٩ ] .

فهذه السورة قد اشتملت على بيان المرض وهو قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴾ وعلى علته وهو قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾ وعلى علاجه وهو قوله : ﴿ ۞ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ . . . ﴾ إلخ ، فإن الإيمان بالآخرة وتذكر الموت يكشف الغطاء عن العين ، ويُفيق من سكرة الدنيا ، قال النبي ﷺ : « أكثروا ذكرَ هاذم اللذات » .

* * *

# تشْريع الصَّوْم وَأسْراره كما ذكرها القرآن(١)

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُواْ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [ البقرة: ١٨٣ ـ ١٨٥ ].

هي آيات من سورة البقرة تدور حول فريضة الصيام ، هذه هي الآيات الأولى التي عرف المسلمون بها وجوب الصيام في رمضان ، والصوم شاقٌّ على النفس ، لأنه حرمان الطعام والشراب والشهوات في مدة محدودة ، فما كان أجدرهم بأن يستثقلوا هذا التشريع وأن يستثقلوا هذه الآيات التي تنزل به ! .

إن كل ما يأتي بمسؤولية ومتاعب ، وكل ما يحول بين المرء وبين شهواته بغيض ثقيل ، ولكنه ليس كذلك ، فلماذا ؟! .

ليست هذه الآيات ـ التي تضمنت وجوب الصوم ـ تشريعاً جافّاً مجرّداً كالقوانين والمراسيم العادية التي لا تعتمد إلا على الرابطة السياسية والاجتماعية التي تقوم بين الفرد والحكومة . إن هذه الآيات ـ بالعكس من ذلك ـ تخاطب الإيمان والعقيدة والعقل والضمير والقلب والعاطفة في وقت

---

(١) مأخوذ من كتاب « الأركان الأربعة » للعلاَّمة الندوي ، ص : ٢١٧ ـ ٢٢٥ ، طبع دار ابن كثير دمشق .

واحد ، وتثير كل ذلك وتغذّي كل ذلك ، وهكذا تهيّىء الجو لقبول هذا التشريع وإساغته ، بل للترحيب به واستقباله بنشاط وحماس ، إنها آية في الإعجاز ، آية في فقه الدعوة ، آية في علم النفس ، آية في التشريع الحكيم : ﴿ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [ فصلت : ٤٢ ] .

خاطب الله المكلفين بهذا التشريع بقوله : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ وهكذا هيَّأ المخاطبين لقبول كل ما يُكلَّفون به ويُطلب منهم ، مهما كان شاقّاً وعسيراً ، لأن صفة الإيمان هي تقتضي ذلك وتوجبه ، فمن آمن بالله كإله وربّ وسيّد مطاع وصاحب الأمر والنهي ، وخضع له بقلبه وقالبه ، واستسلم له وأحبه من أعماق نفسه : كان جديراً بإجابة كل ما يصدر عنه من أمر ، وكل ما يُوجهه إليه من سؤال : ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾ [ النور : ٥١ ] ، ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾ [ الأحزاب : ٣٦ ] ، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ [ الأنفال : ٢٤ ] ، والشريعة كلها ـ بما فيها من فرائض وعبادات وأحكام ـ حياةٌ للنفوس .

ثم ذكر الله أنه كتب عليهم الصيام ، ولكنه لم يكتب عليهم لأول مرة في تاريخ الأديان وليس هو بدعاً في التشريع ، فقد كتبه على مَنْ سبقهم من أهل الكتاب وأهل الشرائع والأديان ، وهكذا يخفف الله وطأة هذا التشريع على النفوس ويُهوِّن خطبه عليها ، فالإنسان إذا عرف أنه لم يُكلَّف بشيءٍ جديد ، وإنما هو شيء سبق وتقدم وقامت به الطوائف والأمم : هان عليه الأمرُ وتشجَّع عليه . ثم ذكر أنه ليس امتحاناً فقط ، ولا مشقة ليس وراءها قصد ، إنه رياضة وتربية ، وإصلاح وتزكية ، ومدرسة خُلقية ، يتخرج فيها الإنسان فاضلاً كاملاً ، زمامه بيده يملك نفسه وشهواته ، ولا تملكه ، لقد استطاع الإضرابَ عن المباحات والطيّبات ، فقوي على ترك الممنوعات والمحرمات ، وترك الماء الزلال والحلال ، والطعام الزكي الهنيء لأمر ربه ، فكيف يقرب الحرام والرجس النجس من المطاعم والمشارب والمعايش ؟ لذلك قال : ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ .

ثم قال : لا تهولنَّكم عِدّة الشهر وتثقلنَّ عليكم ، فإنما هي : ﴿ أَيَّامًا

مَّعْدُودَٰتٍ ﴾ تُصام تِباعاً وتنقضي سِراعاً ، وما نسبة هذا الشهر ـ الذي لا يصام إلا نهاره ـ إلى العام الكامل الذي ينقضي في لذة مباحة ، ومتعة وراحة ؟ ثم إنه يستثنى من هذا التكليف مريض ، ومسافر ، ومن يعجز عن الصوم ، أو يُخاف عليه منه .

ثم ذكر فضل الشهر الذي شرع صومه ، بأنه شهر نزل فيه القرآن ، فكان بعثاً جديداً للجيل الإنساني ، ومبدأ حياة جديدة للنوع البشري ، فخليق بالمسلم أن يستمد من هذا الشهر المبارك وبصيامه وقيامه حياة جديدة ، وإيماناً جديداً ، وقوة جديدة .

هذا هو الصوم الإسلامي ، أو الشحن الروحاني الذي هو زاخر بالحياة والمنافع والبركات ، بعيد عن الإرهاق والإجهاد والمشقات التي لا تطيقها النفوس : ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [ البقرة : ١٨٥ ] .

## خصائص التشريع الإسلامي في الصوم وفضله وأحكامه :

وهكذا جاء التشريع الإسلامي للصوم أكمل تشريع وأوفاه بالمقصود ، وأضمنه بالفائدة ، وقد تجلّت فيه حكمة العزيز العليم الحكيم الخبير ، الذي خلق الإنسان ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ [ الملك : ١٤ ] .

فخص شهراً كاملاً ـ وهو شهر رمضان الذي أُنزل فيه القرآن ـ بصيام أيام متتابعات متواليات ، يُصام نهارها ويُفطر ليلها ، وهو العُرف عند العرب في الصوم وهو الميزان في التشريع العالمي الإسلامي ، يقول شيخ الإسلام أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي : « ويُضبط اليوم بطلوع الفجر إلى غروب الشمس ، لأنه هو حساب العرب ومقدار يومهم ، والمشهور عندهم في صوم عاشوراء ، والشهرُ برؤية الهلال إلى رؤية الهلال ، لأنه هو شهر العرب ، وليس حسابهم على الشهور الشمسية »[1] .

---

(١) حجة الله البالغة ٢/ ٢٧ .

## لماذا خُصّ رمضان بالصوم ؟

وجعل الله الصوم في رمضان ، فجعل أحدهما مقروناً بالآخر ، مرتبطاً به ، فذلك قِران السعدين ، والتقاء السعادتين في حكمة التشريع ، وذلك لأن رمضان قد أنزل فيه القرآن ، فكان مطلعَ الصبح الصادق في ليل الإنسانية الغاسق ، فحسن أن يقرن هذا الشهر بالصوم ، كما يقترن طلوع الصبح بالصوم كل يوم ، وكان أحق شهور الله ـ بما خصّه الله من يُمن وسعادة وبركة ورحمة ، وبما بينه وبين القلوب الإنسانية السليمة من صلة خفية روحية ـ بأن يُصام نهاره ، ويُقام ليله[١] .

وبين الصوم والقرآن صلة متينة عميقة ، ولذلك كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يُكثر من القرآن في رمضان ، يقول ابن عباس رضي الله عنهما : « كان رسول الله ﷺ أجودَ الناس ، وكان أجودَ ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل، وكان يلقاه جبريل في كل ليلة من رمضان فيدارسه القرآن ، فرسول الله ﷺ حين يلقاه جبريل ، أجود بالخير من الريح المرسلة »[٢] .

يقول العارف بالله ، العالم الرباني الشيخ أحمد بن عبد الأحد السرهندي ( م١٠٣٤هـ ) في بعض رسائله : ( إن لهذا الشهر مناسبة تامة بالقرآن ، وبهذه المناسبة كان نزوله فيه ، وكان هذا الشهر جامعاً لجميع الخيرات والبركات ، وكل خير وبركة تصل إلى الناس في طول العام قطرة من هذا البحر. وإن جمعية هذا الشهر سبب لجمعية العالم كله ، وتشتُّت البال فيه سبب للتشتُّت في بقية الأيام ، وفي طول العام . فطوبى لمن مضى عليه هذا الشهر المبارك ، ورضي عنه ، وويل لمن سخط عليه فمُنع من البركات ، وحُرم من الخيرات )[٣] .

---

(١) يقول شيخ الإسلام أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي : « إذا وجب تعيين ذلك الشهر ، فلا أحق من شهر نزل فيه القرآن ، وارتسخت فيه الملة المصطفوية ، وهو مظنة ليلة القدر » . ( حجة الله البالغة ٢/ ٣٧ ) .

(٢) حديث متفق عليه .

(٣) رسائل الإمام الرباني ، الشيخ أحمد بن عبد الأحد السرهندي ١/ ٨ .

ويقول في رسالة أخرى : ( إذا وُفّق الإنسان للخيرات والأعمال الصالحة في هذا الشهر ، حالفه التوفيق في طول السنة ، وإذا مضى هذا الشهر في توزُّع بال وتشتُّت حال ، مضى العام كله في تشتُّت وتشويش )[١] .

وقد روى أبو هريرة رضي الله عنه ، عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، قال : « إذا دخل رمضان فُتحت أبواب الجنة ، وأُغلِقت أبواب جهنم ، وسُلسِلت الشياطين »[٢] . والأحاديث في الباب كثيرة .

## موسم عالمي ، ومهرجان عام للعبادات والخيرات :

وهكذا أصبح رمضان موسماً عالمياً ، للعبادة والذكر والتلاوة ، والورع والزهادة ، يلتقي على صعيده المسلمُ الشرقي مع المسلم الغربي ، والجاهل مع العالم ، والفقير مع الغني ، والمُقصِّر مع المجاهد . ففي كل بلد رمضان ، وفي كل قرية وبادية رمضان ، وفي كل قصر وكوخ رمضان ، فلا افتئات في الرأي ، ولا فوضى في اختيار أيام الصوم ، فكل ذي عينين ، يستشعر جلاله وجماله ، أينما حل ورحل في العالم الإسلامي المترامي الأطراف . تغشى سحابته النورانية المجتمع الإسلامي كله ، فيحجم المفطر المتهاون بالصوم عن الانشقاق عن جماعة المسلمين ، فلا يأكل إلّا متوارياً أو خجِلاً ، إلا إذا كان وقحاً مستهتراً من الملاحدة أو الماجنين ، أو كان من المرضى والمسافرين ، الذين أذن الله لهم في الإفطار . فهو صوم اجتماعي عالمي ، له جوٌّ خاص ، يسهل فيه الصوم ، وترقّ فيه القلوب ، وتخشع فيه النفوس ، وتميل فيه إلى أنواع العبادات والطاعات ، والبرّ والمواساة .

## الجوّ العالمي ، وما له من تأثير في النفوس والمجتمع :

وقد لاحظ ذلك شيخ الإسلام أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي ، بنظره الدقيق العميق ، فقال وهو يشرح حديث : « إذا دخل رمضان فتحت أبواب

---

(١) أيضاً ، رسالة : ٤٥ .

(٢) البخاري في كتاب الصوم ، باب : هل يقال رمضان أو شهر رمضان ٢/ ٦٧١ .

الجنة . . . » إلخ : ( الصوم إذا جعل رسماً مشهوراً ، نفع عن غوائل الرسوم ، وإذا التزمته أمة من الأمم ، سلسلت شياطينها ، وفتحت أبواب جنانها ، وغلقت أبواب النيران عنها )[١] .

ويقول في موضع آخر : ( أيضاً فإن اجتماع طوائف عظيمة من المسلمين على شيء واحد ، في زمان واحد ، يرى بعضهم بعضاً : معونةٌ لهم على الفعل ، ميسّر عليهم ومشجّع إياهم . . . ، وأيضاً فإن اجتماعهم هذا أدعى لنزول البركات الملكية على خاصتهم وعامتهم ، وأدنى أن ينعكس أنوار كلهم على مَن دونهم ، وتحيط دعوتهم مَن وراءهم )[٢] .

## الفضائل وما لها من تأثير وقوة :

إن الحياة في صراع دائم بين الشهوات الحبيبة إلى النفس ، والمنافع المقررة عند العقل ، وليس الشهوات هي التي تنتصر دائماً في هذه المعركة ، كما يعتقد بعض الناس ، فذلك سوء ظن بالطبيعة البشرية ، وإنكار للواقع .

إن القوة التي تدير عجلة الحياة بسرعة ، وتفيض على هذا العالم الحياةَ والنشاط ، هي الإيمان بالنفع . ذلك الإيمان هو الذي يوقظ الفلّاح في يوم شاتٍ شديد البرد ، فيحرِّم عليه الدفء ، ويبكر به إلى الحقل ، وفي يوم صائف شديد الحر يهون عليه وهج الشمس ولفح السموم ، ويفصل بين التاجر وأهله ، ويتوجه به إلى متجره ، ذلك الإيمان هو الذي يزيّن للجند الموت في ساحة القتال ، وفراق الأحبة والعيال ، فلا يعدل به راحة ولا ثروة ولا نعيماً ، إن كل ذلك إيمان بالمنافع وحرص على الخير ، وهو القطب الذي تدور حوله الحياة .

وهنالك إيمان أعظم سلطاناً على النفوس ، وأعمق أثراً من الإيمان الذي ضربنا له بعض الأمثال ، ذلك الإيمان بمنافع أخبر بها الأنبياء والرسل ، ونزل

---

(١) حجة الله البالغة ١/ ٥٩ .

(٢) المصدر نفسه ٢/ ٣٧ .

بها الوحي ، ونطقت بها الصحف ، وهي تنحصر في رضا الله وثوابه وجزائه في الدنيا والآخرة .

لقد علم الجميع ، أن الإمساك عن الطعام في بعض الأيام مفيد للصحة ، وخير للمرء أن يصوم مراراً في كل عام ، وقد أسرف الناس في الأكل والشرب ، وأُتخموا بأنواع من الطعام والشراب ، فأصيبوا بأمراض جسدية وخُلقية ، كل ذلك معروف ومشاهد ، وآمن الناس بفوائد الصوم الطبيّة ، وآمنوا بأنه ضرورة صحيّة ، وآمنوا كذلك بفوائد الصوم الاقتصادية .

ولكن إذا سأل سائل عن عدد الصائمين في هذه السنة لفوائد طبيّة ، ومصالح اقتصادية ؟ وعن عدد الأيام التي صاموها طمعاً في الاعتدال في الصحة أو الاقتصاد في المعيشة ؟ كان الجواب المقرر ، أنه عدد ضئيل جداً ، ضئيل حتى في الشتاء ، مع أن الصوم فيه سهل هيّن ، ورغم أن الصوم الطبيّ أو الاقتصادي أسهل بكثير من الصوم الشرعي .

ثم ننظـر في عدد الصائمين الذين يصومون لأنهم يعتقدون أن الصوم فريضة دينية ، قد وعد الله عليه بثوابه ورضاه ، وتكفّل بجزائه : فنرى أن هذا العدد ـ مهما طغت المادية وضعف الدافع الديني ـ عدد ضخم لا يقل عن ملايين ، وأنّ هؤلاء الملايين من النفوس لا يمنعهم الحر الشديد في الأقاليم الحارة من أن يصوموا في النهار، ويقوموا في الليل ، لأن الإيمان بالمنافع الدينية التي أخبر بها الأنبياء ، عند أهل الإيمان أقوى من الإيمان بالمنافع الطبية التي أخبر بها الأطباء ، ومن الإيمان بالمنافع الاقتصادية التي لهج بها الاقتصاديون .

ذلك لأن المؤمنين سمعوا في الصوم ما هوّن عليهم متاعب الصوم ، وشجّعهم على احتمال الحر والجوع والعطش ، فقد روى أبو هريرة رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم وقال : « كل عمل ابن آدم يُضاعف ، الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمئة ضعف ، قال الله تعالى : إلّا الصوم ، فإنه لي ، وأنا أجزي به ، يدع شهوته وطعامه من أجلي ، للصائم فرحتان : فرحة عند فطوره ، وفرحة عند لقاء ربه ، ولَخُلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح

المسك »[١] . وروى سهل بن سعد ، عن النبي ﷺ ، قال : « في الجنة باب يُدعى الريّان ، يُدعى له الصائمون ، فمن كان من الصائمين دخله ، ومن دخله لم يظمأ أبداً »[٢] ، وعن أبي هريرة رضي الله عنه ، رفعه : « من صام رمضان إيماناً واحتساباً ، غُفر له ما تقدم من ذنبه »[٣] .

* * *

(١) رواه الستة .
(٢) متفق عليه .
(٣) رواه البخاري .

# تشْريع الحج وَالصَّوم ، وبَعْض حِكمهمَا وَأحكامهمَا في ظلال القرآن

﴿ ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [ البقرة : ١٩٧ ] .

إن لله مواسم في زمنه وفي خلقه ، هي فصول يحل فيها ربيع القلوب والأرواح ، وربيع الإيمان والأخلاق ، وتهب فيها نسائم الرحمة ونفحات المحبة ، لطيفة نظيفة ، رقيقة رفيعة ، قوية حيّة ، مُنعِشة محبَّبة .

ومن أفضل هذه المواسم الربانية الروحانية والأعياد المعنوية الإيمانية : رمضان شهر الصوم ، وأشهر الحج وخاصة ذو الحجة ، وقد ذكرها الله في كتابه بعضاً إثر بعض ، وأشاد بذكرها ونوّه بشأنها ، وقد جمعت بينها جامعة ، هي جامعة الطاعة ، وجامعة المحبة ، وجامعة فضل الزمان ، أو فضل المكان . فلا صوم إذا لم تكن طاعة ، ولا صوم إذا لم تكن محبة وإيثار رضا الله على رضا النفس ، ولا حج إذا لم تكن طاعة وانقياد ، ولم تكن محبة وإيثار . يهجر الإنسان طعامه وشرابه وشهواته ليصوم ويرضي ربه ويعصي نفسه . ويهجر الإنسان وطنه وسكنه وأهله وراحته ليحج ويرضي ربه ويعصي نفسه . والصوم في رمضان أفضل الأزمان . والحج في مكة وحواليها في أفضل مكان ، وفي أفضل أزمان . فاقترن الصوم بالحج ، وشابه الحج الصوم ، ففي كليهما زهد وصبر وإيثار وهجرة ، والصائم يسعى بين الإمساك والفطور ويطوف حول بيت ربه ، والحاج يسعى بين الصفا والمروة ، وبين مِنَى وعرفات، ويطوف حول بيت ربه، ولكلٍّ عيد ، ولكلٍّ فدية ، ولكلٍّ تهنئة .

وقد منع الله في الصوم عن الغيبة ، وقول الزور ، والخصام بصفة خاصة ، وقبّح أمرها فقال النبي ﷺ : « من لم يدع قول الزور والعمل به ،

فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه » ، وقال النبي ﷺ : « إذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يصخب ، فإن سابّه أحد فليقل إني صائم » . وقال عليه الصلاة والسلام : « رُبَّ صائم ليس له من صيامه إلّا الجوع » . وقد نهى الله في الحج عن الرفث والفسوق والجدال ، فقال عزّ من قائل : ﴿ ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ﴾ .

وقد ظهر في هذه الآيات وفي هذه التوجيهات إعجاز التنزيل وإعجاز التشريع ، فإن الصوم ، لثقله على النفس وبُعد الصائم عن مألوفاته وهجره لعاداته : مظنّةٌ لغيبة يشفي بها الإنسان نفسه أو يقتل بها وقته ، والخوض في خصام أو لجاج لحدّة النفس والغضب لأدنى سبب ، فنُهي عن ذلك . وكذلك الحاج مُعرَّضٌ لخطر الرفَث وهو الفحشاء وقلة الحياء ، والفسوق والجدال ، لبعده عن الأهل ، وطول السفر وحصول المشقة والمرور بأحوال مختلفة ، والاختلاط بأناس ورفاق ، لم يألفهم ولم يألفوه ، فالحج مظنّة لكل ذلك فحذَّرَ الله الحاج في سبيله القاصد لبيته عن كل ذلك ، ولا يعلم ذلك إلّا من أحاط علمه بكل شيء ، وعرف طبيعة الإنسان ومواضع ضعفه وسقطته ، ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ [ الملك : ١٤ ] .

وقد شمل الصوم والحج أنواعاً من الطاعات ، وضروباً وأساليب من البرّ والعبادات ، ليست معروضة ولا داخلة في صميم الصوم والحج ، كالإنفاق والمواساة والرحمة والخدمة والبرّ ، والصدقة والقيام وإحياء الليالي ، والتسبيح والتلاوة ، تُقوّي الصوم والحج وتُكثِر ثوابهما وفضلهما ، فقال العليم الحكيم : ﴿ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ﴾ .

وحثّ على التزوّد للقيام بالحج في عفة ونزاهة ، والتزوّد للآخرة بالإكثار من الخيرات ، وأنواع العبادات ، وقال عزّ وجلّ : ﴿ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ ، وقد أمر الصائم بالتزوّد لصومه كذلك ، وهو التسحّر الذي يقوّي على الصوم ويعين عليه ، والحاج يأخذ الزاد والراحلة ، وهنا اقترن الصوم بالحج كذلك ، فكلاهما يجري في رهان واحد .

* * *

# إمكان الانبعَاث الدِّيني بَعد خمُول طويل وَاضطهاد كبير[١]

﴿ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [ البقرة : ٢٥٩ ] .

إنَّ هذه الآية وإنْ أشارت إلى حادثة خاصة ظهرت فيها قدرة الله عزّ وجلّ ، بأن أحيا ميتة بعد مئة عام غضّاً طرياً ، وأبقى الطعام ـ الذي يفسد في الفضاء المفتوح بسرعة ـ مئة عام لم يفسد ولم يتعفن : فإنني أعتقد أن الآية الكريمة تنطوي على معنى لطيف آخر ، وهو أن الله عزّ وجلّ قد يحيي دينه ورسالته بعد خمودها[٢] ، وانفصام صلة الشعب والبلاد بها ، وفقدان الدفاع عنها وضعف الحميّة لها لمدة طويلة قد تبلغ مئة سنة ، ويعيد إليها النضارة والطراوة . فإنه إذا كان قادراً على إبقاء الطعام طيباً شهياً لمئة عام لم يفسد ولم يأسن ، فهو قادر ـ جَلَّ شأنه ـ على إبقاء دينه بعد مضي مئة عام أو أكثر عليه ، في أوضاع متنكرة وظروف قاسية ـ حيناً ـ غضّاً صحيحاً . وإنني أرى في هذه الآية الكريمة ، بشرى سارة بأن الشعوب والبلاد التي رفعت لواء الإسلام وأرهبت الغرب المستعمِر قروناً من الزمن ، ستعود إلى الازدهار والحياة والنشاط .

﴿ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ﴾ [ آل عمران : ٢٧ ] .

* * *

(١) ألقى العلاَّمة الندوي هذه الكلمة في إستانبول على ساحل باسفورس الآسيوي ، أمام مجموعة من الأتراك المُثقفين والعرب الفضلاء في شهر يونيه سنة ١٩٨٦م .

(٢) ومما يجدر بالذكر هنا أن مدة محنة تركية الإسلامية تكاد تكون مئة عام .

# أهميّة الإعلان بإكمال الدّين ومقتضيَاتِه العَقليّة والمدنية(١)

﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ [ المائدة : ٣ ] .

إن الله مَنَّ على المسلمين بالنعمة العظيمة الجليلة بإكمال هذا الدين وختم النبوّة والرسالة ، فهو من أكبر النعم ، والضمان الأكبر للحفاظ على الشريعة الإسلامية وصيانتها ، ووحدة الأمة ، واجتماع كلمتها . ولم ترزق أي أمة من الأمم هذه النعمة الجسيمة ، ولم تخاطب بهذا الإعلان الكبير ، وقد قال عالم يهودي ـ متحسّراً على عدم إدراك اليهود لهذه النعمة ـ لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه : ( آية في كتابكم تقرؤونها ، لو علينا معشرَ اليهود نزلت لاتخذنا ذلك اليوم عيداً ) .

وقد تعرضت الملل والشرائع السماوية السابقة ـ لعدم وجود هذه النعمة ـ لمختلف الابتلاءات والمحن ، وظهر فيها المتنبئون في فترات مختلفة ، وشغلت عقول علمائها ورجالها وصلاحياتهم وقواهم بالرد عليهم وتفنيد دعواهم ، وقد صرح بذلك واعترف به كُتابُ البحوث العلمية عن اليهودية والنصرانية في دائرة المعارف البريطانية والموسوعة اليهودية .

ثم إنه ينافي هذا الإعلان بهذه الثقة والمنة وإبداء الفضل والتكريم لهذه الأمـة الأخيرة ، ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ ، إنه ينافي روح هذا الإعلان وطبيعته ومتطلباته وتأثيره العقلي والنفسي : أن يرتد من بُشر بهذا الإعلان ، وأُكرم بهذا الفضل ، وخلع عليهم

---

(١) ألقى العلاَّمة الندوي هذه الكلمة في جامع منصور شعيبي بجدَّة ، وذلك في شهر صفر سنة ١٤٠٨هـ ( أكتوبر ١٩٨٧م ) .

هذا اللباس في حجة الوداع ، حين وقوفهم فيها بعرفات مع نبيهم مباشرة ، ويختار طريق الكفر والردة وجحود النعمة ، إن الله عزّ وجلّ الذي يعلم الغيب ويعلم المستقبل كما يعلم الماضي ، لم يكن ليعلن هذا الإعلان ويبشّر بهذه النعمة لو كان الأمر كذلك .

وقد نصّ القرآن الكريم على كونهم ﴿ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴾ [ النصر : ٢ ] ، ولكنه لم يذكر في أي موضع من كتابه : يخرجون من دين الله أفراداً ، فضلاً عن أن يذكر فيه عن هذه النفوس المؤمنة الطيبة أنهم يخرجون من دين الله أفواجاً ، مِن ذلك يُعلم أن قصة ارتداد الصحابة رضي الله عنهم جميعاً إلّا فلاناً وفلاناً ، ليس إلّا قصة أملاها الشيطان ، وسوّلتها النفوس المريضة .

إن قوله تعالى : ﴿ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي ﴾ يقتضي منا أيضاً أن نقف عند حدود الله تعالى ، ونتمسك بشريعته في الأخلاق والاجتماع والمدنية والحضارة ، فضلاً عن المعتقدات والعبادات ، ونحصر أنفسنا في دائرة التعاليم الإسلامية والقيادة القرآنية ، وخطوطها ومعالمها الواضحة ، ولا يجوز لنا أن نحاكي الغرب اجتماعياً وحضارياً ومدنياً ، وأن نكون ظلاً ملازماً له ، فقد رزقنا الله تعالى مع الأسس والمعتقدات والمبادىء نظاماً كاملاً مستقلاً للمعاملات ، وحضارة متميزة فريدة ، ومدنية صالحة مستقيمة ، يجبُ أن نتمثّل بها تمثيلاً صادقاً ، خصوصاً في هذا البلد الذي كان ولا يزال مركز الإسلام ، منه طلعت شمس الهداية ، وانتشر الإسلام ، وفيه يستقرّ وإليه يعود .

* * *

# الصِّلةُ المتينة الدَّائمة بَيْن الدِّين وَالمدنيَّة وَالمجتمع[١]

﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ [ المائدة : ٣ ] .

إن الدين إذا جُرّد عن المدنية ـ وقد جُرِّد كثيراً في التاريخ ، وتكرَّرت هذه التجربة في فترات كثيرة ـ كان ديناً ولا حضارة ، كان ديناً ولا اجتماع ، كان ديناً ولا حياة ، فهو كطائر مقصوص الجناح منتوف الريش ، لا يستطيع أن يطير ويحلّق في الأجواء ، إنه طائر يرفرف ويضطرب ، فهو أشبه ببلبل في قفص من ذهب ، وإن كان بلبلاً غرّيداً أو عندليباً ساجعاً مترنماً . أما الدين الحقيقي فهو الدين الذي يطير بجناحيه في أجواء من المعاني وفي أجواء من الأخلاق والمعاملات والسياسة والمدنية ، وهو يسبك الحياة سبكاً مطابقاً لعقيدته ولما يدين به . ظهر الإسلام فأنتج حضارة كاملة بحذافيرها ، حضارة زاهية زاهرة ، حضارة حكيمة عادلة ، حضارة مؤسسة على توحيد الله تبارك وتعالى ، والإيمان به ، وعلى ذكر الله تعالى ، واستحضار قدرته ، واستحضار الآخرة والإيمان بأن الآخرة خير من الأولى ، مؤسسة على العدل الاجتماعي ، وعلى الاحترام للإنسانية والرحمة بها ، وعلى الجمع بين الواجبات والحقوق في وقت واحد ، والأخذ والعطاء ، والإفادة والاستفادة في حين واحد ، وعلى الاعتراف بقيمة الإنسان أيّاً كان وأينما كان .

الحضارة قامت على أساس العقيدة ، وعلى أساس التربية الإلهية ، والنصوص القرآنية السماوية ، وعلى أساس السيرة النبويّة ، وأسوة الصحابة رضي الله عنهم ، فكان أزهى حضارة وأفضل حضارة جرّبها الإنسان . ظهرت

---

(١) ألقى العلاَّمة الندوي هذه الكلمة في الخليج العربي في إحدى المناسبات .

هذه الحضارة في الحجاز أولًا في مدينة الرسول ، وفي مَهْجره صلى الله عليه وآله وسلم ، ثم خرجت من حدود المدينة وغزت العالم كله ، وما دخلت في بلد من البلاد إلّا وخضع لها أهله طواعية لا كراهية ، وتغلغلت في أحشاء البلاد أو المجتمع الذي فتحته . وتعلمون أن أمة إذا فتحت عنوة بحدّ السيف فإنها تُبغض الفاتحين ، هذه تجربة التاريخ المتصلة المتكررة ، ولكن الحضارة الإسلامية وقعت من قلوب المواطنين موقع الحبيب ، وقبلتها البلاد وضمتها إلى صدرها ، لأنها كانت حضارة طبيعية عادلة عاقلة ، مؤسسة على مبدأ المساواة الإنسانية ، ومبدأ الرحمة بها ، وإخراج الناس من حكم العباد إلى حكم الله تبارك وتعالى ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جَور الأديان إلى عدل الإسلام .

فكل دين يجرَّد من الحضارة : دين صائر إلى الانقراض ، ومصيره الزوال السريع . وكل دين يرضى أهله بهذا الموقف الضعيف المتخاذل ، فيرضون من الدين بالعقيدة ولا يلحّون على مدنية خاصة هي نتاج هذا الدين ، ويقتبسون أو يستوردون مدنية أخرى هي وليدة بيئة أخرى ، وسليلة ديانة أخرى ، ونتيجة أحداث وعوامل مرت بها أمة خاصة ، أو بلد خاص : فإنهم يفقدون مع الأيام ومع تيار الزمان شخصيتهم ، ويفقد الدّين الذي دانوا به السيطرة على نفوسهم وعقولهم ، ويكونون صورة صادقة أو نسخة مطبوعة أمينة للأمة التي تطفلوا على مائدتها ، واقتبسوا منها الحضارة ونمط الحياة ، هذا ما نتخوّفه اليوم على العالم الإسلامي الذي يقتبس من الغرب مدنيته وأساليب حياته .

* * *

# مكانة الكعبة المشرّفة الدينيّة وَالعَالميّة المبْدئيّة وَمسْؤوليّة المرتبطين بهَا في أرجَاء العَالم(١)

﴿ ۞ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَـٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ . . . ﴾ [ المائدة : ٩٧ ] .

إن نظام العالم مرتبط في باطن أمره ببيت الله الحرام ، كما أن نظام العقائد والأعمال والأخلاق مرتبط بالدعوة التي أُسس لها هذا البيت . أعترف بقصور باعي في ترجمة ﴿ قِيَـٰمًا لِّلنَّاسِ ﴾ ، وإن الترجمات للقرآن الكريم التي اطَّلعتُ عليها وقرأتها : أعتقد أنها لم تستطع كذلك إعطاء هذه الكلمة حقها ، إلّا أنني أحاول أن أذكر مغزى الكلمة ومفهومها : وهو أن الله تعالى جعل الكعبة المشرفة عماد حياة الناس وعماد هذا العالم البشري ، فليس نظام هذا العالم مرتبطاً بالحكومات ولا بالمنظمات ولا بالقوة العسكرية والفلسفات الخلقية والحضارية ، ولا المراكز العلمية . إنه مرتبط بما لا تصل إليه الأفهام ، ولا تدركه الأبصار ، ببيت الله الحرام وبالدعوة التي أقيم لها هذا البيت ، وإنها عبارة عن العقيدة الصحيحة الراسخة ، والسيرة الطيبة الصالحة ، والأخلاق النبيلة الفاضلة ، والأواصر البشرية الخالصة ، والأخوة الصادقة ، والمحبة المتغلغلة في النفوس ، واحترام الإنسانية ، واعتقاد أن الله حاضر ناظر سميع بصير . . . إلخ ، وأن مركز هذا الكون ومحوره هو تلك الدعوة ، وتلك الأهداف والتربية التي كان سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام داعيها الأول ،

---

(١) ألقى العلّامة الندوي هذه الكلمة بمناسبة الترحيب بسماحة الشيخ محمد بن عبد الله السبيّل ، إمام الحرم المكي ، ومعالي الدكتور عبد الله عمر نصيف ، الأمين العام لرابطة العالم الإسلامي ، وذلك في ساحة ندوة العلماء بلكهنؤ ـ الهند ، أمام جمع حاشد من أهل البلد من كل طبقة .

ومجددها وخاتمها ومكملها هو سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، الذي كان ولا يزال بيت الله الحرام والمسجد النبوي الشريف يمثلانها ويحتضنانها .

إن هذه الآية الكريمة تفرض علينا نحن المسلمين مسؤولية كبيرة ، فإننا نمثل في كل بلد وقطر بيت الله الحرام ، فلو هلكت هذه البلاد لأَثَرَتها وجشعها وحرصها على الثروة والأموال ، وقتل الناس الأبرياء والتعذيب والإيذاء وحوادث الاضطراب الطائفية والأنانية ، وخواء الضمير ، وهدر كرامة الإنسانية ، لو وقع ذلك : فإننا نحن المسؤولون أمام الله ، سوف يمسك بتلابيبنا محمد صلى الله على وآله وسلم ، فإننا أمة نبي وُصف بأنه رحمة للعالمين ، قال تعالى : ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [ الأنبياء : ١٠٧ ] ، وقال أيضاً : ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمۡ وَأَنتَ فِيهِمۡۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمۡ وَهُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ ﴾ [ الأنفال : ٣٣ ] .

فلا يجوز أن تُدمَّر بلاد مع وجود أمة نبي الرحمة التي تحمل تعاليمه وشريعته ، والتي هي صنيع تربيته وتعليمه ، فإن من مسؤوليتها أن تحافظ عليها وعلى المثل العليا فيها ، وتحميها من الانتحار الجماعي والدمار الخُلقي ، والفوضى النفسية .

* * *

# بَين قامَةِ هذه الأمّة وقيمتها

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾ [ الأنفال : ٧٣ ] .

ليست العبرة بالقامة والحجم والكثرة ، إنما العبرة بالقيمة ، هناك شيئان يوزنان : القامة والقيمة ، ولكن الله سبحانه وتعالى فَضَّلَ القيمة على القامة . إنني كلما أقرأ الآيات الأخيرة من سورة الأنفال عجبت وعجبت ، وكدت أحار وأُغلَبُ على أمري ، إذا قرأت قول الله تبارك وتعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾ .

لمن يقال هذا ؟ لهذه الحَفنة البشرية التي تألفت من المهاجرين والأنصار ، تألفت من الأنصار أصحاب الدار ، ومن المهاجرين المغتربين الذين لم يتجاوز عددهم خمسمئة وألفاً . لقد حثَّ الله على المؤاخاة الإسلامية وربط المهاجرين بالأنصار والأنصار بالمهاجرين ، وأثار فيهم روح الأخوة الصادقة وحثهم على أن يكونوا وحدة جديدة ، وحدة تقوم على الإيمان وعلى الكلمة وعلى الترحُّم للإنسانية ، تقوم على المبدأ والعقيدة ، فقال لهم : إذا قصَّرتم في إنشاء هذه الأخوَّة وفي تكوين هذه الوحدة التي جهلها العالم وتناساها التاريخ ، وبكلمة أصحَّ : نسيها التاريخ منذ مئات السنين ، إذا قصرتم في إنشاء هذه الوحدة التي تقوم على الرسالة الفاضلة ، وعلى الأخوّة الصادقة المخلصة ؛ فإنها تكون فتنة في الأرض وفساد كبير ، ﴿ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾ .

ما نسبة هذه القلة القليلة التي كانت تعيش في يثربَ ـ التي سُمّيت بعد ذلك بمدينة الرسول ﷺ ـ ؟ ما وزن هذه القلة وما عدد أفرادها ؟ وما وزن هذه القلّة في الميزان السياسي وفي الميزان الدولي وفي الميزان الاجتماعي وحتى

في الميزان العلمي ؟ إنهم ـ كما أعتقد ـ لم يبلغ عددهم ألفين . وقد أُجرِيَ إحصاؤهم ثلاث مرات كما ورد في صحيح البخاري ، وكان عددهم في آخر إحصاء بلغ : خمسَمئة وألف نسمة ، فلمن يقال هذا ؟

هل يقال للرومان الذين سيطروا على نصف الأرض ، والذين كانوا يتمتعون بأكبر إمبراطورية ، وأكبر حضارة قامت في ظلّها ، وبأكبر قوة حربية وقوة دولية وقوة سياسية ؟

هل يقال هذا للفرس الإيرانيين الذين كانوا توزعوا والرومان في بسط نفوذهم بالاستيلاء على الأرض المعمورة ؟

كان هؤلاء الرومان والفرس هم المؤثّرين في مسيرة الإنسانية ، وهم الذين كانوا يُسيِّرون سفينة الحياة وسفينة الحضارة ، وهم الذين كانوا يتصرفون في وسائل الأمم ـ إذا صحَّ هذا التعبير ـ وفي أوضاع العالم ، هل يقال لهم : ﴿ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾ .

قيسوا أولًا روعة الكلمة وحَجمها : ﴿ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ ﴾ ، ما أكبر حجمها وما أثقل وزنها !! ولم يقل : ﴿ فساد ﴾ فحسب ، بل : ﴿ فساد كبير ﴾ .

هذه قيمة الأمة المسلمة حين كانت في عدد المئات ، في عدد ألف أو ألفين ، هذا هو التصوير الصادق ، وإعطاء هذه المجموعة هذا الوزن الكبير ، وهذه القيمة الكبيرة ، وهذه المكانة الرئيسة في خريطة العالم ومجموع الأمم .

فثبت بذلك أن المسلم بقيمته لا بقامته ، وأن الأمة المسلمة برسالتها وإيمانها وعقيدتها وفضلها الخُلقي وضميرها الحيّ ، وبالروح المتغلغلة في الأحشاء ، المسيطرة على الشعور وعلى العقل والتفكير .

قيمة هذه الأمة في هذه الخصائص التي أكرمها الله بها ، ليست بكثرة العَدَد والعُدَد ، ولا بكثرة المساحة المكانية التي تسيطر عليها وتحكم فيها ، ولا بالفخامة وبحجم المساحة الزمانية التي تؤثر فيها .

* * *

# توبة كريمة مشرفة![1]

﴿ لَقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [ التوبة : ١١٧ ـ ١١٨ ] .

كانت غزوة تبوك التي غزاها رسول الله ﷺ في سنة تسع من الهجرة غزوة شديدة ؛ غزاها رسول الله ﷺ كما يقول كعب بن مالك رضي الله عنه : « في حر شديد ، واستقبل سفراً بعيداً ، ومفازاً ، وعدوّاً كثيراً قوياً » ، يعني المملكة الرومية العظيمة التي كانت تحكم نصف الأرض المعمورة تقريباً ، وكان ذلك في عسرة في الناس وجدب في البلاد ، ولذلك سُمّيت غزوة العسرة ، وقد طابت الثمار والظلال في المدينة وقويت الرغبة في البقاء في الوطن والأهل ، وانصرفت الطباع وزهدت النفوس في الخروج والغزو ، وقد اجتمعت الأسباب المثبّطة العائقة ، وحلا البقاء في المدينة ، وشقَّ الخروج والمجازفة بالحياة ، أمام عدو قد دمر الإمبراطورية الفارسية ، وهزمها هزيمة منكرة بالأمس القريب .

ولكن كان من معجزات التربية النبوية ، ومن معجزات الإيمان والعقيدة أنْ لم يتخلَّف عن هذه الغزوة الشاقّة العسيرة ، إلّا ثلاثة أشخاص من المؤمنين ، والمسلمون مع رسول الله ﷺ كثير لا يجمعهم كتاب حافظ

---

(١) نشر هذا المقال في مجلة « البعث الإسلامي » في عددها الثالث ، المجلد الخامس عشر ، عام ١٩٧٠م .

ولا ديوان ، فما من رجل يريد أن يتغيَّب إلّا ظن أنه سيخفى عليه ما لم ينزل فيه وحي الله ، فليس عليهم رقيب إلّا الإيمان ، وليس لهم حسيب إلّا ضميرهم وعقيدتهم ، ولم يتخلّف هؤلاء الثلاثة إلّا بطبيعة التسويف أو الكسل الذي يعتري الرجل النشيط . وقد كان فيما لقُوا من تأنيب الضمير ولائمة النفس ، والشعور بالغُربَة ، والتخلّف عن الرفاق ، وعن الإنسان الذي آثروه على نفوسهم وأولادهم ومُهَجهم وأرواحهم : لقد كان في كل ذلك عقاب شديد .

وقد ذكر ذلك أحد الثلاثة وهو كعب بن مالك ، في بلاغته العربية وبيانه المُشرِق ، فقال : ( فكنت إذا خرجتُ في الناس بعد خروج رسول الله ﷺ ، فطفت فيهم : أحزنني أني لا أرى إلَّا رجلاً مغموصاً عليه النفاق ، أو رجلاً ممن عذر اللهُ من الضعفاء ) .

ولما رجع رسول الله ﷺ سألهم عن سبب التخلف فصدَقوا واعترفوا . وكان لا بد من تأديب ، وكان لا بد من درس ، وكان لا بد من امتحان الإخلاص والولاء ، والحُبّ والوفاء . وكان ذلك ، فقد نهى رسول الله ﷺ المسلمين عن كلامهم من بين مَن تخلّف عنهم .

فماذا كان بعد ذلك ؟ ظهرت معجزة مثبتة للإيمان والتربية وسلطان العقيدة . كانوا أبناء المدينة ، عاشوا فيها ولهم فيها إخوة وأقارب ، وأهل وولد ، وأصدقاء وأحباب ، ولكن خضع المجتمع كله لكلمة تصدر من شفة رسول الله ﷺ ، فلا عاصي ، ولا ثائر . وندع القول لكعب بن مالك الراوي ، الأديب البليغ : ( فاجتنَبَنَا الناس وتغيروا لنا ، حتى تنكرت في نفسي الأرضُ ، فما هي التي أعرف ) ، حتى قد أتى ابنَ عم له وأحب الناس إليه ، فسلّم عليه ، فلم يرد السلام ، فنشده بالله : هل تعلمني أُحب الله ورسوله ؟ فيجيب بعد ما نشده ثلاث مرات : الله ورسوله أعلم ، فتفيض عينا كعب بن مالك .

ويأمره رسول الله ﷺ بأن يعتزل امرأته ، فيفعل ويُلحِقها بأهلها ، ويخطب وُدَّه ملكُ غسان الكبير ، ويدعوه ليواسيه ويكرمه ، وكان أشد محنة امتحن بها مُحِبّ : يجفوه الحبيبُ القريب ، وينبذه المجتمع وتقصيه البيئة ، وفي هذه

الضائقة والجفوة يطالبه ملك ويرسل إليه كتاباً بأخبار بِرّه ورِفْده وعطاياه الواسعة ، فيرفض ذلك في إباء وكراهية وتحقير ، إنها معجزة ثالثة للإيمان والتربية وسلطان العقيدة .

ولما تم كلُّ ذلك ، وبلغ الضيقُ غايتَه ، والمحنةُ أشُدَّها ، ولا أبلغ من قول الله تعالى : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ . . . ﴾ إلخ : تاب الله على هؤلاء المخلَّفين المؤمنين الصادقين ، الذين ظهرت قوة إيمانهم في هذه المحنة أشد مما تظهر في معركة حربية أو غزوة عملية ، وثبتوا في هذا الجفاء والإقصاء أشد مما يثبت البطل على حرّ السيوف والأسنّة .

تاب الله عليهم توبة كريمة ، شرَّف فيها قدْرهم ، وغسل عنهم عارهم ، وخلَّدَ ذكرهم ، وبيّض وجوههم . وبدأ بالنبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة ، وهكذا ألحقهم بأصحابهم الذين سبقوهم ووضعوهم في هذا المكان المُشرِّف الكريم . وما بدأ بذكر النبي ﷺ الذي غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، ولا بذكر الذين ساهموا في هذه الغزوة : إلَّا لإعادة الثقة إلى نفوس هؤلاء الثلاثة وردّ اعتبارهم ومكانتهم في المجتمع ، ولإزالة ما يسمّيه علماء النفس اليوم بِـ« مُركَّب النقص » ، وهي مصلحة عظيمة من مصالح التوبة ، ولذلك جاء في الحديث الشريف : « التائب من الذنب كمن لا ذنب له » وأن التائب يصبح كيوم ولدته أمه .

وليست هنالك طريق أو أسلوب أقوى وأعمقَ تأثيراً من الأسلوب الذي اختاره القرآن ، وهو أنه قدَّمَ ذكر السابقين الراسخين الذين سبقت لهم الحسنى ولم يسقطوا هذه السقطة ، يُشرِّفهم ويتقدم عليهم رسول الله ﷺ ، وبدأه بقوله : ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ . . . ﴾ إلخ ، ليعرف الناس أن التوبة مَكْرُمة وفضيلة ، ويحتاج إليها الأنبياء والمرسلون والسابقون الأولون ، والمؤمنون الراسخون ، والمجاهدون المغامرون ، لئلا يشعر هؤلاء الثلاثة أنهم مُنحَطُّون في القدْر نازلون في الشرف ، ولئلا يلصق بهم هذا العار ، ولئلا يشعر المجتمع الإسلامي أنهم غرباء متميزون ، وشامة في الناس يُشار إليهم بالبنان ، فقال :

﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ .

* * *

# الجانب الإنساني والجانب النبوي(١)

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ ۗ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴾

[ إبراهيم : ٣٥ ـ ٤١ ] .

إن دعاء والد لولده ، أو جدّ ومؤسِّس أسرة وسيّد عشيرة ، لذريته وفصيلته : شيء طبيعي جرت عليه العادة واقتضته الطبيعة البشرية ، فإن حنان الأُبوّة ، والحرص على سعادة الأولاد من غريزة الآباء والأجداد وشيوخ القبائل .

وقد سجل التاريخ ودواوين الأدب العربي بصفة خاصة ، أدعية ووصايا كثيرة من الآباء للأبناء ، ومن الشيوخ المُحنّكين للنشء الجديد والأجيال القادمة ، تجلت فيها نفسية الشيوخ وثقافتهم ، ونفسية ذلك العصر الذي عاشوا فيه وثقافته كذلك ، وهي مرآة صادقة وحكاية أمينة مصوِّرة لما كان يعيش في ذلك العصر من الخواطر والأفكار ، ولما كان في تلك البيئة من المُثُلِ العليا والغايات المطلوبة .

---

(١) نشر هذا المقال في مجلة « البعث الإسلامي » في عددها السادس ، المجلد الثاني عشر ، عام ١٩٦٨م .

ولكن دعاء إبراهيم الخليل أسلوب من الدعاء ، لا نظير له في التاريخ ، ولا مثيل له في دواوين الأدب ، كما أن إبراهيم طراز خاص من البشر وأمة وحده ، والدعاء قطعة من النفس ، وصورة للنفسية والعقيدة .

إنه دعاء تجلَّى فيه إيمان إبراهيم وحنان إبراهيم ، وعلم إبراهيم ودعوة إبراهيم ، فمن أراد أن يعرف مكانة إبراهيم ويتمثَّل نفسيته فلينظر إلى هذا الدعاء الذي صدر من أعماق النفس ومن أعماق القلب ، فدلَّ على النفس ودلَّ على القلب ، وكان إبراهيم دائماً يتكلم عن عقيدة ويُعبِّر عن قلب ، ذلك القلب السليم الذي خصَّه الله به ، فكيف في هذا الدعاء الذي كان يناجي به ربه ؟!

إن أول ما طلبه إبراهيم من ربه لأولاده وذريته هو أن يجنبه وإيّاهم من عبادة الأصنام ، وكان ذلك أكبرَ همّ إبراهيم الذي شغل خاطره ، واستولى على مشاعره . فقد رأى ـ وهو بعيد النظر ، واسع التجربة ، نافذ البصيرة ، سائح في الأرض ـ مصير الأجيال البشرية ، والأديان السماوية ، كيف أصبحت فريسة الوثنية ، وعبادة الأصنام ، وكيف ضاعت أمانة التوحيد في غابة العقائد والفلسفات ، وكيف شُغِلَ الإنسان بعبادة الأصنام والتماثيل ، والتوجه إليها والتوصل بها ، عن عبادة الله وحده ، فلم يُوفَّق لها ولم يُكرَم بها في أجيال كثيرة وآجال طويلة . وكانت النتيجة أن اتجهت عاطفة العبادة وغريزة الدعاء والالتجاء والتضرع إلى المخلوقات والمحسوسات ، فهل يناقَش إبراهيم عليه الصلاة والسلام في ضوء التجارب وواقع الحياة في قوله : ﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ﴾ ؟ وهل يُشَكُّ في صدقه وفراسته ؟ .

ثم إنه يخبر بأنه أسكن ذريته بواد غير ذي زرع ، بجوار البيت المحرم ، بعيداً عن مركز المدنية والخصوبة والتجارة وعن العواصم الكبيرة ، على خلاف عادة الآباء ومؤسّسي العشائر والقبائل ، وآثر بطن الجزيرة وبطحاء مكة ليعلموا أن المطلوب منهم غير التجارة ، وغير الزراعة ، وغير عقيدة الثراء والرخاء ، المطلوب منهم القيام بدعوة إبراهيم والمحافظة على عقيدة إبراهيم ، ولئلا يذهلوا عن عبادة رب هذا البيت الذي بناه وشيده ﴿ ٱلَّذِى

أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴾ : ﴿ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَوٰةَ ﴾ .

وهنالك ثار الحنان الأبوي في جوار الإيمان النبوي ، وإبراهيم الخليل مثال رائع بين إيمان الأنبياء وحنان الآباء ، فلم ينس الشفاعة لأولاده الـذين هم قطعة من نفسه وجسمه ، فلاحظ ـ وهو قوي الملاحظة ـ أن الوادي الذي آثره لأولاده لا زرع فيه ولا ضرع ، وليس فيه شيء يستهوي القلـوب ، ويجلب الناس ، ويجلب الرزق والبضائع ، وهم أمناء الدعوة وورثة الدين ، فكيف يقومون بفريضتهم ؟ وكيف يُؤْثِرون هذا المكان المنعزل بالإقامة والبقاء ؟ فقال : ﴿ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾ .

ولم يَشْغَله هذا الدعاء المخلص والمناجاة الخاشعة ، عن أن يحمد الله على نعمة الأولاد والذرية التي وُهِبت له على الكِبَر ، وإنما المسكن بالساكن ، والمنزل بالعامر ، والشيء بالشيء يذكر ، وكان كل ذلك نتيجة الدعاء والابتهال . وهو يرجو إجابة هذا الدعاء ، كما تحقَّق إجابة الدعاء القديم : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴾ . وطلب من الله أن يوفقه وذريته لإقامة الصلاة ، وأن يجعله وأعقابه مرتبطين بوجهه الكريم وبيته القديم ، ولم ينس حين دعا لذريته أن يدعوَ لأبيه وللمؤمنين جميعاً ، فإبراهيم عليه الصلاة والسلام آية في الوفاء ، سخيٌّ جواد في الدعاء ، فقال : ﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴾ .

كان العالم في عصر إبراهيم عليه الصلاة والسلام خاضعاً للأسباب ، واعتمد الناس عليها اعتماداً زائداً ، حتى أصبحوا يعتقدون أنها مؤثِّرة مستقلة قائمة بذاتها ، وحتى أصبحت أرباباً من دون الله ، وأصبح هذا الخضوع للأسباب وتقديسها والاعتماد عليها ، وثنيَّة أخرى غير الوثنيّة التي أُغرقوا فيها وغلوا من عبادة الأصنام والأوثان ، وكانت حياة إبراهيم ثورة على الوثنيّين ، ودعوة إلى التوحيد النقي الخالص ، وتحقيقاً لقدرة الله الواسعة المحيطة بكل شيء ، وأنه يخلق الأشياء من عدم ، وأنه يخلق الأسباب ويملكها ، ويفصل الأسباب عن المسببات ، وينتزع عن الأشياء خواصها ، وطبيعتها ، ويستخرج

منها أضدادها ، ويسخرها لما يشاء ومتى يشاء . أشعل الناس له النيران ، وقالوا : ﴿ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمۡ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ﴾ [ الأنبياء : ٦٨ ] ، وكان إبراهيم يؤمن بأن النار خاضعة لإرادة الله تعالى ، ليس الإحراق لها طبيعة دائمة لا تنفكّ عنها إنما هي طبيعة مودَعة وأمانة فيها ، إذا أراد أطلق لها العنان ، وإذا أراد أمسك الزمام ، وحوّلها إلى برد وسلام ، فخاضَها مؤمناً مطمئناً واثقاً ، وهكذا كان : ﴿ قُلۡنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ۝٦٩ وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَخۡسَرِينَ ﴾ [ الأنبياء : ٦٩ ـ ٧٠ ] .

واعتقد الناس أنه لا حياة إلّا بالخِصب والمِيرة والماء الغزير ، فكانوا يرتادون لأسرهم وأبنائهم ، ويختارون لسكنهم ووطنهم أراضي مخصِبة تكثر فيها المياه ويتوفر فيها الخصب ، وتسهل فيها التجارة والصناعة ، وقد ثار إبراهيم على هذه العادة المتبعة والعرف الشائع ، والاعتماد على الأسباب ، فاختار لأسرته الصغيرة ـ المكونة من أم وابن ـ وادياً غير ذي زرع ، لا زراعة فيه ولا تجارة ، منقطعاً عن العالم ومراكزه التجارية ، ومواضع الرخاء والثراء ، ودعا الله تعالى أن يوسع لهم الرزق ، ويعطف إليهم القلوب ويَجْبِي إليهم الثمرات من غير سبب وطريق معروف ، فقال : ﴿ رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ﴾ [ إبراهيم : ٣٧ ] .

وأجاب الله دعاءه ، فضمن لهم الرزق والأمن ، وجعل بلدهم محطّاً للخيرات والثمرات : ﴿ أَوَلَمۡ نُمَكِّن لَّهُمۡ حَرَمًا ءَامِنٗا يُجۡبَىٰٓ إِلَيۡهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيۡءٖ رِّزۡقٗا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ [ القصص : ٥٧ ] ، ﴿ فَلۡيَعۡبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلۡبَيۡتِ ۝٣ ٱلَّذِيٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ ﴾ [ قريش : ٣ ـ ٤ ] .

تركهم في أرض لا أثر فيها لما يُروِي الغلة ويبلُّ الحلقوم ، فإذا بماء يفور من الرمال ، ويفيض من غير انقطاع ، فيشربه الناس في سخاء ويحملونه إلى بلدهم ، ويترك أهله في بلد قفر لا أنيس فيه ، فإذا به يصبح مكاناً يؤمّه الناس من كل صوب ، ويأتون إليه من كل فجّ عميق .

وهكذا كانت حياة إبراهيم تحدِّياً للمادية المسرفة الشائعة في عصره ، وعبادة الأسباب واتخاذها أرباباً من دون الله ، ومثالاً للإيمان بالله وقدرته المطلقة ، وأن إرادته فوق كل شيء ، وهكذا كانت سنّة الله معه ، يُخضِع له الأسباب ويخلق له ما تحار فيه الألباب .

* * *

# قِيامُ اللَّيل ، وعنايةُ كِبَارِ الأئمة بهِ

﴿ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ﴾ [ الإسراء : ٧٩ ] .

إنَّ أقوى وسيلة لتغذية الروح وشحن ( بطارية ) القلب : قيام الليل ، الذي أكثر القرآن من الحثّ عليه ، والترغيب فيه ، ومدح أصحابه حتى كأنه ملحق بالفرائض وتابع لها ، ولذلك سمّي نافلة .

وكان رسول الله ﷺ لا يتركه في حضر وسفر[١] ، ويذهب كثير من علماء الإسلام ، أنه كان فرضاً عليه ، وقد قال الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ۝٢ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا ۝٤ إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلٗا ثَقِيلًا ۝٥ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـٔٗا وَأَقۡوَمُ قِيلٗا ۝٦ إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحٗا طَوِيلٗا ۝٧ وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلٗا ۝٨ رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا ﴾ [ المزمل : ١ ـ ٩ ] ﴿ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ﴾ [ الإسراء : ٧٩ ] .

ولذلك كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم شديد المحافظة عليه ، عظيم الحرص والرغبة فيه ، وكان يقوم حتى تتورم رجلاه ، يقول المغيرة بن شعبة : قام النبي ﷺ حتى تورمت قدماه ، فقيل له : قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخّر ، قال : « أفلا أكون عبداً شكوراً »[٢] ، وروى الترمذي عن عائشة رضي الله عنها : قام النبي صلى الله عليه وآله وسلم بآية من القرآن ليلة .

ويعرف المتتبّع لأخبار الصحابة رضي الله تعالى عنهم ، والذي يطالع دواوين الحديث وكتب السيرة والتاريخ ، أن قيام الليل كان فاشياً منتشراً فيهم

---

(١) قال العلّامة ابن القيم : ( لم يكن ﷺ يدع قيام الليل حضراً وسفراً ، وكان إذا غلبه نوم أو وجع، صلى من النهار اثنتَيْ عشرة ركعة ) . زاد المعاد ١/ ٨٤ .

(٢) رواه البخاري والمسلم والترمذي والنسائي .

حتى أصبح شعاراً لهم ، وقد وُصفوا أمام ( هِرَقْل ) وقادته بأنهم بالليل رهبان وبالنهار فرسان . ويصفهم سيد التابعين ومن أعرف الناس بالصحابة ، الإمام الحسن البصري فيقول : ( إن المؤمنين لما جاءتهم هذه الدعوة من الله صدّقوا بها وأفضى يقينها إلى قلوبهم ، خشعت لله قلوبهم وأبدانهم وأبصارهم ، كنت والله إذا رأيتهم رأيت قوماً كأنهم رأي عين ، ما كانوا بأهل جدل ولا باطل ، ولكنهم جاءهم أمر عن الله فصدقوا به ، فَنَعَتَهم الله في القرآن أحسن نعت ، قال : ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا ﴾ [ الفرقان : ٦٣ ] ، إلى أن يقول : ثم ذكر أن ليلهم خير ليل فقال : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ﴾ [ الفرقان : ٦٤ ] ينتصبون لله على أقدامهم ، ويفترشون وجوههم سُجَّداً لربهم ، تجري دموعهم على خدودهم فَرَقاً من ربهم ، قال الحسن : ( لأمرٍ ما سهروا ليلهم ولأمر ما خشعوا نهارهم ) .

وقد كان شعاراً للصالحين والربانيين ، والدعاة والمجاهدين والمربين المصلحين في كل عصر وفي كل طبقة ، وقد كانوا يأخذون لكفاحهم بالنهار ولأشغالهم التي تتطلب قوة خارقة للعادة ، وصبراً لا نفاد له : زاداً ووقوداً من عبادتهم في الليل ومن يقظتهم في الأسحار .

ولا يفهم الإنسان سرّ هؤلاء العلماء الربّانيين ، والدُّعاة المصلحين ومثابرتهم على الجهاد في التعليم والإصلاح ، وتحمُّلهم للمشاقّ والمِحَن ، إلّا إذا رأى مواقفهم بالليل وشأنهم مع ربهم تبارك وتعالى . حتى كان أولئك العلماء الذين قد يعتقد من لا يعرف حقيقتهم ، أنهم كانوا من علماء الظاهر ، ويتهمهم بالجفاف والخشونة : من كبار المهتمين بقيام الليل والذكر والتسبيح ، فما ظن القارىء الكريم ، بالذين اشتهروا بكثرة العبادة وشدة الزهد ، ورِقَّة القلب والانقطاع إلى تربية النفوس ، أمثال الشيخ عبد القادر الجيلاني ، والشيخ شهاب الدين السُّهْرَوَرْدِي ، والشيخ أحمد بن عبد الأحد السَّرهَنْدي ، والسيد أحمد بن عرفان الشهيد الهندي .

يقول العلاّمة ابن القيم عن شيخه وأستاذه شيخ الإسلام ابن تيمية : ( صلى شيخ الإسلام مرة صلاة الفجر ، ثم جلس يذكر الله تعالى إلى قريب من

انتصاف النهار ، ثم التفت إليّ ، وقال : هذه غدوتي ، ولم أتغدّ ، ولو لم أتغدَّ الغداء سقطت قوتي ، أو كلاماً قريباً من هذا )[١] .

وكذلك كان شأن تلميذه ابن قيم الجوزية ، فيقول المؤرخ ابن كثير ، وهو يصفه : ( لا أعرف في هذا العالم في زماننا أكثر عبادة منه ، وكانت له طريقة في الصلاة ، يطيلها جداً ، ويمدّ ركوعها وسجودها ، يلومه كثير من أصحابه في بعض الأحيان ، فلا يرجع ولا ينزع عن ذلك )[٢] .

ويقول العلاّمة ابن رجب الحنبلي : ( وكان ذا عبادة وتهجد ، وطول صلاة إلى الغاية القصوى ، وتألُّه ولَهَج بذكر الله ، شُغِف بالمحبة والإنابة والافتقار إلى الله تعالى ، والانكسار له والاطّراح بين يديه على عتبة عبوديته ، لم أشاهد مثله في ذلك )[٣] .

وأغرب من ذلك كله أَمْرُ العلاّمة الحافظ عبد الرحمن بن الجوزي الذي هو زعيم النقاد ، وحامل لواء الردّ على غلاة الزُّهّاد والعُبّاد ، يقول سبطه أبو المظفر : ( وكان يختم القرآن في كل سبعة أيام ) ، وقال ابن النجار : ( له حظ من الأذواق الصحيحة ، ونصيب من شرب حلاوة المناجاة ) ، وقد ذكر ابن القادسي : ( أنه كان يقوم الليل ولا يكاد يفتر عن ذكر الله )[٤] .

وهكذا كان أئمة المسلمين وقادتهم ، وزعماء الإصلاح والتجديد ، ورجال التعليم والتربية ، ومن نفع الله المسلمين بنفوسهم وأنفاسهم ، وكتب لمآثرهم وآثارهم الانتشار الواسع والبقاء الطويل ، والقبول العظيم والذكر الجميل : من أصحاب العبادة والسهر في الليالي ، والقيام في الأسحار ، وأصحاب الصلة الروحية بالله تعالى . وهكذا كان وسيظلُّ : فلا تنشأ يقظة عن

---

(١) مجموعة الوابل الصيب لابن القيم ، ص ٧١٩ ـ ٧٢٠ ( مطبعة المنار ) .
(٢) البداية والنهاية ١٤/ ٣٣٥ .
(٣) التاج المكلل ، ص ٤١٧ .
(٤) المرجع السابق .

غفلة ولا نهضة عن جمود وخمود ، ولا حياة من موت ، ولا انتباه من قساوة وفتور .

﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ [ الأحزاب : ٦٢ ] .

* * *

# مَراحل الإيمَان وَالهدايَة ، وَالدَّعوة وَالثبات

﴿ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴾ [ الكهف : ١٣ ـ ١٤ ].

إن خطوة هؤلاء الفتية المؤمنين الجريئة البطولية التي خَطَوْها ضد الديانة الشركية السائدة ، والسلطة القوية القائمة ، التي كان أكثر كبارهم وأقربائهم موظفين فيها متطفلين عليها : لهي حقّاً محلُّ إكبار وإجلال .

إن هذه الآية الكريمة تناولت مراحل اعتناقهم للحق وإيمانهم واهتدائهم واستقامتهم وثباتهم عليه بترتيب لطيف خاص ، وهو الترتيب الصحيح لمراحل الإيمان والدعوة المتسلسلة المترابطة ، وقد صرحت الآية الكريمة بأنهم جرؤوا أولاً على نبذ دينهم السابق واعتناقهم الحق ، وقبول الدعوة الدينية : ﴿ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ ﴾ ثم زادهم الله هدى وثباتاً ، ثم لما دخلوا مرحلة الابتلاء والمحنة ربط الله على قلوبهم وهذه هي المراحل الطبيعية الشرعية التي يأتي معها نصر الله تعالى وتأييده .

إنه ينبغي أن يلاحظ أن الله تعالى استعمل هنا جمع القلة ، فقال : ﴿ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ﴾ وذلك لأن المستميتين للدين الذين يُغْفِلون جوانب رقيهم المادي ورغد العيش والراحة ، لا يكونون إلّا قِلَّةٌ في كل عصر .

ثم لفت أنظارهم إلى أن الله تعالى ذكر من صفاته في هذا الموضع صفة الربوبية ، فقال : ﴿ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ ﴾ ، وقال : ﴿ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ وذلك لأن الناس كانوا يتصورون انحصار رقيهم وازدهارهم وكفالة حاجاتهم وقضاء متطلباتهم في الوفاء للحكومة والوظائف والمناصب ، ولم يكونوا يتصورون الراحة والطمأنينة والعيش الهنيء بدون ذلك ، فإنهم لقولهم : ليس لنا رب وكافل إلّا الله رب السموات والأرض ، لا حكومة تُربّينا

ولا مخلوق يرزقنا : ضربوا على تلك العقيدة الجاهلية الفاسدة والتصور الجاهلي الذي يشرك مع الله آلهة وأرباباً أخرى ، وأعلنوا أن رزقهم ونفعهم وضررهم راجع إلى الله وحده ، وقد أحيَوا بذلك مثال سيدنا صالح عليه الصلاة والسلام ، وقد يكون وقع في أمرهم من ردة الفعل لإعلانهم ما وقع لأسرة صالح حيث قالوا له : ﴿ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ . . . ﴾ [ هود : ٦٢ ] .

إن كل آية في القرآن الكريم معجزة برأسها ، ولكن هذه الآية لاشتمالها على بيان ترتيب عجيب دقيق لمراحل الإيمان والدعوة ، والثبات والاستقامة ، وإعلان الحق ، والصبر عليه : معجزة خاصة وترتيب رباني لطيف .

* * *

# الله نورُ السَّموات وَالأرْض

﴿ ۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾ فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ ۚ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [ النور : ٣٥ ـ ٣٨ ] .

إن الآيات الجميلة الرائعة التي قرأتموها ، تُحدِّثنا عن هذا الكون الذي نعيش فيه ونهيم به حباً وغراماً ، في أسلوب جديد ، أسلوب الوحي الإلهي ، أسلوب الأنبياء المرسَلين ، الذين انكشفت لهم الحقائق ، واهتدَوا من الكون إلى فاطر الكون ، وسعدوا بالمشاهدة واليقين . ولقد قال قائلهم وقد رأى الشمس تغيب في الأفق : ﴿ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [ الأنعام : ٧٨ ـ ٧٩ ] ، وقد قيل عنه : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴾ [ الأنعام : ٧٥ ] .

حدثتنا هذه الآيات عن سرّ الحياة ، عن سرّ القوة والحركة والنشاط ، عن سرّ البهجة والأنس ، عن سرّ الجمال الفاتن ، عن سرّ كُلِّ ما في هذا العالم من حَسَن وجميل ، وحيّ نامٍ .

﴿ ۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ هذا هو النور الذي فاض على هذا العالم فأضاء الكون وأشرقت الأرض بنور ربها .

ولكنه نور لا كالنور ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾ ولكنه لا يفهم إلا بالأمثلة

الحكيمة البليغة : ﴿ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ ﴾ .

ولكن هذا النور لا يختص بجهة دون جهة ، وبإقليم دون إقليم ، وبجنس دون جنس ، وبوطن دون وطن ، إنه فوق الحدود والجهات ، وفوق الأرض والسموات ، وفوق الشعوب والأمم ، والأجناس والأوطان ، والأنساب والألوان ﴿ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ ﴾ [ الصافات : ٥ ] . وهذا رد على من خصص الله رب العالمين بشعب خاص ، أو بوطن خاص ، وضيَّقَ رحمة الله الواسعة وَجُودَه العام .

فقال ـ وهو يضرب المثل لنوره ـ : ﴿ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ ﴾ ، ثم إنه في إفاضة نوره وبث خيراته وَجُوده لا يفتقر إلى الأسباب ولا يستعين بالوسائط ﴿ يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ ﴾ .

إن هذا النور عام قد عم الكون ، وعم الشرق والغرب ، وأشرق على البر والبحر ، والسهل والجبل ، والحيوان والجماد ، ولكن لا يهتدي إليه إلا من فتح الله بصيرته وشرح صدره للإسلام فعرف اللهَ معرفة صحيحة ، وتوصل من الكون إلى فاطر الكون : ﴿ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ ﴾ [ الزمر : ٢٢ ] ، وفكر في هذا العالم بنور من ربه فوصل إلى النتائج الصحيحة وطرب بها : ﴿ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ [ آل عمران : ١٩١ ] ، فاهتداء إلى هذا النور سعادة لا ينالها إلّا من أدركته العناية الإلهية والهداية الربانية ﴿ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ .

هذه الهداية عن طريق الأنبياء والرسل الذين أكرمهم الله برسالاته وكتبه ، فقال : ﴿ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [ المائدة : ١٥ ـ ١٦ ] ، ولذلك يقول المهتدون يوم القيامة : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ۖ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ ۖ ﴾ [ الأعراف : ٤٣ ] .

ويُبحَث عن كل شيء في محله ومركزه ، ويبحث عن هذا النور وعن هذه الهداية في المساجد التي أسست على التقوي ، وأقيمت للعبادة والذكر والعلم : ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ ﴾ [ النور : ٣٦ ] . ولكن الإسلام ، ولكن كتاب الله لا يدعو إلى الرهبانية ، إنه يدعو إلى الاشتغال ، وأكل الحلال ، إنه يمدح من يجمع بين الدين والدنيا في الدعاء : ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ [ البقرة : ٢٠١ ] ، ويجمع بين التجارة والعبادة في الحياة بحيث لا تلهيهم التجارة والصفق بالأسواق عن أداء الفرائض والصلوات ، وقد سماهم : الرجال ، فقال : ﴿ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ ﴾ [ النور : ٣٦ ـ ٣٧ ] ، ولا تشغلهم زينة الحياة الدنيا ، وصخب الأسواق عن تذكُّر يوم شديد عسير لابد منه : ﴿ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [ النور : ٣٧ ـ ٣٨ ] .

* * *

# قصُور كبَار عقَلاء الغَرب وَفضلَائه في علوم الآخِرة وَمعْرفةِ الله تعَالى وَالحقَائِق الدِّينيَّة(١)

﴿ بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴾ [ النمل : ٦٦ ] .

إنني أقول معتذراً ، ولا أجرؤ على الاعتذار إلى منزّل القرآن الكريم والموحِي به ، إنما أعتذر إلى بلاغة القرآن الكريم وإعجازه بقصور ترجمتي ، وأقول : لقد حدث ثقب في علمهم في الآخرة . ولا أجد تشبيهاً وتعبيراً لوضع علماء الغرب ومفكريه وكشوفهم العلمية ورحلتهم الفلسفية والفكرية : أحسن وأجدر من هذا التشبيه والتعبير الذي يعبِّر عنه العامة Puncture ، كأن سيّارة تسير في طريقها وإذا بها يحدث خلل جليل يمنعها عن المسير ، ويعوقها عن المُضيّ في الطريق ، ويشلُّ جميع قواها ، فلا أجد لذلك تعبيراً أو وصفاً أجمل من تعبير « بنشرت السيّارة » .

انظروا كيف أن العلم الذي كان يسير سيراً حثيثاً ويقطع المسافات الشاسعة بكل طمأنينة وثقة ، وقد جال وصال في الميادين العقلية والرياضية والطبيعية وما بعد الطبيعية ، حتى إذا وصل إلى مبحث ( واجب الوجود ) من حيث ذاته وصفاته ، والآخرة ، والحياة بعد الموت : « ادّارك » ، كأن العجلة بَنْشَرَتْ وأصبحت فارغة من الهواء . والألفاظ التي تلت هذه اللفظة في الآية الكريمة تعبر عن كيفيات العقلية الغربية المتناقضة المترددة الحائرة ، وعن مختلف طبقات الغرب : ﴿ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴾ .

---

(١) ألقى العلاَّمة الندوي هذه الكلمة المرتجلة في ندوة رابطة الأدب الإسلامي العالمية في جامعة الهداية بمدينة « جيفور » ـ ( الهند ) .

والآية الكريمة الثانية التي جعلها الإمام ابن تيمية أساس مبحثه في كتاب « النبوّات » هي : ﴿ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ﴾ [ يونس : ٣٩ ] .

إن العقلية الغربية الفجة المختلّة تقول : إنّ كل ما هو غير مشهود : هو غير موجود . إن حصر الموجودات في المشهودات ، لَمن عثرات العلم الإنساني والعقل البشري الكبيرة الهائلة ، وقد صبغتها العقلية الغربية صبغة علمية فلسفية ، وإن ذلك لَمِن سوء حظ البشرية وعدوانٌ ضدّ الإنسانية ، وإن هذا هو الفرق الأساسي الكبير بين العلم المحروم من الفيض الإلهي السماوي وبين العلم المستنير بنور الرسالة السماوية . وقد بيّن ذلك سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام بتعبير سَهْل واضح : ﴿ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ﴾ [ الأنعام : ٨٠ ] .

وهذا هو واقع خطاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم على جبل الصفا ، فقد كان بقمّة الجبل ، والناس في سفحه ، فقال صلى الله عليه وآله وسلم : « أرأيتم لو أخبرتكم أن وراء هذا الجبل جيشاً يريد أن يغزوكم ، أكنتم مصدِّقيَّ ؟ » وقد كان العرب بدائيين متخلِّفين في الفلسفة والمدنية ولكنهم أثبتوا تفوقهم وفضلهم في سلامة العقول والواقعية لمَّا رأوا أن الشخص الذي يخبرهم بذلك هو على رأس الجبل يرى أمامه وخلفه ، وهو لا يكذب ولا يخون ، فقالوا بلسان واحد : نصدقك يا محمد ! فقد توصل العرب بصراحتهم وإدراكهم السليم للواقع إلى ما لم تصل إليه اليونان والرومان ، ولم يصل إليه الغرب حتى الآن ، فقد حسموا في الأمر ورأَوا أنه لا سبيل للتكذيب بناءً على أننا لم نشاهد .

* * *

# إحدى نبوءات القرآن العظيمة
# ( نبوءة غلبة الروم )[١]

## أهمية النبوءة وغرابتها وأسلوب عرضها :

إن النبوءات التي تضمنها القرآن الكريم تشكل إحدى نواحي الإعجاز القرآني البارزة ، والمعجزة هي تلك الخارقة للعادة التي يظهرها الله ـ عز وجل ـ لقدرته تصديقاً لنبيه وتأييداً ، ويعجز العقل البشري عن تعليلها الظاهر ، وتأويلها المعتاد .

إن الأوضاع التي أعلن فيها القرآن هذه النبوءات والأوضاع التي تحققت فيها ، كل ذلك معجزة من دون شك ، وإن هذه النبوءات تشتمل على ناحيتين من الإعجاز .

أولاها العلم بتلك الحوادث والوقائع الخطيرة التي لا تدرك بالقياس ولا بالحنكة والتجربة في الظروف التي لا تساعد على النبوءة بمثل ذلك إطلاقاً .

والثانية هي تحقيقها ووقوعها حسب إعلان النبوءة وحسب ذلك العلم تحققاً يشهده الناس .

إن أوضح وأقوى وأصرح هذه النبوءات في القرآن الكريم هو نبوءته بغلبة الروم على الفرس بعد هزيمتهم النكراء أمامهم ، اقرأ الآيات التالية :

﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا

---

(١) نشر هذا المقال في مجلة « البعث الإسلامي » في عدديها التاسع والعاشر المجلد الواحد والأربعون ، عام ١٩٩٧م .

﴿ يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴾ [ الروم : ١ ـ ٧ ] .

يدل سياق هذه النبوءة وأسلوبها أنها أعلنت معجزة للقرآن الكريم وللرسول الكريم ﷺ وتصديقاً له ، لأنها حادثة غريبة غير عادية ، ولأن انتصار الروم كان بعد هزيمة ساحقة نكراء . ولعله لذلك ذكرت هزيمتهم في الآية الكريمة مرتين .

والناحية الثانية في غرابة هذا الحادث وغرابة النبوءة أن هذا الانتصار سوف يتحقق في حدود تسعة أعوام ، المدة التي لا تكفي لنهضة شعب منحط متدهور ، ومملكة متضعضعة مدمرة ، ولأن ينقلب المفتوحون المنهزمون فاتحين غالبين .

وقد أكد في الآية الكريمة أن هذه الحادثة ستقع على طريق خرق العادة ضد كل القرائن والدلالات الظاهرة وكل القياسات والتقديرات البشرية ، وأنها تكون صنع الله الغالب : ﴿ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ﴾ .

ففي الآية إشارة إلى حقيقة أن الله هو الملك المتصرف ، بيده الأمر ، ينزع الملك ممن يشاء ويؤتيه من يشاء ، وأنه في لمحة البصر يحول الغالب مغلوباً ، ويصير الميت حياً ، فليس على علمه قيد ولا حد ولا حاجة له إلى انتظار الظروف الملائمة والأوضاع المساعدة . فهو المتصرف وحده يتصرف كما يشاء في كل حين وآن : ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَٰلِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ الَّيْلَ فِى النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِى الَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَىَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَىِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [ آل عمران : ٢٦ ـ ٢٧ ] .

ثم صرح بأن ذلك يقع بأمر الله وفضله وأن المؤمنين لكونهم أقرب إلى الروميين ـ أصحاب الكتاب ـ بالنسبة إلى الإيرانيين ـ عباد النار ـ وبعد ما لقوا من سخرية المشركين وغيرهم واستهزائهم ما لقوا ، سيفرحون ويسرون أكثر من حزنهم يوم انهزام الروم : ﴿ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ اللَّهِ ﴾ .

ويمكن أن تكون هذه القطعة من الآية تحمل لهم بشرى إلى ذلك الفتح

العظيم الحاسم « فتح بدر » الذي تحقق في ساحة بدر في اليوم نفسه الذي تحقق فيه وعد الله بغلب الروم[١] .

وقد يخطر على بال مسلم لماذا ينصر الله المسيحيين الروميين - وهم من هم في شركهم وضلالهم رغم أنهم أهل كتاب - فقد صرح الله تعالى بأنه : ﴿ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ﴾ و ﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ ﴾ ، فقد اقتضت حكمته نصر المجوس عليهم ثم اقتضت انتصار الروم عليهم : ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ ﴾ .

ثم ذكر الله - عز وجل - هنا من صفاته العليا ما تشير إلى تحقق هذه النبوءة الخارقة للعادة وتكون دليلاً على إمكانها ووقوعها، فقال: ﴿ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ .

وقد تجلت هاتان الصفتان ( عزة الله ورحمته ) في هذا الحادث ، فظهرت عزة الله وغلبه وقهره ضد المجوس الذين كانوا في سكرة الانتصار ونشوة الفتح ، وظهرت رحمته ولطفه في حق الروميين الذين كانت قد تحطمت قلوبهم وتزلزل كيانهم ، وكادت مملكتهم تلفظ أنفاسها الأخيرة ، فكان منهم خمسون ألفاً من الأسرى في أيدي المجوس ، يسومونهم الذل والإهانة وسوء العذاب ، كما كانت هي بشرى سارة للمسلمين الذين كانوا قد حزنوا - بطبيعة الحال - على هزيمة الروم بالنسبة إلى المجوس ، وكانت إشارة إلى الغلبة والانتصار في المستقبل الذي أكده الله - عز وجل - وأردفه بقوله : ﴿ وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ ﴾ .

ثم صرح بأن هذا الحادث خلاف التجارب اليومية ، والمعلومات البشرية الظاهرة ، ولذلك سيستبعده أكثر الناس ويرونه محالاً أو أقرب إلى المحال وضرباً من الخيال .

﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٦ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴾ [ الروم : ٦ - ٧ ] .

---

(١) انظر تفسير ابن كثير رواية ابن عباس - رضي الله عنهما - بصدد تفسير الآية ( سورة الروم . الآيات : ١ - ٧ ) .

## الخلفية التاريخية :

لنبحث أولاً هنا من تلك الظروف الحالكة المعاكسة التي كان الناس يرون فيها غلبة الروم وانتصارهم بعيداً عن الفهم والإدراك وشيئاً من المستحيلات ؛ والذي جعل القرآن يعطيه هذه الأهمية ويقدمه علامة ودليلاً على القدرة الإلهية وصدق القرآن وإلهية مصدره .

إن استقلال شعب مستعبد ، ونهضة شعب خامل محطم ، وانتصار مملكة على أخرى ، ليس من الوقائع النادرة أو الاستثناءات الخاصة في التاريخ ، فلماذا أعار القرآن الكريم لهذا الحادث هذه الخطورة والأهمية ؟

إن هذا الاستفهام يدعونا إلى دراسة تلك البيئة والأوضاع الخاصة التي أصبح فيها هذا الحادث يكتسب صفة المعجزة الخارقة للعادة ، هل كان الروميون من الهزيمة والانكسار والتحطيم والهلاك ، وهل كان الفرس من الانتصار العظيم ، وإحكام قواعد الدولة في المناطق والولايات الرومية بحيث كان انقلاب الوضع الحربي وتغير الظروف وتحول المفتوح المكسور فاتحاً غالباً ، يعد حادثة غريبة استثنائية ، وكانت يد الله فيها تتصرف من وراء الستار على غير المعهود والمعتاد ، ولم يكن للحادث تفسير عقلي ومنطقي يطمئن إليه ؟ سنرد على هذا الاستفهام ببيانات المؤرخين الأوروبيين ، ويكون اعتمادنا فيه على كتاب تاريخ « انحطاط وسقوط الإمبراطورية الرومية » ( Decline And Fall of The Roman Empire ) للمؤرخ الأديب الإنجليزي المعروف إيدورد جبون ( Edward Gibbon ) .

## دوافع الغزو الإيراني وأسبابه :

لقد لجأ كسرى أبرويز[1] « الذي هو حفيد أنوشيروان وابن هرمز » بعد فراره من بهرام جور « الذي خلع هرمز واعتلى العرش الساساني » إلى الروم

(١) وهو الذي يدعى في الإنجليزية بـ « Chosroesll » .

وكان ذلك عهد السلطان موريقس ( Maurice ) الذي استقبل ولي العهد الإيراني بحفاوة ملوكية بالغة وتبناه[١] . ثم سير جيشاً بقيادة الجنرال نارشز المعروف ( Narses ) الذي استطاع بمساعدة الإيرانيين أن يعيد إلى خسرو عرش آبائه السالفين ، وكان ذلك عام ٥٩٠م ، وكان خسرو دائم الشكر لهذه المنة من موريقس ، وكان يراه كالوالد المشفق ، وبقيت العلاقات بين الفرس والروم إلى آخر عهد موريقس ودية طيبة ، وكسبت الدولة الرومية بسبب هذه اليد عند خسرو ، منافع مادية سياسية عديدة .

وفي عام ٦٠٢م خرج فوقس ( Phocas ) أحد الجنرالات في الجيش الرومي ضد السلطان ، فقتله ، وأهلك جميع أفراد أسرته بوحشية وقساوة بالغة ، وتربع على عرش القسطنطينية ، وأخبر الحاكم الجديد ملك إيران باستيلائه على العرش الروماني والعلاقات الودية التي ستبقى كما كانت بين الدولة البيزنطية الرومية ، والدولة الإيرانية ، وبعث إلى بلاط كسرى ليليوس ( Lilius ) كسفير لدولته ، وقد كان هذا الرجل هو الذي حمل رأس موريقس ورؤوس أبنائه إلى فوقس ، فلما حضر السفير الرومي في بلاط كسرى ، وعلم كسرى تفاصيل الثورة استشاط غضباً ، وقبض على السفير وأبى أن يعترف بالحكومة الرومية الجديدة ، وأعلن في مملكته أنه سيثأر « لأبيه » صاحب اليد البيضاء عليه ، وقد أشعلت عواطف الولاة وحكام الولايات الدينية والقومية هذا الوقود اضطراباً وأثارت الحمية ، حتى قام كسرى بحملته على الدولة الرومية عام ٦٠٣م[٢] .

## اتساع الفتوحات الإيرانية :

لقد كان فوقس أحرق نارشز ( Narses ) أكبر الجنرالات الروم حياً ، في إحدى أسواق قسطنطينية ، ولم يكن إذ ذاك في الجيش الرومي قائد أكثر حنكة منه وتجربة ، فقد كانت الأمهات يخوفن باسمه أولادهن في أسيريا ،

---

(١) وعند المؤرخ المسعودي زوجه ببنته مارية .

(٢) قبل بعثته النبي الكريم ﷺ بسبعة أعوام .

وقد ديست الجيوش الرومية بعد قتله بأقدام الأفيال ، وكان كسرى قد كسر من قبل القلاع والحصون الرومية على الثغور ، وعبر نهر الفرات إلى مدن الشام ، فاستولى عليها . دخل هيروبلس ( Hierapolis ) وشالس ( Chalcis ) وحلب ( من مدن الشام ) وأدخلها في مملكته حتى دخل أنطاكية العاصمة الشرقية للدولة البيزنطية ، وأحكم الاستيلاء عليها .

لقد كان هذا السيل العرم للفتوحات الإيرانية دليلاً على انحطاط الدولة الرومية وسقوطها ، وعلى عدم أهلية فوقس للقيادة ، وفتح الإيرانيون بعد ذلك بدون مشقة مدينة ( قيسارية ) عاصمة كيبى دوشيا ( Cappadocia )[١] ثم فتحوا دمشق ، والخليل شرق الأردن حتى استولوا على يروشلم ، وأحرقت كنيسة « مدفن المسيح » ( حسب عقيدتهم وزعمهم ) وكنائس قيلينا وقسطنطين ، الفخمة الهائلة ، ونهبت النذور والأوقاف الدينية التي جمعت في مدة ثلاثة قرون في يوم واحد ، ونقل « الصليب الأصلي » ( True Cross ) إلى إيران ، وقتل من المسيحيين تسعون ألف نسمة .

وتغلغل الإيرانيون بعد الشام في مصر واستولوا عليها ، وامتدت حدود المملكة الإيرانية إلى الحبشة وطرابلس الغرب ، كما دخلت المستعمرات البيزنطية وكثير من المناطق الإفريقية في حوزة إيران ، وعاد الفاتح الإيراني على أثر الإسكندر المقدوني في طريق صحراء ليبيا ، واستولت قطعة من الجيش الإيراني ، من الفرات باسفورس ( Bosporus ) وشالسيدن ( Chalcedon )[٢] واستمرت المخيمات الإيرانية العسكرية أمام القسطنطينية

---

(١) هي المنطقة الواقعة في آسيا الصغرى الممتدة ٢٥٠ ميلاً طولاً و١٥٠ ميلاً عرضاً . ويقع بشرقيها سلسلة جبال طوروس ( Mi.Laurus ) ونهر الفرات ، وفي غربها غليشيا ولائي كونيا ، وفي الشمال بندامين وفي الجنوب سلسلة جبال طوروس كذلك ( دائرة المعارف البريطانية ) .

(٢) كان موقعه في جنوب غرب مجمع النهرين الفرات وساجر على بعد ستة عشر ميلاً على ذلك الشارع الطويل الذي كان يصل بين شمال سورية والعراق . ( دائرة المعارف البريطانية ) .

لعشر سنوات كاملة ، ولو كانت الدولة الإيرانية تملك الأساطيل البحرية ، لأدخلت في حوزتها جميع ولايات الدولة البيزنطية .

## تربع « هرقل » على عرش الدولة البيزنطية :

في نفس الوقت الذي كانت فيه الدولة البيزنطية تعاني من صراع الحياة والموت ، وكادت تلفظ نفسها الأخير قام هرقل ( Heraclius ) حاكم إفريقية بثورة عسكرية ضد فوقس ، وقتل فوقس عام ٦١٠م ، وأخذ بزمام الدولة البيزنطية المتدهورة الساقطة ، وكان أول نبأ تلقاه فور توليه لأمور الدولة ، سقوط إنطاكية .

كان يتوقع أن تنطفىء نار الغضب والحقد في قلب كسرى بعد قتل فوقس ، وكان من المأمول أن يتقدم كسرى بالشكر لهرقل على أنه كفاه القتال ، وأنه تكفل عنه بالقصاص من قاتل « أبيه » صاحب النعمة واليد عليه ، والمتسلط على مملكته بعد الإطاحة به ، ولكن نوايا كسرى قد تغيرت ، فاستمر في إجراءاته التعسفية العدوانية ، ولم ينصرف عن تكميل سلسلة فتوحاته التي كان بدأها ضد فوقس .

## مشاكل الدولة البيزنطية :

انهزم الروميون في عام ٦١٦م هزيمة كاملة ، وخسروا إمبراطوريتهم العظيمة وفقدوها على أيدي الفرس ، وكانت هناك ـ عدا هذه الخسائر في المناطق الشرقية على أيدي الغزاة الإيرانيين ـ ثورات وانقلابات في أوربة كلها .

فكان الوحوش الأوارس ( Avars ) يعيثون في أوربة من حدود المجر إلى جدران تدرس ظلماً وفساداً وبربرية ، كما أن دماء أولئك الأبرياء التي أريقت في الحرب الإيطالية بسخاء لم تكن قد جفت بعد .

وقبل ذلك كانت هناك عملية إبادة للأسرى الذين قبض عليهم في ساحة « بنسونيا » ( Pansonia ) المقدسة ، كما استرقت النساء والولدان ، وانحصرت

الدولة البيزنطية في أسوار القسطنطينية وفي بعض المناطق من اليونان وإيطالية وإفريقية ، وفي مواضع عدة قرى ساحلية على الساحل الآسيوي من صور ( Tyre ) إلى طرابزون ( Trbizond ) .

وغزت عاصمة الدولة بعد سقوط مصر ، الأوبئة والأمراض والقحط ، وكانت تحمل من مصر إلى القسطنطينية الحبوب والغلات ، فلما سقطت مصر ، انقطعت هذه الميرة ، وكان توزيع الحبوب والغلات في القسطنطينية من عهد القسطنطيني ٣٠٣م توزيعاً عاماً يهدف إلى جذب الناس إلى العاصمة وإقامتهم فيها، وقطع هذا التوزيع عام ٦١٨م لأول مرة لأجل انقطاع الاستيراد.

## سيرة هرقل :

لقد أجمع المؤرخون لحياة هرقل على أنه ـ رغم هذه الوقائع الهائلة والفتوح الإيرانية المدمرة ـ كان بارداً لا تملكه عاطفة ، ولا تحركه حياة ، إنه كان يشهد بأعين رأسه سقوط الدولة البيزنطية وانتهاءها ، كما يقول عنه المؤرخ جبون :

« لقد كان هرقل في بداية عهد ولايته ونهايته رجلاً كسلان ، ضعيف الهمة ، عبد اللذائذ والمتع ، خرافياً ، متفرجاً قزماً فاقد الحمية على نكبات شعبه وويلاته » .

## نبوءة القرآن الكريم :

في هذه الظروف الحالكة عام ٦١٦م التي كانت الدولة البيزنطية فيها تعاني من سكرة الموت ، تنبأ القرآن الكريم وهو ينزل في مكة المكرمة على أمي من البشر :

﴿ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ ﴾ [ الروم : ٢ ـ ٤ ] .

يقول المؤرخ المسيحي جبون : « لقد تنبأ محمد ﷺ في الوقت الذي كانت فيه الفتوحات الإيرانية في عنفوانها وشدة اكتساحها ، بأن الرايات سوف

تخفق بالفتح والانتصار في بضع سنين وأنه لم يكن هناك عندما أعلنت هذه النبوءة ، شيء أبعد في القياس وأغرب عن العقل من هذه النبوءة ، لأن الأعوام الاثني عشر الأولى من ولاية هرقل كانت تنذر بالسقوط الوشيك والنهاية الأخيرة للدولة البيزنطية »[١] .

لقد كان ذلك العام الخامس من بعثة النبي الكريم ﷺ وكان مشركو مكة يفرحون ويطربون على هذا الانتصار الإيراني العظيم والهزيمة الرومية المخزية ، وكانوا يرون فتح الإيرانيين وانتصارهم ، انتصار أصدقائهم ، وفألاً مبشراً لهم إذ كانت تربط بينهما وشيجة الشرك وصلة الوثنية ، فلما نزلت هذه الآيات الأولى من سورة الروم ، وعلم بها الكفار والمشركون ، استبعدوها في القياس بل رأوها ضرباً من الخيال ، واشترطوا مع المسلمين أن الروم إذا انتصروا فعلاً فإنهم يعطون المسلمين عدداً من الإبل ، وإذا لم تتحقق هذه النبوءة فإن المسلمين يعطونهم إياها .

وكان أبو بكر الصديق رضي الله عنه الذي كان شريكاً في هذا الشرط ، حدد لتحقيق النبوءة خمس سنوات ، ولكن لما علم النبي الكريم ﷺ بذلك ذكر له أن البضع متردد بين الثلاث إلى التسع ، فليحدد تسع سنين ، ففعل أبو بكر ذلك[٢] .

## ظهور النبوءة وتحقيقها :

أراد « هرقل » بعد أن أحيط بهذه المشاكل والنكبات ـ التي تقدمت سابقاً ـ أن يهاجر من القسطنطينية ويلجأ إلى مدينة قرطاجنة[٣] ( Carthage ) الآمنة المطمئنة ويتخذها مركزه وعاصمته ، وقد كانت سفنه الشراعية محملة بثروات القصر الملكي وحليه وجواهره ، مستعدة للإقلاع إذ حرضه البطريق على القتال

---

(١) تاريخ انحطاط وسقوط الدولة البيزنطية : ج/٣ ، ص/٣٠٣ ، طبع ١٨٩٠م ( Dicline And Fall of The Roman Empire ) .

(٢) انظر جامع الترمذي ، كتاب التفسير .

(٣) كانت هذه المدينة بقرب تونس حالياً .

وشجعه وشد أزره ، فجاء هرقل إلى كنيسة ( St.Sophia ) وحلف أَن حياته وموته مع هؤلاء الذين ولاهم الله أمرهم .

ويقدر انهزامية الإمبراطورية الرومية من أنه بعث أحد القادة الإيرانيين وعدداً من المسؤولين الروميين إلى كسرى إيران ، يستجدي منه العفو وإعلان حالة الأمن ، فلما حضروا لدى كسرى قال : إنها ليست بسفارة ، إنه في الواقع « هرقل » سيق إلى عرش إيران مغلوباً لا مصفداً ، ولا أعطيه الأمن حتى ينخلع عن « ربه المصلوب » ويختار عبادة الشمس .

ولكنه بعد تجارب ست سنوات رفع يده عن فتح القسطنطينية وأعطى الروميين الأمان على شروط أن يقدموا كل عام ألفاً من التالنت ( Talent ) الذهبي وألفاً من التالنت الفضي وألفاً من الحلل الحريرية ، وألفاً من الخيول وألفاً من الفتيات الباكرات كخراج إلى البلاط الإيراني .

لقد كانت هذه الشروط المخزية المهينة والتي كانت كفيلة بأن تستفز مشاعر الروميين وتشعل فيهم نيران الغيرة والحمية ، والثورة ، أفادت هرقل وأحدثت في نفسيته انقلاباً ، فأعلن حرباً دينيةً مقدسةً ( Sacred War ) واستقرض للنفقات الحربية من أوقاف الكنائس وموارداها بشرط أنه سوف يردها بفوائد ربوية .

## انقلاب في هرقل :

لقد نشأت في طبيعة هرقل الخامدة وعزائمه الكليلة وجثته الهامدة روح جديدة ، وحدث انقلاب جذري في حياته ، فلم يكن هو من الآن هرقل الكسلان المترف الناعم ، بل كان قائداً فاتحاً طموحاً يقظاً متحمساً ، ذا همة وعزيمة صارمة ، قلقاً على أوضاعه ، مضطرباً لاستعادة إمبراطوريته السليبة ، ونفخ الحياة في شعبه الميت الخامد من جديد .

**يقول المؤرخ جبون :**

« كما أن ضباب الليل والصباح ينقشع بالشمس في رابعة النهار ، كذلك

تحول « آركاديوس »[١] الحور والقصور ، قائد الساحة وفارس الميدان ، واستبقيت عزة هرقل وعزة الروم بطريقة رائعة جداً »[٢] .

## زحف هرقل وانتصاراته :

أنزل هرقل جيوشه الكثيفة في خليج الإسكندرونة على يسار الساحل الغربي الجنوبي من آسيا الصغرى ، وأصلح قلاع المدن الساحلية ودرب الجنود الجدد تربية عسكرية منظمة ، ودعا شعبه الرومي بمناسبة إزاحته الستار عن تمثال المسيح ـ عليه السلام ـ إلى الانتقام والثأر من عباد النار ، وألقى خطبة حماسية مؤثرة ، نفخ بها روح العداوة والانتقام ، وبعد أن فتح هرقل مدينة سليشيا ( Cilicia ) توجه إلى كيبي دوشيا ( Cappadocia ) وعبر جبال أرمينيا والبحر الأسود حتى تغلغل في قلب إيران ، ومشى من القسطنطينية بخمسمئة من صفوة الجنود إلى طرابزون ، وفتح مدينة طوروس ، ومناطق جندزاطا وموغان ، وكسر المسيحيون المعابد المجوسية ، وأحرقوا تماثيل كسرى ، وانتهكوا حرمة « مولد زرادشت » ، ثأراً لكنيسة « مدفن المسيح » واستردوا خمسين ألفاً من الأسرى المسيحيين .

ودخل هرقل في « ساباط » ثم زحف إلى مدن قزوين وأصفهان، وتعرضت الدولة الإيرانية لخطر الزوال، وطُلِبَت الجيوش الإيرانية من وادي النيل وباسفورس ولكن هرقل هزم هذه الجيوش الحاشدة شر هزيمة ، وبعد مروره بجبال كردستان عبر هرقل نهر دجلة ، ودخل « ساباط » بعد حرب دموية ، ثم وقعت معركة حاسمة في ساحة نينوا ، دخل بعد الانتصار فيها « دستجرد » ووصل إلى ما يقرب من المدائن حوالي بضعة أميال، ثم كر فاتحاً منتصراً إلى القسطنطينية.

## وقوع النبوءة وتمامها :

تحطمت الدولة الإيرانية وداس الروميون بعد أن تجاوزوا الحدود

---

(١) « آركاديوس » ملك يضرب به المثل في الشرف والرخاء وقلة الأنفة .
(٢) تاريخ انحطاط وسقوط الدولة البيزنطية ، ج٧ ، ص٧٦ .

التاريخية القديمة للدولة البيزنطية ، الأراضي الإيرانية ، ونصبوا في قلب إيران الراية الرومية ، وهكذا تمت هذه النبوءة القرآنية وتحققت في عام ٦٢٥ أي السنة الثانية من الهجرة النبوية ـ على صاحبها أفضل الصلاة والتسليم ـ بمناسبة غزوة بدر الفاصلة بعد تسع سنوات من تاريخ إعلان النبوءة بالضبط ، ولم يكن ثمة من القرائن والدلائل الظاهرة ما يشير إلى تحقق ذلك أو ينم عنه .

## عودة هرقل إلى خموله :

اتفق المؤرخون الأوربيون على أن أروع عهود هرقل للحكم وألمعها في جبين التاريخ ، هو ذلك العهد الذي ثأر فيه من الفرس واسترد مملكته المفقودة ، وأن بداية عهده ونهايته لا تمتان إلى هذا العهد الأوسط بصلة ، ويبدو أن القدرة الإلهية المحضة حركته وقدمته لهذا العمل العظيم .

فإنه قد عاد بعد تكميل مهمته ، ذلك القيصر الخامل المترف المترهل الذي عهدناه من قبل ، وأنه أسلم ـ كما يقول جبون ـ تلك الولايات التي استعادها من الفرس بحروب دامية وجهود ضخمة وتضحيات بالغة إلى العرب على مرأى منه ومسمع .

وقد حار المؤرخون في تعليل هذا التغير والانقلاب في نفسيته وطبيعته وصلاحيته ويقظته في عهده الأوسط ، وغفلته وعدم جدارته وقدرته في أول عهده ، ونهايته ، وقد حاولوا تعليلات مختلفة لعدم توازن هذه الحوادث وتنافرها ، والتعارض العجيب بين أدواره المختلفة . يقول المؤرخ جبون :

« كان الواجب على المؤرخين البيزنطيين أن يحللوا لنا أسباب غفلة هرقل هذه وسباته ، ويقظته وتحركه ، ونحن على هذه المسافة الزمنية البعيدة بيننا وبينه نستطيع أن نتوصل إلى أنه كان رزق الجرأة الشخصية أكثر من العزيمة السياسية وأنه كان هائماً بجمال بنت أخيه ( مارتينا ) الساحر ، التي خادنها واتخذها خليلته وأنه كان آخذاً بمشورة مستشاريه الخرقاء وهي أن حياة ملك لا ينبغي أن تضيع في ساحات القتال ، ولعله كان استشاط غضباً بمطالبات

الفاتح الإيراني المخزية »[١] .

ويقول كاتب المقال حوله في دائرة المعارف البريطانية :

« إن هرقل لغز من الألغاز العجيبة الغريبة ، التي يصعب حلها ، إنه ـ رغم كونه شجاعاً مقداماً في شخصيته ، محنكاً صالحاً للقيادة في سياسته ـ بقي ينظر بهدوء وطمأنينة إلى مملكته وهي تخرق وتبدد ، إن صلاحياته ووجهات حياته في مختلف أدواره ليست مختلفة فحسب بل متعارضة متعاكسة .

ولكن يجب أن لا ننسى أن معلوماتنا عن حياته الأسرية الداخلية ناقصة قليلة ، فيمكن أن يكون وراء هذا التعارض سبب حقيقي آخر ، وإن كان لا يعتبر تبريراً صحيحاً لعمله ، لقد كان أفضل لبقاء صيته وجميل ذكره أن كان قد مات بعد معاركه مع الفرس »[٢] .

لقد اعترف جميع المؤرخين الأوربيين في هذه التصريحات أن هرقل كان قد تحول عند حربه مع إيران إنساناً آخر بطريقة غريبة ، وأنه حدث فيه تطور عجيب ، ونشأت فيه روح قلقة لم تعد بعد الحرب إليه ، وأن كل ما أحرزه واستعاده من الإيرانيين ، فقده بغفلته وتخاذله أمام العرب .

هذا ما يقوله المؤرخون الأوربيون ، ولا نسلم لهم ادعائهم الأخير بأنه تخاذل أمام المسلمين العرب ، فنحن نشك في أن هرقل لم يقاوم الغزوات الإسلامية وأن غفلة هرقل وعدم صلاحيته للقيادة كانت أكثر تسبباً في هزيمة الروم أمام المسلمين من قوة الإسلام وشبابه ، وسيرة المسلمين الطاهرة ، ولا نخوض هنا في هذا البحث فهو خارج عن موضوعنا هذا : ﴿ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ﴾ [ الروم : ٤ ] .

* * *

(١) Dicline And Fall of The Roman Empire ج٧ ، ص٧٦ ـ ٧٧ .

(٢) دائرة المعارف البريطانية ، ج١١ ، ص٦٨٢ ـ الطبعة السادسة .

# حكمة لقمان وموعظة الإيمان

﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴿١٩﴾ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴾ [ لقمان : ١٣ ـ ٢٠ ] .

سَجَّلت الصحف السماوية وسجَّلَ الأدب الديني مواعظ دينية كثيرة ، منها هذه الموعظة اللقمانية ، التي هي من أبلغ هذه المواعظ وأجمعها ، وقد تجلت فيها حكمة الأنبياء ودعوتهم في أجمل مظاهرها وأروعها ، إذاً لا غرابة إذا ضُرِبَ المثل بحكمة لقمان .

وجَّهَ هذه الموعظة والد أكرمه الله بالعقل الحصيف ، والحكمة البالغة التي لا يؤتاها إلّا الأفذاذ الراسخون في العلم ، وقد قال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ ﴾ ، وجهها إلى ولده وفلذة كبده ، فجمعت بين شفقة الآباء وهداية الأنبياء ، قد انتقى الوالد الكريم العظيم لولده الحبيب الأثير ، أصول الحكم وجوامع الكلم ، وفضائل الأعمال ، ومكارم الأخلاق ، فجاءت موعظة فريدة يعمل بها العقلاء في كل عصر ومصر ، فينالون سعادة الدنيا والآخرة .

بدأ لقمان في وعظ ابنه بالنهي عن الشرك ، وقال في إيجاز وإعجاز :

﴿ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ ، ولا أبلغ في تصوير الشرك وتهجينه من أن يقال : إنه ظلم عظيم ، إنه وضع العبادة في غير محلها ، وتفريط في حق الله ، وأيُّ تفريط في حق الله وإفراط في حق المخلوق : هو مجموع جنايات وجرائم تجمعها كلمة ( الظلم ) . . ومن أظلم ممن أعطى حق الله لعبيده ، وترك مَلِكَ الملوك ، وخضع للذليل المملوك ، فكان كتشبُّث الغريق بالغريق ، واستغاثة الرقيق بالرقيق ، وحاجة الفقير إلى الفقير ، ولجوء المريض إلى المريض ؟! .

وقرن الدعوة إلى التوحيد بالدعوة إلى البِرِّ بالأبوين ، ومعرفة حقوقهما ، ولا سيما الأم التي كان جهادها أعظم في حضانته ونشأته ﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ ﴾ ، وقد حثَّ الله على معرفة فضلهما وشكرهما لأن مِنَّتهما أعظم في المخلوق ﴿ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴾ .

ولكن إذا زاحما حق الله وألحّا على الشرك ، فلا طاعة لهما ولا كرامة ، إذ « لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق » ﴿ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ﴾ ، ولكن لا إهانة ولا إيذاء : ﴿ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ﴾ ، فلا بأس بالبر والمواساة ، وصلة الرحم ، أما الاتباع فلا يجوز إلّا لذوي الهداية والمعرفة والإنابة إلى الله : ﴿ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ﴾ .

ولما كان الجمع بين البر بالأبوين وبكل من له حق وفضل ، وبين مفارقتهما ومجانبتهما في العقيدة وحقوق الله ـ برّ بالأبوين من غير إطاعة في الكفر والإثم ، والثبات على التوحيد وعبادة الله من غير هضم لحقوق الوالدين ـ لما كان ذلك مهمة عسيرة دقيقة لا يطلع على زلّاتها إلّا العليم الخبير قال : ﴿ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ .

ثم ذكر في هذه المناسبة اللطيفة أن الله هو الجدير بالعبادة واللجوء والسؤال والدعاء ، إذ لابد لمن يُلجأ إليه ، ويُعتمد عليه في قضاء الحوائج وإسعاف المطالب : أن يحيط علمه بالدقيق والجليل ، ويطلع على الضمائر والخواطر ، فقال : ﴿ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾ .

ثم دعا ابنه إلى أمور أساسية في الدين والأخلاق ، إذا حافظ عليها الإنسان وأخذ بها كان عبداً صالحاً وعضواً كريماً في الأسرة الإنسانية ، منها : إقامة الصلاة ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، والصبر على المصائب . ومنها : التواضع للناس ، والسداد والاقتصاد في السيرة والسلوك . وكل مجتمع سادت فيه الصلاة التي هي حق الله على العباد والتي تنهى عن الفحشاء والمنكر ، والأمرُ بالمعروف والنهي عن المنكر ، والصبرُ ، وكان أعضاؤه بعيدين عن التكبر والاختيال والإسراف والجفاء : كان مجتمعاً مثالياً ومجتمعاً فاضلاً كريماً يسعد به العالم وتسعد به الحياة .

وختم هذه الموعظة بذكر آلاء الله ونِعَمه السابغة الظاهرة والباطنة ، التي توجب الشكر والعبادة والتوحيد ، وتُنشّط للعمل بهذه الموعظة المخلصة الرقيقة التي ألقاها عبد مخلص حكيم على ولده العزيز ـ وعن طريقه على ﴿ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ﴾ ـ فقال : ﴿ أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴾ .

* * *

# كُفرانُ النعمة وَحبّ العَسير الشاق
# طبيعَة مُعوجّةٌ مريضة(١)

﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا . . . ﴾ [ سبأ : ١٨ ـ ١٩ ] .

إن من مواطن الضعف في طبيعة الإنسان أنه إذا استمرّت به حال واحدة من النعمة والراحة والخير : يملّها ويسأمها ـ رغم ما تحمل له من لذة ورفاهية وراحة ـ ويريد التغيير والتبديل مهما كلّفه من ثمن باهظ وجرّ إليه البلاء والمحن . هذا هو الحال الذي أشار إليه القرآن الكريم بلفظة : ﴿ بطرت ﴾ في قوله تعالى :

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ﴾ [ القصص : ٥٨ ] .

وهذه هي قصة سبأ التي أنعم الله عليها بكل الخيرات وعبّد طرقها وملأها أمناً وراحةً : ﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ ﴾ ، فكفروا بهذه النعمة ولم يقدروها حق قدرها :

﴿ فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا ﴾ [ سبأ : ١٩ ] .

ليس هذا من السَّفر في شيء ! نخرج ، نأكل ونشرب ، ونتحدث وإذا بنا نصل إلى منزلنا ، بل لا بد أن يكون السفر طويلاً ومع كلفة ومشقة ، فكان أن سلب الله تعالى منهم نعمهم وخيراتهم وجعلهم أحاديث ومزّقهم كل ممزق .

﴿ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ [ سبأ : ١٩ ] .

---

(١) ألقى العلاَّمة الندوي هذه الكلمة في صنعاء اليمن في شعبان سنة ١٤٠٤هـ .

إنني أشعر في كثير من البلاد الإسلامية والعربية والمجتمعات الإسلامية بوجود هذا المرض ( البطر ) ، فحيثما تلتفت تسمع هتافاً بِـ ( هل من مزيد ؟ وهل من جديد ؟ ) . وليس هتاف : هل من مزيد بأشد خطراً من هتاف : هل من جديد ، ومهما كانت الأوضاع والظروف ، فإن أحب هتاف لدى الناس ( عاشت الثورة ) . وليست هذه الهتافات إلّا بمثابة أخطار وابتلاءات تَحيقُ بشعب أو بلاد ، فلا يبقى أي تمييز بين الصالح والطالح ، والأمن والفساد ، والنصح والغش ، ولا يبقى أي تفكير في العواقب والنتائج . إن هذا المنهج من التفكير وهذه النفسية المتقلبة التي لا تستقر على حال مصدر خطر كبير ، وقد يؤدي إلى مصير قوم سبأ من الدمار والهلاك :

﴿ ۞أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴾ [ إبراهيم : ٢٨ ] .

* * *

# عروج النبوة وهبوط الجاهلية(١)

﴿ وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٧ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ۝١٠ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ۝١١ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ۝١٢ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝١٣ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ۝١٤ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ۝١٥ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ۝١٦ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۝١٧ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ۝١٨ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ۝١٩ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ۝٢٠ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ۝٢١ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ۝٢٢ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ۝٢٣ أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ۝٢٤ فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ۝٢٥ ۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ۝٢٦ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ۝٢٧ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ۝٢٨ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝٢٩ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴾ [ النجم : ١ ـ ٣٠ ] .

إن الدين الذي لم يزل الأنبياء يأتون به في عصورهم ، وجاء به محمد ﷺ أخيراً قائم على اتصال الأرض بالسماء واتصال الشهود بالغيب ، واتصال رسل الأرض برسل السماء ، ويفتح كوة جديدة للعلم واليقين لا عهد لعلماء الطبيعة والآداب بها ولا سبيل لهم إليها ، هذا الاتصال هو الذي يسميه الله بالوحي والرسالة ، وكان اتصالاً يدين له العالم وتدين له الأجيال البشرية في أعز ما عندها من العقيدة الصحيحة والمبادىء الصالحة والمدنية الفاضلة ، والأخلاق الكريمة ، وأحدث وأفضل ثورة وأمثلها وأعدلها وأعمقها وأوسعها

---

(١) نشر هذا المقال في مجلة « البعث الإسلامي » في عددها الرابع ، المجلد السابع والعشرون .

في المجتمع البشري .

يحكي الله في مطلع هذه السورة الكريمة البديعة الجميلة التي سميت بسورة النجم هذا الاتصال المبارك ، اتصال الرسول الكريم بوحي السماء عن طريق الملك الكريم ويقول مؤكداً : ﴿ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴾ [ النجم : ٢ ] ، ويقول إن الرسالة التي جاء بها لا تقاس على ما أنتجته القرائح البشرية والعقول النابغة ، فمصدرها القياس والتجربة ومنبعها الدراسة والممارسة ، ودافعها الهوى والضرورة .

أما الرسالة التي جاء بها محمد ﷺ فمصدرها الوحي والإلهام ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾ [ النجم : ٣ ـ ٤ ] فلا يتطرق إليها الشك ، ولا تبطلها التجارب ولا يعتريها البلى ، ولا تتناقض مع الحقائق ، ولا تفقد حياتها وجدتها في عصر من العصور .

ثم وصف الله الواسطة الكريمة التي حملت هذه الرسالة إلى أفضل البشر بنعوت وصفات فيها الجلال والقوة ، وفيها الروعة والعظمة ، ووصف الجو الذي يكتنف هذا الاتصال بصفات تتصل بعالم الغيب وعالم الروح والملائكة ، وعاد فنفى الوهم والالتباس في ساعة الوحي وتلقي الإلهام ومشاهدة الملائكة والاتصال بعالم الغيب فقال : ﴿ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۝١٧ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴾ [ النجم : ١٧ ـ ١٨ ] .

ثم أقبل إلى عبَّاد الأوثان وأهل الجاهلية والوثنية في عصر ظهور الإسلام وقد حرصوا على تخصيص الإناث بالعبادة وإشراكها في الألوهية ، فاللات والعزى ومناة أشهر آلهة الجاهلية العربية وأعظمها ، إناث ، وآلهة الإغريق القدماء ، وكثير من الشعوب التي كانت تسكن في أواسط آسيا ، إناث ، وقد عرفت واشتهرت كراهة العرب وتذممها من البنات ، حتى شاع وأد البنات في قبائل كثيرة ، وقد صور القرآن امتعاض العرب الأشراف من بنت تولد تصويراً بليغاً دقيقاً فقال : ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝٥٨ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ ﴾ [ النحل : ٥٨ ـ ٥٩ ] .

أقبل إلى هؤلاء المشركين الذين جعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً وجعلوا لله البنات ولهم البنين فقال : ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴾ [ النجم : ١٩ ـ ٢١ ] ثم قال متهكماً ساخراً : ﴿ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴾ [ النجم : ٢٢ ] .

وهكذا الوثنية خرافة وتناقض وأسطورة خيالية ﴿ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ﴾ [ النجم : ٢٣ ] .

وذلك لأن الجاهلية تقوم دائماً على الأساطير والحكايات والتقاليد والعادات ، والظنون والقياسات ، والأهواء والشهوات ، ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ﴾ [ النجم : ٢٣ ] .

ثم ذكر أن هذه الجاهلية لا تقوم على أساس من العلم واليقين ، إنما هي قياس في قياس وظن وتخمين ، ﴿ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴾ [ النجم : ٢٨ ] .

ثم ذكر أن في الناس طبقة لا شأن لها بالمعرفة الصحيحة ، والحياة الباقية ، والأعمال الصالحة والأخلاق الفاضلة ، أكبر همها ومبلغ علمها هذه الحياة الدنيا ورفاهيتها ودعتها ومآكلها ومشاربها ، هذه هي الطبقة التي تضيع فيها حكمة الأنبياء وشفقتهم وإخلاصهم وتوجعهم ، فالأولى الانصراف عنها إلى طبقة تبحث عن الهداية ، وتهتم بالآخرة ، ﴿ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴾ [ النجم : ٢٩ ـ ٣٠ ] .

واقرؤوا الآيات الآتية بعدها تروا أن الله سبحانه وتعالى القادر على كل شيء وخالق كل شيء من السموات والأرض ، كيف يقسم جزاءه بين من أساؤوا بالعمل ومن أحسنوا بالحسنى .

﴿ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَـٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى ﴾ [ النجم : ٣١ ] .

●●●

# فهرس الموضوعات


| الموضوع | الصفحة |
|---|---|
| مقدمة الكتاب | ٥ |
| **أولًا : ملامح من حياة العلامة أبي الحسن علي الحسني الندوي وشخصيته** | ٩ |
| اسمه ونسبه وأسرته | ٩ |
| ميلاده ونشأته | ٩ |
| جهوده العلمية ونشاطاته الدعوية | ١١ |
| أهم مؤلفاته | ١٢ |
| رحلاته | ١٣ |
| تقديم وتكريم | ١٣ |
| رئاسته وعضويته للجامعات والمجامع | ١٤ |
| وفاته | ١٥ |
| **ثانياً : إسهامات العلامة أبي الحسن علي الحسني الندوي في دراسات إعجاز القرآن الكريم** | ١٧ |
| قصة أصحاب الكهف | ٢٣ |
| شبه بين الممتحنين في مكة وأصحاب الكهف | ٢٦ |
| التاريخ يعيد نفسه مرة بعد مرة | ٢٧ |
| قصة صاحب الجنتين | ٣٢ |
| روح السورة ومفتاح القصة | ٣٣ |
| قصة موسى والخضر | ٣٦ |
| قصة ذي القرنين | ٣٨ |
| الخاتمة | ٤١ |
| **الفصل الأول : مقالات وبحوث حول القرآن الكريم** | ٤٥ |
| * الإعجاز القرآني | ٤٧ |
| مجالات الإعجاز القرآني | ٤٧ |

| الموضوع | الصفحة |
|---|---|
| أكبر مجالات الإعجاز القرآني وأولها؛ الإسلام | ٤٩ |
| المعجزة الثانية للقرآن؛ علومه ومعارفه | ٥١ |
| خلط العلم البشري بالعلم الإلهي في الصحف الدينية القديمة | ٥٢ |
| العلم الجديد والكشوف الجديدة تصدق القرآن | ٥٤ |
| * شروط الاستفادة من القرآن | ٥٨ |
| * موانع الاستفادة من القرآن | ٦٣ |
| * القرآن يتحدث عن نفسه | ٦٧ |
| ١ ـ القرآن قطعي غير مشكوك فيه إطلاقاً | ٦٧ |
| ٢ ـ القرآن محكم ومفصل | ٧١ |
| ٣ ـ القرآن فرقان | ٧٢ |
| ٤ ـ القرآن مصدر للكتب الإلهية السابقة ومهيمن عليها | ٧٣ |
| ٥ ـ القرآن يهدي إلى سبل الإسلام ويخرج الناس من الظلمات إلى النور | ٧٤ |
| * القرآن الحميد والصحف السماوية القديمة في ميزان العلم والتاريخ | ٨١ |
| * تنبيه القرآن الكريم على تحريفات الصحف السابقة الدقيقة بين عقائد الديانات السابقة والفرق الدينية | ٩٥ |
| * بين نظرتين: النظرة القرآنية والنبوية إلى الأمة الإسلامية ونظرة المسلمين أنفسهم إلى أنفسهم | ١٠١ |
| * مطالبة القرآن الانقياد التام والاستسلام الكامل | ١١١ |
| **الفصل الثاني : نظرات وتأملات في سور القرآن الكريم وآياته** | **١٢٥** |
| * سورة الفاتحة: جمالها وجامعيتها وتأثيرها في الحياة | ١٢٧ |
| * نظرات في سورة يوسف | ١٣٢ |
| * سورة الإسراء وما تضمه من إعلانات تاريخية صارخة | ١٤١ |
| * تأملات في سورة الكهف | ١٤٨ |
| صلة سورة الكهف بفتن العهد الأخير | ١٤٩ |
| دور المسيحية واليهودية في توجيه المدنية ومصير الإنسانية | ١٥٣ |
| * قصص هذه السورة الأربع | ١٥٧ |
| نظرتان في هذا الكون | ١٥٧ |

**الموضوع** **الصفحة**

سورة الكهف: قصة صراع بين الإيمان والمادية ..... ١٥٩
(١) قصة أصحاب الكهف في الأدب المسيحي والقصص الدينية ..... ١٦٠
حكمة اختيار القرآن لهذه القصة ..... ١٧٠
شبه بين الممتحنين في مكة وأصحاب الكهف ..... ١٧٣
التاريخ يعيد نفسه مرة بعد مرة ..... ١٧٥
* قصة أصحاب الكهف في ضوء القرآن ..... ١٧٧
دولة الوثنية والخلاعة ..... ١٧٧
ثوار مؤمنون ..... ١٧٨
حياة من غير عقيدة، أو عقيدة من غير حياة ..... ١٧٩
منهج الصواب في حياة الانسحاب ..... ١٨٠
جائزة الإيمان والفتوة والفرار إلى الله ..... ١٨٠
الحياة في كهف الإيمان ..... ١٨٢
تغيير الأوضاع في روما ..... ١٨٢
طرداء الأمس أبطال اليوم ..... ١٨٤
انتصار الإيمان على المادية ..... ١٨٦
تقديس المادة ورجالها في الحضارة الداجلة ..... ١٨٧
الغلو والتطرف سمة هذه الحضارة ..... ١٨٧
العدل والسداد ميزة هذا الدين وحضارته ..... ١٨٨
(٢) قصة صاحب الجنتين ..... ١٩٠
الطبيعة المادية وقصر نظرها ..... ١٩٠
التفكير الإيماني ..... ١٩١
روح السورة ومفتاح القصة ..... ١٩٢
اعتماد الحضارة المادية على وسائلها وقواها ..... ١٩٢
الإيمان بالإرادة الإلهية والاعتماد عليها ..... ١٩٣
إشراك صاحب الجنتين ..... ١٩٤
وثنية هذا العصر ..... ١٩٤
نظرة القرآن إلى الحياة الدنيا ..... ١٩٥

| الموضوع | الصفحة |
|---|---|
| بين الأديان السماوية والفلسفات المادية | ١٩٧ |
| تلاميذ مدرسة النبوة وسيرتهم | ١٩٨ |
| تحرج العقليات وبعض الدعوات من عقيدة الآخرة | ٢٠٠ |
| اختلاف في منهج الدعوات النبوية والدعوات الإصلاحية | ٢٠٠ |
| من عوامل القوة والإقدام | ٢٠١ |
| لا صلة بين هذه العقيدة والرهبانية | ٢٠٢ |
| (٣) قصة موسى والخضر | ٢٠٣ |
| بين موسى والخضر | ٢٠٣ |
| تصرفات غريبة | ٢٠٤ |
| ما أعجب الحقائق إذا ظهرت | ٢٠٥ |
| العلم البشري لم يبلغ الكمال والغاية | ٢٠٦ |
| تحدّ للتفكير المادي | ٢٠٦ |
| (٤) قصة ذي القرنين | ٢٠٨ |
| مثل للملك الصالح المصلح | ٢١١ |
| فقه المؤمن العليم | ٢١٣ |
| طابع الحضارة الغربية: الثورة على فاطر الكون | ٢١٤ |
| منتهى الحضارة المادية | ٢١٥ |
| سمة الدجال الكفر والإفساد | ٢١٦ |
| تأثير الدجال في الحياة والمجتمع | ٢١٧ |
| يحسبون أنهم يحسنون صنعاً | ٢١٨ |
| قصور العلم والعقل البشري وعدم الإحاطة بكلمات الله | ٢١٨ |
| الحاجة إلى النبوة وسر اختصاص النبي | ٢٢٠ |
| والآخرة أخيراً | ٢٢١ |
| * آيات من سورة مريم: مظهر الإنسانية الحساسة الضعيفة والنبوة الكريمة القوية | ٢٢٢ |
| * آيات من سورة المؤمنون: مجتمع في فرد وأمة في نفس واحدة | ٢٢٥ |
| * حكم الله في فترة الوحي ونعمه على رسوله العظيم دراسة لسورة الضحى | ٢٢٨ |

الموضوع الصفحة

* خلاصة وافية وعرض جميل للسيرة النبوية الطاهرة في سورة الانشراح ..... ٢٣٤
* الإنسان بين السمو والانتكاس في ضوء سورة التين ..... ٢٤٨
* كنود الإنسان وسببه وعبرة من الحيوان الأعجم، تأمل في سورة العاديات ٢٥٣
* تشريع الصوم وأسراره كما ذكرها القرآن ..... ٢٥٦
خصائص التشريع الإسلامي في الصوم وفضله وأحكامه ..... ٢٥٨
لماذا خُص رمضان بالصوم ..... ٢٥٩
موسم عالمي ومهرجان عام للعبادات والخيرات ..... ٢٦٠
الجو العالمي وماله من تأثير في النفوس والمجتمع ..... ٢٦٠
الفضائل وما لها من تأثير وقوة ..... ٢٦١
* تشريع الحج والصوم وبعض حكمهما وأحكامهما في ظلال القرآن ..... ٢٦٤
* إمكان الانبعاث الديني بعد خمول طويل واضطهاد كبير ..... ٢٦٦
* أهمية الإعلان بإكمال الدين ومقتضياته العقلية والمدنية ..... ٢٦٧
* الصلة المتينة الدائمة بين الدين والمدنية والمجتمع ..... ٢٦٩
* مكانة الكعبة المشرفة الدينية والعالمية المبدئية ومسؤولية المرتبطين بها في أرجاء العالم ..... ٢٧١
* بين قامة هذه الأمة وقيمتها ..... ٢٧٣
* توبة كريمة مشرفة ..... ٢٧٥
* الجانب الإنساني والجانب النبوي ..... ٢٧٩
* قيام الليل وعناية كبار الأئمة به ..... ٢٨٤
* مراحل الإيمان والهداية والدعوة والثبات ..... ٢٨٨
* الله نور السموات والأرض ..... ٢٩٠
* قصور كبار عقلاء الغرب وفضلائه في علوم الآخرة ومعرفة الله تعالى والحقائق الدينية ..... ٢٩٣
* إحدى نبوءات القرآن العظيمة ( نبوءة غلبة الروم ) ..... ٢٩٥
أهمية النبوءة وغرابتها وأسلوب عرضها ..... ٢٩٥
الخلفية التاريخية ..... ٢٩٨
دوافع الغزو الإيراني وأسبابه ..... ٢٩٨

| الموضوع | الصفحة |
|---|---|
| اتساع الفتوحات الإيرانية | ٢٩٩ |
| تربع هرقل على عرش الدولة البيزنطية | ٣٠١ |
| مشاكل الدولة البيزنطية | ٣٠١ |
| سيرة هرقل | ٣٠٢ |
| نبوءة القرآن الكريم | ٣٠٢ |
| ظهور النبوءة وتحقيقها | ٣٠٣ |
| انقلاب في هرقل | ٣٠٤ |
| زحف هرقل وانتصاراته | ٣٠٥ |
| وقوع النبوءة وتمامها | ٣٠٥ |
| عودة هرقل إلى خموله | ٣٠٦ |
| ❊ حكمة لقمان وموعظة الإيمان | ٣٠٨ |
| ❊ كفران النعمة وحب العسير الشاق طبيعة معوجة مريضة | ٣١١ |
| ❊ عروج النبوة وهبوط الجاهلية | ٣١٣ |
| فهرس الموضوعات | ٣١٧ |

❊ ❊ ❊

# من تُراث العلاَّمة النَّدوي

**جمع وإعداد : سيد عبد الماجد الغوري**

سلسلة رائعة من مجموعات محاضرات ومقالات العلاَّمة السيد أبي الحسن علي الحسني الندوي في موضوعات مختلفة ، صدر منها :

١ ـ دراسات في إعجاز القرآن .

٢ ـ مقالات حول السيرة النبوية .

٣ ـ محاضرات إسلامية في الفكر والدعوة ( ٣ أجزاء ) .

٤ ـ مقالات إسلامية في الفكر والدعوة ( ٣ أجزاء ) .

٥ ـ مقالات وبحوث حول التعليم والتربية الإسلامية .

٦ ـ مقالات حول أعلام المسلمين ومشاهيرهم .

٧ ـ أبحاث حول الاستشراق والمستشرقين .

**دار ابن كثير**

**دمشق ـ بيروت**

## Quranic Study

Articles By:

Sayyid Abul Hasan Ali Nadwi

Edited and Reviewed By:

Sayyid Abdul Majid Ghouri

## هذا الكتاب

يحتوي هذا الكتاب على صفوةٍ نفيسةٍ من المحاضرات والمقالات للعلاَّمة أبي الحسن علي الحسني الندوي ـ رحمه الله ـ في الدراسات القرآنية، نهج فيها العلامةُ منهجاً رائعاً بعرض نماذج بديعة من دعوة الأنبياء والرُّسل عليهم الصَّلاة والسلام؛ الذين ذكرت آثارهم الدعوية في القرآن الكريم للعظة والاعتبار، وهما يشكلان لبنة أساسية في دعوة الإسلام التي يدعو إليها العلامةُ في دراسته القرآنية، وفي دعوته إلى الإسلام والقرآن للناس جميعاً، وهذه هي الميزة المميِّزة لأسلوبه، قلَّ أن يوجد نظيره في الدعوة والدراسات الإسلامية المعاصرة.

وقد أَورد العلامةُ في هذه الدراسات كثيراً من اللفتات والمعاني والإيضاحات التي يستطيع من خلالها المحققون والدارسون للقرآن الكريم أن يستفيدوا منها، وينهلوا ويرتووا من نبعه الصافي.

دار ابن كثير
دمشق ـ ص. ب ٣١١
بيروت ـ ص. ب ٦٣١٨/ ١١٣